# عودة رجال العدالة الثلاثة

إدجار والاس

# عودة رجال العدالة الثلاثة

**تأليف**
**إدجار والاس**

ترجمة
إبراهيم سند أحمد

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنـــداوي

# عودة رجال العدالة الثلاثة

# Again the Three Just Men

إدجار والاس

Edgar Wallace

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩ ٢٢٩٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٨
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

جميع الحقوق الخاصة بترجمة وتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤,٠. جميع الحقوق الخاصة بالعمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2021 Hindawi Foundation.
All rights related to translation, design, and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All rights related to the original work are in the public domain.
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/
*Again the Three Just Men*/Edgar Wallace; this work is in the public domain.

# المحتويات


| | |
|---|---|
| ١- الرسالة السرية | ٧ |
| ٢- المسافرون السعداء | ١٧ |
| ٣- الخاطف | ٢٧ |
| ٤- المصادفة الثالثة | ٣٩ |
| ٥- لغز سلين | ٤٩ |
| ٦- الشيك ذو العلامات | ٥٧ |
| ٧- ابنة السيد ليفينجرو | ٦٧ |
| ٨- مروج الأوراق المالية | ٧٧ |
| ٩- مرتل الترانيم | ٨٧ |
| ١٠- سيدة من البرازيل | ١٠١ |
| ١١- أوهام عاملة الآلة الكاتبة | ١١٥ |
| ١٢- لغز السيد دريك | ١٢٩ |
| ١٣- كونور الإنجليزي | ١٤١ |

الفصل الأول

# الرسالة السرية

نُشرت تحت عنوان «رجال العدالة الأربعة» في مجلة «ديتكتيف ستوري»، عدد ٢ يوليو، ١٩٢٧.

* * *

وردت في مجلة «ذا ميجافون»، في واحدة من أشد حالات التشاؤم والاستغراب، عباراتٌ تدوِّن غرابة ذلك الزمن من دون استهجان. تقول هذه العبارات:

> حتى فريق رجال العدالة الأربعة أصبح مؤسسةً جديرة بالاحترام. منذ خمسة عشر عامًا فقط، كانوا يندرجون تحت مسمَّى «تنظيم إجرامي»، وعُرِضت المكافآت بُغيةَ القبض عليهم. أما اليوم، فيمكن أن تنزل إلى شارع كيرزون وستجد مثلثًا فضيًّا مثبتًا على الباب الرصين الذي يميز مقرَّات مكاتبهم. لقد انقلب بهم الحال من الملاحقة والمطاردة إلى أكبر وكالة حصرية معنية بالتحقيقات. لا يسعنا سوى أن نأمل في أن تتبدَّل طرائقهم العنيفة نوعًا ما إلى حالٍ أفضل بكثير.

في بعض الأحيان تنطوي رؤية مراقب محتمل على مخاطر.

تساءل مانفريد وهو يقشِّر بيضة على الإفطار: «ما الذي يخشاه السيد لويس ليثرسون؟» كان وجهه الوسيم الحليق مُصطبغًا بلونٍ خمري؛ إذ عاد مؤخرًا من شمس سويسرا وثلوجها.

جلس ليون جونزاليس في الجهة المقابلة مُستغرقًا في قراءة جريدة «ذا تايمز»، وعند نهاية الطاولة جلس رايموند بويكارت بوجهٍ مُكفهرٍّ وعابس. ووصفت أقلامٌ أخرى غيري صفاته وشغفه بزراعة الخضراوات.

رفع عينيه ونظر إلى جونزاليس.

سأل: «هل هو الرجل الذي كان يضع رجالًا لمراقبة هذا المنزل الشهر الماضي؟»

ارتسمت ابتسامة على شفتَي ليون وطوى ورقات جريدته مرتبةً.

قال: «نعم هو، سأُحاوره هذا الصباح. وفي هذه الأثناء سُحِب المحقِّقون الذين عيَّنتْهُم وكالة أوتيس للتحقيقات.»

قال بويكارت مُومئًا ببطء: «إذا كان يُراقبنا فإنه يُضمِر نيةً سيئة. سأهتمُّ بمعرفة جميع الأخبار عن هذا الأمر.»

كان السيد لويس ليثرسون يقطن في شارع لاور بيركلي، في منزلٍ ضخم وباهظ الثمن. كان الخادم الذي فتح الباب لليون يرتدي زيًّا شائعًا في الأفلام التاريخية، ولكن لم يعُد يرتديه أحد في شارع لاور بيركلي؛ فكان يرتدي الحرير وسروالًا قصيرًا حتى الركبة ويتزين بالذهب. حملق فيه ليون مندهشًا.

قال الرجل: «سيُقابلك السيد ليثرسون في المكتبة.» كان يبدو مُدركًا للباسه المُتأنِّق، هكذا فكَّر ليون في نفسه.

كان منزلًا فخمًا تميَّز بأثاثه الثمين وزخارفه الفخمة. ولما كان يصعد درجات السُّلم العريضة لمح امرأةً جميلة تمرُّ عبر بسطة الدرج، رَمَتْه بنظرة ازدراء عابرة، ومرَّت مخلفةً وراءها رائحةً هادئة لعطرٍ أجنبي.

ربما يظن المرء خطأً أن الغرفة التي دخلها ما هي إلا غرفة نوم؛ بسبب تنوُّع زخارفها وجمال محتوياتها وتجهيزاتها.

نهض السيد ليثرسون من خلف المكتب الإمبراطوري الفخم ومدَّ يده نحوه وكانت بيضاء. كان نحيف الجسد، أصلع الرأس بعض الشيء، وكانت تجاعيد وجهه تُرسل إيحاءً بأنه على قدرٍ من الثقافة.

قال: «السيد جونزاليس؟» كان صوته رفيعًا حادًّا، ولم يكن لطيفًا للدرجة. «هلَّا جلست؟ لقد وصلني استفسارك ويبدو أن هناك سوء فهم.»

جلس مرةً أخرى. على الرغم من أنه ربما كان يُحاول إخفاء عدم ارتياحه بهذه اللامُبالاة التي أبداها، فإنه لم يتمكن من إخفاء ارتباكه تمامًا.

«أعرفك بالطبع، ولكن من السخافة أن أعيِّن رجالًا لمراقبة منزلك، لماذا؟»

كان جونزاليس يُراقبه باهتمامٍ شديد.

قال: «هذا ما جاء بي إلى هنا، وأعتقد أنه سيكون من العدل أن أخبرك بأننا لا نشكُّ في أنك تُراقبنا. نعرف الوكالة التي استعنت بها، ونعرف الأتعاب التي دفعتها والتعليمات التي أعطيتها لهم. السؤال الوحيد هو: ما الذي يدفعك إلى مراقبتنا؟»

تململ السيد ليثرسون في مقعده من دون ارتياح وابتسم. «في الحقيقة ... أظن أن الحكمة تقتضي عدم إنكار أنني قد استعنت بمحقِّقين بالفعل. الحقيقة هي أن رجال العدالة الأربعة منظمةٌ ضخمة، كما أنني ... كما أنني رجلٌ ثري ...»

لم تُسعِفه الكلمات لكي يُكمِل حديثه.

انتهى الحوار على نحوٍ غير مُرضٍ بعبارات طمأنة مهذَّبة من الجانبين كليهما. ورجع ليون جونزاليس إلى شارع كيرزون وهو غارق في التفكير.

«إنه يخشى أن يستشيرنا أحد، وعُيِّن المخبرون لمنع ذلك الشخص. تُرى، من يكون؟»

جاءت الإجابة في الليلة التالية.

كانت ليلةً ظلماء من ليالي أبريل الباردة الرطبة. كانت المرأة التي تسير مُتباطئةً في شارع كيرزون، لتتفقَّد الأرقام على الأبواب، موضع شك لدى الشُّرطي الواقف عند ناصية شارع كلاريدج. كانت في الثلاثينيات من العمر تقريبًا، ذات جسدٍ نحيلٍ بعضَ الشيء، يتوارى تحت مِعطفٍ مُتهالك ومُبتلٍّ. كان وجهها باهتًا ونحيلًا قليلًا. تأمَّلها ليون جونزاليس وهو يرمقها من خلف الستارة الشبكية التي تُغطي النافذة وقال: «كانت امرأةً جميلة يومًا ما. امرأة عاملة لا يشغل بالَها سوى أن تكسب قُوت يومها.»

كان لديه وقت كافٍ لمراقبتها؛ إذ وقفت لمدةٍ طويلة بجوار الرصيف وهي تنظر إلى الشارع يَمنةً ويَسرةً في يأس.

«لاحَظ غياب مظاهر التأنُّق المُغْري من أي نوع، على الرغم من أنه في هذا الوقت يجد حتى أفقر الناس وشاحًا أو زوجًا من القفازات.»

نهض مانفريد عن الطاولة التي كان يتناول عليها وجبته الخفيفة وانضمَّ إلى المُراقِب المتحمِّس.

قال ليون متأملًا: «أظن أنها من بيئةٍ قروية. من الواضح أنها غريبة على ويست إند. إنها آتية إلى هنا!»

وبينما كان يتحدث، استدارت المرأة ودقَّقت قليلًا في الباب الأمامي. وبعدها سمعا جرس الباب يدقُّ.

«أسأت الفهم؛ إنها لم تضلَّ الطريق؛ لقد كانت تستجمع شجاعتها كي تدقَّ الجرس، وإن لم تكن تلك المرأة هي البعبع الذي يخشاه ليثرسون فلا تصدِّقني بعد الآن!»

سمِع خطوات بويكارت المُتثاقلة في الممر؛ فقد كان بويكارت يتقمص دور كبير الخدم وكأنه كذلك في الحقيقة. وبعد قليل دخل وأغلق الباب من خلفه.

قال بنبرته الجادَّة المُعتادة: «لديَّ مفاجأة.» هكذا كان بويكارت؛ شخصًا غريب الأطوار يقول أشياء غامضة بنبرةٍ جادَّة.

قال ليون مُنفعلًا: «عن المرأة؟ أنا أرفض المفاجآت. لقد فقدت شيئًا ما؛ زوجًا أو ساعة أو شيئًا آخر. مظهرها يُوحي بذلك؛ كأن هالةً من يأسٍ غامض تُحيط بها. هذه علامات لا تُخطئها عين!»

قال مانفريد: «اطلب منها أن تدخل.» ومن ثَم خرج بويكارت.

بعد لحظة، أُدخِلت ألما ستامفورد إلى الغرفة.

كان هذا اسمها. كانت قادمة من إدجوير، وكانت أرملة. وقبل أن تنتهي من المقدمات بوقتٍ طويل، بزغت المفاجأة التي وعد بها بويكارت؛ فهذه المرأة التي ترتدي ملابس تستنكف الخادمة أن ترتديها، ظهرت في عباراتها الرقَّة والثقافة. كانت حصيلتها اللغوية واسعة، وتحدَّثت عن ظروف عيش لا تخرج إلا من امرأةٍ اعتادت النعمة.

ترمَّلت المرأة من رجلٍ استشفُّوا من ثنايا حديثها أنه لم يكن نِعْم الزوج طوال حياته. كان ثريًّا على نحوٍ يتجاوز المعنى المألوف للكلمة؛ إذ كان له عقارات في يوركشير وسومرست، وكان عاشقًا مِقدامًا لصيد الثعالب بصحبة كلاب الصيد، ولكنه لقي حتفه في مِضمار الصيد.

قالت: «نشأ زوجي في ظروفٍ خاصة؛ فقد تُوفي والداه في سنٍّ مُبكرة وربَّاه عمه. كان عجوزًا شنيعًا وسكِّيرًا وفظًّا لأقصى درجة، ويغار من أي تدخُّل خارجي من أي شخص. حرفيًّا لم يرَ مارك أحدًا حتى أَحضرَ له عمُّه العجوز، في آخر عام من حياته، رجلًا يُدعى السيد ليثرسون، وكان شابًّا يكبر مارك قليلًا كي يكون مُعلمًا خصوصيًّا له؛ إذ كان مارك مُتخلفًا في دراسته لأقصى درجة. كان زوجي في عامه الحادي والعشرين عندما مات عمه، ولكنه أبقى على رجلٍ نبيل كي يكون رفيقًا وسكرتيرًا له.»

بادَرها ليون قائلًا: «السيد لويس ليثرسون.» فأطلقت المرأة زفرةً من المفاجأة.

وأردفت قائلةً: «لا يمكنني أن أخمِّن كيف عرفت، ولكن هذا هو اسمه. وعلى الرغم من أننا لم ننعم بحياةٍ زوجيةٍ سعيدة، فإن موته أصابني بصدمةٍ مُفجِعة. ولم تكن الصدمة من وصيته أقل فَجْعًا؛ فقد أوصى بنصف ثروته للسيد ليثرسون والنصف الآخر لي بعد خمسة أعوام من وفاته؛ بشرط أن أنفِّذ البنود الواردة في الوصية، ومنها ألا أتزوَّج خلال تلك المدة، وأن أعيش في منزل في هارلو، وألَّا أغادر حي هارلو مطلقًا. مُنِح السيد ليثرسون السلطة المُطلَقة للتصرف في نصيبي من التركة بصفته المُنفذ الوحيد للوصية. وعِشت في هارلو حتى هذا الصباح.»

قال ليون وعيناه المُتوهجتان مركِّزتان على السيدة: «السيد ليثرسون متزوجٌ بالطبع، أليس كذلك؟»

«بلى، هل تعرفه؟»

هزَّ ليون رأسه.

«أنا لا أعرف سوى أنه متزوج، وأنه يحب زوجته كثيرًا.»

ذُهلت المرأة لما سمعته.

«لا بد أنك تعرفه. نعم، تزوَّج قبل مَقتل مارك بمدةٍ وجيزة. إنها فتاةٌ مجريةٌ فاتنة الجمال؛ أحد والدَيها مجريٌّ، وأعتقد أنه يعشقها. سمعت أنها مُبذرة؛ فأنا لم أرَها سوى مرةٍ واحدة.»

كان السؤال التالي من نصيب بويكارت المُراقب الصامت: «ماذا حدث في هارلو؟»

رأى شفتَي المرأة ترتجفان.

قالت بصوتٍ مُختنق: «لقد كان كابوسًا. كان المنزل صغيرًا وجميلًا، يبعد عن هارلو بضعة أميال، ويبعد عن الطريق العمومي. عِشت فيه مدة سنتين وكأني سجينة بالمعنى الحرفي للكلمة. كانت خطاباتي تُفتح وأُحبس كل ليلة في غرفتي تحت رقابة واحدة من المرأتين اللتين أرسلهما السيد ليثرسون للاعتناء بي، بالإضافة إلى الرجال الذين يجُوبون الحديقة ليلَ نهار.»

سأل مانفريد: «إذن فدلالة ذلك أنكِ لستِ في حالةٍ عقليةٍ طبيعية، أليس كذلك؟»

بدت مذهولةً من ذلك.

سألته سريعًا: «أنت لا تعتقد ذلك، أليس كذلك؟» ولما هزَّ رأسه نافيًا أضافت قائلةً: «حمدًا للرب على ذلك! نعم، هذه هي الحكاية التي قالوها. ما كان يُفترض أن أقرأ الجرائد على الرغم من توافُر جميع الكتب التي كنت أريدها. وفي يومٍ ما، وجدت قصاصة ورق بها

خبر عن جريمة احتيال في بنكٍ كنتم أنتم من اكتشفتموها، وكانت تضمُّ نبذةً مختصرة عن تاريخكم. لقد احتفظت بها لأن عنوانكم كان مُدرَجًا في تلك الفقرة. بدا الهروب مستحيلًا؛ فلا مال لديَّ وما وجدت منفذًا للهروب من الحديقة، ولكن توجد امرأةٌ من طرفهم كانت تأتي للقيام بالأعمال الشاقَّة مرتين في الأسبوع. أظن أنها من القرية. تمكَّنت من كسب تعاطُفها، وأحضرت لي هذه الملابس بالأمس. غيَّرت ملابسي باكرًا هذا الصباح، وغادرت غرفة نومي من النافذة وتجاوزت الحارس. والآن، سأحكي لكم لُغْزي الحقيقي.»

وضعت يدها في جيب معطفها المبتل وأخرجت رزمةً صغيرة، ثم أفرغتها من لفتها.

«نُقل زوجي إلى المستشفى الريفي بعد الحادث، ثم تُوفي في وقتٍ مبكِّر من صباح اليوم التالي. لا بد أنه استعاد وعيه من دون أن تعرف الممرِّضات؛ لأن الجزء العُلوي من الملاءة كان مغطًّى برسوماتٍ صغيرة. رسم هذه الرسومات بقلم رصاصٍ غير قابل للمحو كان مُرفَقًا مع مخطَّط درجة الحرارة ومعلَّقًا أعلى رأسه؛ لا بد أنه وصل إليه وأخذه من المخطط.»

فرشت قطعة القماش المتَّسِخة المصنوعة من الكتان على الطاولة.

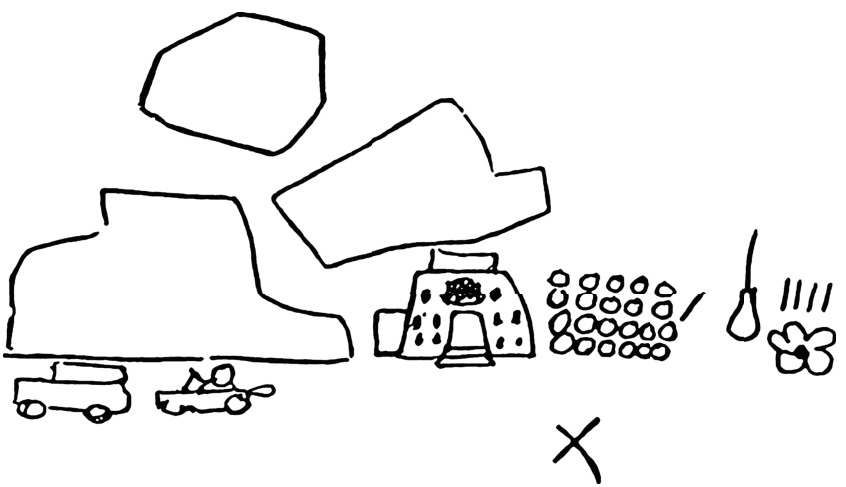

«كان مارك المسكين مُغرَمًا للغاية برسم الأشكال التي يحب أن يرسمها الأطفال والكسالى ممَّن ليس لديهم مهارةٌ حقيقية في الرسم.»

سأل ليون: «كيف وصلت إليك هذه القماشة؟»

«قطعَتْها رئيسة الممرضات لي.»

قطَّب مانفريد وجهه وقال: «هذه أشياء يمكن أن يرسمها أي شخص في حالة هذيان.»

قال ليون بصوتٍ هادئ: «على النقيض من ذلك، إنها واضحة كضوء النهار بالنسبة إليَّ. أين عُقِد زواجكما؟»

«في مكتب تسجيل عقود الزواج بويستمنستر.»

أومأ ليون.

«عُودي بالذاكرة إلى الوراء؛ هل تتذكَّرين أي شيء لافت للنظر فيما يتعلَّق بالزواج؟ هل أجرى زوجك محادثةً شخصية مع أمين السجل؟»

اتَّسعت عيناها الزرقاوان الكبيرتان عند سماعها السؤال.

«نعم، تحاور معه السيد ليثرسون وزوجي في مكتبه الخاص.»

ضحك ليون ضحكةً مكتومة، لكنه سرعان ما استعاد جدِّيته.

«سؤال آخر. من الذي صاغ الوصية؟ هل هو مُحامٍ؟»

هزَّت رأسها.

«زوجي. لقد كتبها بخط يده من بدايتها وحتى نهايتها. كان خطه جميلًا، ويسهل تمييزه عن أي خط آخر.»

«هل فُرضت أي شروط أخرى عليكِ في وصية زوجك؟»

تردَّدت في الإجابة، ورأى الجالسون سحابةً داكنة تُغطي وجهها.

«نعم، كان شرطًا مهينًا لم أذكُره لكم. إنه الشرط الأساسي، وهو أنه لا يجوز لي أن أحاول في أي وقتٍ أن أعلن أنني تزوَّجت من مارك زواجًا قانونيًّا. لم أستطع تفسير هذا الشرط؛ لا يمكن أن أصدِّق أنه قد سبق له الزواج، ولكنه مر بأحداثٍ جِسام في بداية حياته مما يجعلني أتوقَّع أي شيء.»

كان ليون يبتسم مسرورًا؛ ففي مثل هذه اللحظات يصبح كأنه طفلٌ حصل على لعبةٍ جديدة ومسلِّية.

قال: «سأُريح بالك. لم يسبق لزوجكِ الزواج من قبل!» وكان ردُّه مثار اندهاش لها.

كان بويكارت مُنكبًّا على فحص الرسومات.

سألها: «هل يمكنكِ الحصول على مخطَّطات أملاك زوجك؟» وضحك ليون مرةً أخرى.

قال مُتعجبًا: «ذلك الرجل يعرف كل شيء يا جورج! بويكارت، صديقي القديم، أنت لا مثيل لك!» ثم التفت سريعًا إلى السيدة ستامفورد. «سيدتي، أنت بحاجةٍ إلى الراحة وتغيير

ملابسكِ، وإلى الحماية. الشيء الأول والأخير مُتوافران في هذا المنزل، إذا كانت لديكِ الجرأة للمُكوث في ضيافتنا. أما بالنسبة إلى الثاني، فسأُحضره لكِ في غضون ساعةٍ بالإضافة إلى خادمةٍ مؤقَّتة.»

نظرَتْ إليه في شيءٍ من الحيرة والارتباك. وبعد خمس دقائق، كان بويكارت الخَجول يقُودها إلى غرفتها، وكانت مربِّية يعرفها ليون تُسرِع إلى شارع كيرزون ومعها حقيبةٌ مُمتلئة عن آخرها؛ فقد كان ليون ضعيفًا أمام المربِّيات، ويعرف منهن ما لا يقل عن مائة بالاسم.

برغم أن الوقت كان متأخرًا، فقد أجرى عدة مكالمات، كان من بينها مكالمة إلى ستروبيري هيل، حيث يعيش رجل يعمل مساعدًا لأمين سجل لتوثيق عقود الزواج.

كانت الساعة الحادية عشرة في تلك الليلة، عندما دقَّ جرس باب المنزل الأنيق الكائن في شارع أبر بيركلي. كان من أدخله خادمٌ آخر.

«هل أنت السيد جونزاليس؟ السيد ليثرسون لم يعُد بعدُ من المسرح، ولكنه اتَّصل هاتفيًّا وطلب أن تنتظره في المكتبة.»

قال ليون مُمتنًّا: «شكرًا لك!» على الرغم من أنه لم يكن هناك داعٍ للشكر؛ لأنه هو من أجرى هذا الاتصال الهاتفي.

أُدخلَ إلى هذا الحرم المزخرَف وتُرِك وحده.

وما كاد الخادم يُغادر الغرفة حتى دخل ليون إلى هذا المكتب الإمبراطوري وأخذ يقلِّب في الأوراق بسرعة. وفي النهاية وصل إلى الورقة التي كان يبحث عنها على النشاف، ووجدها مقلوبة على وجهها.

خطابٌ موجَّه إلى شركة لتجارة النبيذ يتضمَّن شكوى من وجود عيب في شحنة شمبانيا. مرَّر عينه على الخطاب سريعًا — إذ لم يُكتب سوى نصفه — وطوى الورقة ووضعها في جيبه.

فتَّش في أدراج المكتب بعناية وبسرعة، فوجد اثنين مغلقين بقُفل، ولكن الدرج الأوسط لم يكن مُحكَم القفل. أثار اهتمامَه ما عثر عليه، وشغل تفكيره بعض الشيء. وما كاد ينتهي حتى سمع سيارةً تتوقَّف أمام المنزل، ولما نظر من خلف الستائر رأى رجلًا وامرأةً يترجَّلان منها.

كان الظلام يعمُّ المكان، ولكنه تعرَّف على مُضيفه الذي لا يعلم بوجوده، وكان يجلس في وقار ورزانة على حافَّة أحد الكراسي عندما دخل ليثرسون إلى الغرفة، وقد هرب الدم من وجهه من الغضب.

أغلق الباب بعنفٍ من خلفه، ثم تساءل: «ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟ والله لأطلبنَّ الشرطة لتعتقلك بتهمة انتحال شخصيتي.»

ابتسم ليون جونزاليس: «خمَّنت أنني اتصلت هاتفيًّا؛ يُعجبني ذكاؤك.»

ابتلع الرجل ريقه.

«ما سبب مجيئك إلى هنا؟ أظن أن الأمر يتعلَّق بالمرأة البائسة التي هربت من مستشفًى للأمراض العقلية اليوم، لقد سمعت الخبر قبل أن أخرج مباشرةً.»

ليون: «هكذا استنتجنا من حقيقة أن مُراقبيك كانوا يعملون على مراقبتنا مرةً أخرى الليلة، ولكنهم تأخَّروا قليلًا.»

ازداد وجه الرجل شُحوبًا.

سأل وهو يرتعش: «هل رأيتها؟ وأظن أنها قصَّت عليك حكايةً لا أصل لها عني، أليس كذلك؟»

أخرج ليون من جيبه قطعة قماش باهتة من الكتان وفردها.

سأل: «ألم ترَ هذه؟ عندما مات مارك ستامفورد وُجدت هذه الرسومات على ملاءته. تمكَّن من رسم هذه الأشياء الصغيرة الغريبة، أمَا علِمت ذلك؟»

لم يُجب لويس ليثرسون.

«هلَّا أخبرتك ما هذا؛ إنها وصيته الأخيرة!»

تذمَّر الآخر: «هذا كذب!»

أومأ ليون في صرامة: «إنها الوصية الأخيرة. هذه المعينات الغريبة الثلاثة هي مخططاتٌ تقريبية لتركته التي تنقسم إلى ثلاثة أشياء. ذلك المنزل عبارة عن صورةٍ واضحة للمنشآت على الضفة الجنوبية والدوائر الصغيرة هي الأموال.»

لم ينفكَّ ليثرسون عن التحديق في الرسومات.

وحين تمكَّن من الحديث قال: «لن تأخذ أي محكمة بهذا الهراء.»

ضحك ليون ضحكةً كئيبة أظهرت نواجذه.

سأله: «وهل ستأخذ المحكمة بكلمة «الفل» التي يُقصد بها «الكل»، أم بالخطوط الأربعة التي يُقصد بها «من أجل»، أم باسم «مارجريت»، أم باسم «مارك»؟»

استعاد ليثرسون رباطة جأشه بصعوبة وقال: «عزيزي، الفكرة عبقرية، ولكنه كتب وصية بخط يده.»

وقف ليون ورأسه مُشرئبٌّ إلى الأمام؛ ومن ثَم فهم ليثرسون في ذلك الوقت.

اصفرَّ لون ليثرسون حينما قال ليون بصوتٍ هادئ:

«لم يكن يستطيع الكتابة! لقد استطاع رسم هذه الصور، ولكنه لم يكن يستطيع كتابة اسمه. لو اطَّلعت زوجة السيد ستامفورد على الوثيقة التي أصدرها أمين السجل، لرأت أن التوقيع كان عبارة عن صليب؛ وهذا هو السبب في وضعك العقبة الخاصة بعدم محاولة إثبات زواجها وإبقائها سجينةً في منزل هارلو تحسُّبًا لأن تسعى لإجراء تحقيقات مُستقلة.»

اندفع ليثرسون فجأةً إلى مكتبه وفتح أحد الأدراج مُرتعشًا. وفي ثانيةٍ ظهر سلاح أوتوماتيكي في يده. وعاد مُسرعًا إلى الباب وفتحه بركلةٍ من قدمه.

صرخ: «النجدة! قاتل!»

دارَ حول جونزاليس الذي وقف ساكنًا، وأشهَر سلاحه نحوه وضغط على الزناد. لم يُصدِر سوى صوت تكتكة ولا شيء آخر.

قال ليون بصوتٍ هادئ: «لقد أفرغت الخزانة؛ ومن ثَم أصبحت المأساةُ التي رتَّبت لها بعنايةٍ مسرحيةً هزلية. هل أتصل بالشرطة أم تتصل أنت؟»

ألقى رجال سكوتلاند يارد القبض على لويس ليثرسون وهو يقفز على القارب في مدينة دوفر.

قال مانفريد وهو يقرأ الخبر في الجرائد المسائية: «قد يكون ثَمة صعوبة في إثبات الوصية، ولكن هيئة المحلِّفين لن تستغرق وقتًا طويلًا كي تضع الصديق لويس في المكان الذي يستحقُّه.»

عندما استجوبوا ليون لاحقًا — إذ كان بويكارت يكرِّس نفسه لتدوين سِماته النفسية — اضطرَّ للتنازل وتوضيح الأمر.

«لقد أخبرتني الرسالة السرية بما لم يستطع كتابته، كما كشفت لي حقيقة أن الوصية لم تشترط على زوجة السيد ستامفورد أن تتزوج من لويس، إنه مُتزوج وإنه يحب زوجته. والباقي كان غايةً في السهولة.»

الفصل الثاني

# المسافرون السعداء

لا يوجد سجل بسابق نشرها تحت هذا العنوان أعيدت الطباعة في مجلة «ذا سانت»، طبعة المملكة المتحدة، أبريل ١٩٥٩.

* * *

من بين الرجال الثلاثة الذين اتخذوا من شارع كيرزون مقرًّا لهم، كان جورج مانفريد هو الأوسم على الإطلاق. كانت ملامحه واتِّزانه يجعلانه يبدو أرستقراطيًّا. كان يبرز وسط أي حشد، ليس بسبب طول قامته فحسب، ولكن بسبب الشيء المجهول الذي يميِّز أصل الإنسان ونسبه.

قال ليون جونزاليس في إحدى المناسبات: «يبدو جورج كأنه حِصان سباق وسط قطيع من مُهور شيتلاند!» وهو ما كان يُقارب الصواب إلى حدٍّ كبير.

ولكن ليون كان قادرًا على جَذْب المرأة المتوسِّطة الجمال، وحتى النساء ذوات الجمال فوق المتوسط. كان خطأً قاتلًا أن يُرسَل لحلِّ قضيةٍ أحد أطرافها امرأة؛ ليس لأنه نفسه كان مُعتادًا على المغازلة، ولكن لأنه كان من المؤكَّد أنه سيعود مخلفًا وراءه عذراء واحدة على الأقل تتنهَّد وتُرسل له عشرات الخطابات المطوَّلة.

وهذا الأمر جعله تعيسًا نوعًا ما.

اشتكى ذات مرة قائلًا: «أنا عجوز بما يكفي لأكون في مقام الأب لهن، وطوال حياتي لم أقُل لأيٍّ منهن أكثر من «صباح الخير». ولو أمسكت يدها أو تغنَّيت ببعض الكلمات في أذنها الجميلة، لَما كنتُ لأعفي نفسي من الذنب، ولكني أحلف لك يا جورج ...»

ولكن لم يستطع جورج أن يكتم ضحكته.

ومع ذلك كان ليون يستطيع أن يلعب دور العاشق المثالي. كان في قرطبة ذات مرة وعمد إلى مغازلة امرأة بعينها، وتشهد ثلاث ندبات بالسكين في صدره جهةَ اليمين على نجاح مغازلته. أما الرجلان اللذان هاجماه، فهما ميتان الآن؛ لأنه بمغازلته لهذه المرأة استدرج الرجل الذي كانت تبحث عنه الشرطة في إسبانيا وفرنسا.

وفي صباح يوم من أيام فصل الربيع، تدفَّقت مشاعره بقوةٍ تجاه سيدة رشيقة وجميلة ذات عينين سوداوين قابلها في هايد بارك. انتفض واقفًا عندما رآها تسير على مهلٍ مارَّةً به بمفردها دون رفيق. كانت امرأةً ذات قوام ممشوق، وفي عقدها الرابع، وذات بشرة صافية وعينين رماديتين مائلتين إلى السواد.

لم يكن لقاؤهما من قبيل الصدفة؛ إذ كان ليون يتعقَّب حركاتها لأسابيع.

قال: «لقد استجيبت دعواتي أيتها الجميلة.» وكانت مجاملته المُغالى فيها فصيحةً وعفوية؛ إذ كان يتحدث الإيطالية.

ضحكت ضحكةً خفيفة ورمقته بنظرةٍ سريعة وفضولية من تحت أهدابها الطويلة، وأشارت إليه بأن يرتدي القبعة التي كانت في يده وقتئذٍ.

ابتسمت وسلَّمت عليه بيدها الصغيرة ذات القفاز: «صباح الخير يا سيد كاريلي.» كانت ترتدي ملابس بسيطة، ولكنها باهظة الثمن. وما كانت ترتدي من المجوهرات سوى سلسلة من الأحجار الكريمة حول عنقها الأبيض.

قالت: «أراك في كل مكان. رأيتك تتناول العشاء في كارلتون ليلة الإثنين، وقبلها كنت رأيتك في مقصورة بأحد المسارح، وقابلتك بالأمس بعد الظهيرة!»

ضحك ليون ملءَ فيه ضحكةً مُبهجة أظهرت أسنانه البيضاء.

قال: «هذا صحيح أيتها السيدة الفاتنة، ولكنكِ لم تُشيري إلى بحثي في لندن عن شخصٍ يقدمني لك، ولم تُشفقي على يأسي وأنا أتبعكِ لأمتع عيني بجمالك، ولا على الليالي التي جفاني النوم فيها.»

كان كل ما قاله يفيض بمشاعر مُتأججة لشابٍّ ولْهان، وكانت تستمع من دون أن تبدر منها إشارةٌ تدل على النفور.

قالت بنبرة ملكةٍ تمنح امتيازًا كبيرًا: «ستمشي معي.»

ابتعدا عن الزحام واتَّجها إلى المساحات المفتوحة في المتنزَّه، وتحدَّثا عن روما وموسم الصيد، وعن الجولات في كامباجنا، وعن حفلات الأميرة ليبنيتز سافالو؛ فقد قرأ ليون أعمدة المجتمع في الصحافة الإيطالية باهتمامٍ كبير، وكان يتذكر كل ما قرأه.

في النهاية وصلا إلى مكانٍ تملؤه الأشجار وكراسي حديقة مُريحة. دفع ليون للحارس اليقظ فتركهما وانصرف بعيدًا.

بدأ حديثه مُبتهجًا: «ما أجمل أن يجلس المرء وحده مع كل هذا الجمال الربَّاني! أنا أقصدكِ أنت بهذا الحديث يا سيدتي.»

تحدَّثت السيدة هذه المرة باللغة الإنجليزية بصوتٍ جمع ما بين البرود والقوة، وقالت: «أخبِرني شيئًا آخر يا سيد ليون جونزاليس. لماذا تتبعني مثل ظلي هكذا؟»

إذا كانت قد توقَّعت أنها بذلك ستُربكه؛ فذلك لأنها لم تكن تعرف ليون.

قال بهدوء: «لأنك امرأةٌ شديدة الخطورة يا مدام كوسكينا، والأخطر أن الرب قد وهبكِ شفتين تُغْريان أي شخص لتقبيلهما إلى جانب قوامٍ ممشوق. ما أكثر الشباب المُرهَفين من ملحقي السفارات الذين اكتشفوا فيكِ كل هذه المفاتن!»

ضحكَتْ لما سمعت وبدَتْ سعيدةً للغاية به.

قالت: «لقد كنت عاكفًا على القراءة جيدًا. لا يا سيد جونزاليس، أنا بعيدةٌ كل البعد عن السياسة؛ فهي تُزعجني. إن إيفان المسكين في روسيا يُعاني في عمل اللجنة الاقتصادية، ويعيش في رعبٍ بسبب آرائه الليبرالية المعروفة، وأنا في لندن، وهي مدينةٌ رأسمالية مُبهجة ومُريحة! صدِّقني، لينينجراد ليست بالمكان الذي يستهوي النساء!»

كانت إيزولا كوسكينا اسمها إيزولا كابريفيتي قبل أن تتزوج من ملحقٍ دبلوماسي روسي شاب. كانت ثوريةً منذ ولادتها، وصارت لديها الآن حماسةٌ متَّقِدة للثورة وصلت إلى حد التعصُّب.

ابتسم ليون.

«توجد أماكن أسوأ من لينينجراد للنساء. يؤسفني حقًّا يا عزيزتي إيزولا أن أراكِ تحيكين قمصانًا خشنةً في سجن أيلسبيري.»

نظرت إليه نظرةَ تكبُّر دون أن ترفع عينها عنه.

«هذا تهديد، والتهديدات تُضجرني. في إيطاليا تعرَّضت للتهديد بجميع أنواع الأشياء المروِّعة عندما كنت أظهر في الجانب الخطأ في ممرِّ سيمبلون. وأنا حقًّا أكثر شخص مُسالم في العالم يا سيد جونزاليس. بالطبع أنت تعمل لدى الحكومة، كم يظهر عليك الاحترام! أي حكومة تعمل لديها؟»

ابتسم ليون ولكنه استعاد جديته في ثانية.

قال: «أُغلقت الحدود الإيطالية عمليًّا منذ المحاولة الأخيرة؛ فأنت وأصدقاؤك تتسبَّبون في الكثير من المشاكل للجميع. ومن الطبيعي أن تهتمَّ الحكومة؛ فهي لا ترغب في أن يأتي يوم وتجد نفسها متورِّطة، وأن قاتلًا نجح في الفرار من ... إنجلترا، أليس هذا صحيحًا؟»

هزَّت السيدة كتفيها الجميلتين مستهجنةً وقالت: «يا لها من دراما! ولذلك لا بد لإيزولا كوسكينا المسكينة أن يُراقبها محقِّقون وقتَلة تائبون، أظن أنك ورفاقك الكرام قد استقمتم!»

اتَّسعت الابتسامة المُرتسمة على وجه ليون جونزاليس النحيل: «لو لم نكن استقمنا يا سيدتي الجميلة، فما الذي كان سيحدث؟ هل ينبغي أن أجلس هنا وأتبادل معكِ حديثًا متكلَّفًا؟ ألن تُنتشل جثتكِ من نهر التايمز في لايمهاوس والبرد والرطوبة ينخران في عظامكِ في صباح يومٍ ما، وترتمي على طاولة المشرحة حتى تُصدِر هيئة محلِّفي محقِّق الوفَيات حكمًا مفاده «تم العثور عليها غريقة»؟»

رأى الدم يهرب من وجهها ولاح الخوف في عينيها، ثم قالت: «من الأفضل أن تهدِّد إيفان.»

«سأرسل إليه؛ إنه ليس في لينينجراد، ولكنه يعيش في برلين باسم بيترسون؛ مارتن لوثرستراسي ٩٠٤. ما أسهل الأمر لو أننا لم نستقم! رجلٌ ميت في بالوعة، وشُرطي يفتِّش جيوبه بحثًا عن بطاقة هُوية.»

نهضت على عجل، وشحب لون شفتيها.

قالت: «أنت لا تروق لي.» وأشاحت بوجهها عنه وانصرفت سريعًا.

لم يُحاول ليون تتبُّعها؛ فقد وصله الخطاب المنتظَر بعد يومين من هذه المقابلة. كان العديد من الناس قد أرسلوا إلى منظمة رجال العدالة الأربعة، وكانت بعض الخطابات تتضمَّن إساءات، والكثير منها يحوي حماقات، لكن بين الحين والآخر كان من الممكن استنتاج وجود مشكلة صغيرة جدًّا من المراسلات الصباحية. وكان الخطاب المتَّسِخ بآثار الأصابع والطيات يستحقُّ المبلغ الذي تقاضاه ساعي البريد؛ لأنه أتى من دون طابع بريد. كان العنوان المكتوب عليه هو:

رجال العدالة الأربعة، شارع كيرزون، ماي فير، ويست إند، لندن.

كان واضحًا من الخط أن صاحبه أُمِّيٌّ، وكان كالآتي:

**سيدي العزيز**

من المفترض أنكم تهتمون بحل الألغاز، حسنًا، إليكم هذا اللغز. لقد كنت اعمل في صناعة الغلايات في هولينجز، لكنني الآن عاطل عن العمل، وفي أحد أيام الأحد، سيدة أجنبية التقطت لي صورة جاءت أمامي معها كاميرا والتقطت الصورة. كانت الحديقة مليئة بالشباب ولكنها لم تلتقط صورًا إلا لي. ثم سألتنى عن اسمى وعنوانى وسالت ان كنت أعرف رجل دين معين. وعندما قلت نعم، كتبت اسم القس جيه كرو، ثم قالت انها سترسل لي صورة يا سيدي ولكنها لم ترسل أي صوره الا انها طلبت ان انضم إلى «المسافرين السعداء» للذهاب الى سويسرا وروما وغيرهما ولن ادفع شيء لان جميع المصروفات مدفوعة (عشره جنيه) واشترت لي أطقم ملابس على أحدث موضة. استعديت يا سيدي، وقامت هي بكل الترتيبات بما يقارب العشرة جنيه واحضرت التذاكر... الخ. ولكن السيدة الآن تقول أن أذهب إلى ديفونشير وانا لا امانع. وأصبح هذا لغز يا سيدي لأنني قابلت لتوي سيد نبيل من ليدز التُقِطت له صورة وانضم الى المسافرين السعداء وسيذهب الى كورنوول، وسالته السيدة التي التقطت له الصورة عن رجل دين وكتبت اسمه. والان، ما السر في ذلك، وهل للأمر صلة بالدين؟

مع خالص التحية

تي بارجر

قرأ جورج مانفريد هذا الخطاب المكتوب على عجل والمليء بالأخطاء الإملائية، وألقى بالخطاب عبر مائدة الإفطار إلى ليون جونزاليس.

قال: «اقرأ لي هذه الأحجية يا ليون.»

قرأ ليون الخطاب وقطَّب جبينه.

«المسافرون السعداء، ما هذا؟ شيءٌ غريب.»

انتقل الخطاب إلى رايموند الذي قرأه بإمعان من دون أن تظهر أي تعبيرات على وجهه.

سأل ليون وهو ينظر إليه: «هل فهمت شيئًا يا رايموند؟»

قال رايموند وهو يُومئ ببطء: «أعتقد ذلك.»

سأل مانفريد: «هل لي أن أعرف هذا «اللغز»؟»

ضحك ليون ضحكةً خافتة.

«لا يوجد لغز على الإطلاق يا عزيزي جورج. سأرى تي بارجر هذا، وأنا متأكدٌ أن اسمه «توماس»، وسأعرف منه تفاصيل محدَّدة؛ مثل لون عينيه، والتصريح الذي تلقَّاه من وزير الخارجية.»

غمغم جورج مانفريد وهو يرتشف قهوته: «لغز فوق لغز.» على الرغم من أن المسألة لم تعُد لغزًا بالنسبة إليه في الواقع؛ فقد كان في الإشارة إلى وزير الخارجية توضيحٌ كبير للمسألة.

قال ليون: «بالنسبة إلى السيدة ...» ثم هزَّ رأسه.

أحدثت سيارته البنتلي الكبيرة ضجةً خفيفة في الشارع الذي يعيش فيه تي بارجر. كان الشارع يقع بالقرب من مرفأ إيست إنديا، وتبيَّن أن تي بارجر — وكان اسمه الأول تيوفيلوس — رجلٌ طويلٌ داكن البشرة في عقده الرابع، له شاربٌ أسود صغير، وحاجبان أسودان كثيفان نوعًا ما. من الواضح أنه كان يرتدي «أطقمه» الجديدة، وأنفق على الأقل جزءًا من «الجنيهات العشرة» على المشروبات الكحولية؛ لأنه كان في مزاجٍ من الصخب والثقة.

قال بصوتٍ غليظ: «سأغادر غدًا إلى توركواي؛ كل شيء مدفوع. مُسافر وكأنني من علية القوم، في الدرجة الأولى. أنت واحد من رجال العدالة الأربعة!»

أقنعه ليون بالدخول إلى المنزل.

قال السيد بارجر: «لا أفهم لماذا فعلت ذلك. مسافرٌ سعيد — هذا ما أنا عليه. لربما كانت أخذتني إلى الخارج — كنت أودُّ أن أرى الجبال، ولكنها أخبرتني أنني لو لم أكن أتحدَّث اللغة السويسرية فسأُستبعد. على أي حال، ما الخَطب بتوركواي؟»

«هل سيذهب الرجل الآخر إلى كورنوول؟»

أومأ السيد بارجر بجدية. «ورفيقه ذاهب إلى سومرست — كم كان غريبًا أن ألتقيه ...» وشرح المصادفة التي تتعلق بحانةٍ عامة دُعي فيها السيد بارجر لتناوُل شراب.

«ماذا كان اسمه؟»

«ريجسون، هاري ريجسون. أخبرته باسمي، وأخبرني باسمه. هل تقصد الرجل الآخر؟ صديق هاري؟ أدعوه هاري — نحن صديقان — والآن دعني أفكِّر يا سيدي.»

تركه ليون يفكِّر.

«إن له اسمًا غريبًا، كوك. لا، سوك، لوكلي! هذا هو اسمه؛ جو لوكلي.»

طرح ليون بضعة أسئلة أخرى بدت في ظاهرها بعيدةً عن الموضوع، ولكنها لم تكن كذلك.

قال تيوفيلوس الذي كان صريحًا ولم يُبدِ أي تحفُّظ في حديثه: «بالطبع كان على اللجنة أن تقبلني. فبحسب كلام هاري، لقد صوَّرت هذه السيدة أحد أصدقائه، ولكنه لم يجتز اللجنة.»

ليون: «أفهم ذلك. متى تنطلق إلى ديفونشير؟»

«في صباح الغد، الساعة السابعة. وقتٌ مُبكر قليلًا، أليس كذلك؟ ولكن هذه السيدة تقول إن المسافرين السعداء يجب أن يستيقظوا من النوم مُبكرًا. سيذهب هاري على متن القطار ذاته، ولكن في عربةٍ مختلفة.»

عاد ليون إلى شارع كيرزون وهو راضٍ تمام الرضا. كان السؤال الذي عليه حسمه هو: هل إيزولا تستيقظ مبكرًا هي الأخرى؟

قال رايموند بويكارت: «لا أظن ذلك. لم تكن لتجازف؛ خاصةً إذا كانت تعرف أنها تحت المراقبة.»

في تلك الليلة كانت شرطة سكوتلاند يارد تعمل بلا كلل أو ملل، ولم يغمض لليون جونزاليس جفن. من حسن الحظ أن إيزولا كانت تحت مراقبة الشرطة، وكانت شرطة سكوتلاند يارد تعرف كل حي زارته إيزولا في إنجلترا الشهر الماضي. بحلول منتصف الليل، أيقظت الشرطة المحلية ألفَي رجل دين من نومهم مُطالبين إياهم بالإدلاء بتفاصيل ومعلومات معيَّنة.

ذهبت إيزولا لتناول العشاء والرقص في تلك الليلة، وكان رفيقها شابًّا لطيفًا للغاية، طويل القامة وذا وجه داكن البشرة. اختارت مَلهى لورينت، وهو أرقى الملاهي الليلية وأكثرها خصوصيةً، لا يرتاده سوى علية القوم. انشغل الرجال والنساء بالإعجاب بجمالها أو بانتقاده عند دخولها؛ إذ وجدوا أمامهم امرأةً مُتألقة ترتدي فستانًا قرمزيًّا وشالًا ذهبيًّا غير لامع. زادت الألوان من بهاء وجهها الجميل، وكان في كل حركة من حركاتها التواءاتٌ وانحناءاتٌ رشيقة كجسد أفعى.

كانا قد وصلا إلى ركن الحلوى عندما وضعت إصبعين فجأةً على مفرش الطاولة.

سأل رفيقها دون اكتراث لما رأى إشارة الخطر: «من هذا؟»

«الرجل الذي أخبرتك عنه؛ إنه يجلس على الطاولة المقابلة لنا مباشرةً.»

نظر الرجل ذو البشرة الداكنة في الحال.

«إذن هذا هو جونزاليس المشهور! رجلٌ تافه يمكنني أن أحطِّمه.»

قاطعته قائلةً: «إنه رجلٌ تافهٌ استطاع أن يحطِّم جبابرة يا إيميلو. هل سمعت عن ساكوريفا؟ أما كان جبَّارًا؟ هذا الرجل قتله؛ أطلق عليه الرصاص في مقره على الرغم من وجود حراسة من الإخوة الثوريين متأهِّبين فور النداء ثم هرب!»

تعجَّب إيميلو: «أهو ضد الثوريين؟»

هزَّت رأسها: «كان الرفيق ساكوريفا شديد الحماقة مع النساء. لقد أنهى علاقته بفتاة صاحبها ثم تركها. إنه ينظر إلينا؛ سأدعوه للجلوس معنا.»

نهض ليون مُتكاسلًا بعد أن رأى إشارة الدعوة، وجاء عبر حلبة الرقص المكتظَّة.

قال بنبرة يأس: «سيدتي، أظنكِ لن تُسامحيني أبدًا! ها أنا أُراقبكِ مرةً أخرى! ولكن لم آتِ إلى هنا إلا لشعوري بالضجر.»

قالت بابتسامتها الشديدة العذوبة: «وتضجرني أنا أيضًا.» ثم تذكَّرت رفيقها وقالت: «السيد هالز، من ليبزيج.»

التمعت عينا ليون.

ثم قال: «إن أصدقاءك يغيِّرون جنسياتهم بعدد المرات التي يغيِّرون فيها أسماءهم. أنا أتذكَّر السيد هالز من ليبزيج عندما كان اسمه إيميلو كازيني من تورينو!»

بدا عدم الارتياح على إيميلو، ولكن بدت إيزولا مُستمتعةً.

«هذا الرجل لا يخفى عليه شيء! هلَّا رقصت معي يا سيد جونزاليس، وعِدْني بأنك لن تقتلني!»

أخذا يتراقصان معًا عبر حلبة الرقص قبل أن يتحدث ليون. قال: «لو كان لي وجهك الجميل وقوامك وشبابك، لقضيت وقتًا مُمتعًا، وما شغلت نفسي بالسياسة.»

ردَّت بصوتٍ مُرتعش: «ولو كانت لي حكمتك ودهاؤك، لأزحت الطغاة من مناصبهم العالية.»

كان هذا كل ما قيل. عند الخروج إلى الردهة اكتشف ليون أن الفتاة ورفيقها مُنتظران. كان المطر يهطل بغزارة، ولم تجد إيزولا سيارتها.

ابتسم ليون ابتسامةً جذَّابة وقال: «هلَّا أوصلتكما يا سيدتي الجميلة؟ سيارتي لا تليق بمقامك، ولكنها تحت تصرُّفك.»

تردَّدت إيزولا.

قالت: «شكرًا لك!»

أصرَّ ليون الذي يتمثَّل الأدب في شخصيته على أن يأخذ أحد المقاعد التي تجعل ظهره متَّجهًا نحو السائق. لم تكن سيارته الخاصة. كان عادةً ما يتوتَّر من وجود سائقين آخرين، ولكنه لم يُبالِ الليلة.

عبروا ميدان ترافالجار.

قالت إيزولا بحدةٍ سريعة: «السائق يتخذ مُنعطفًا خاطئًا.»

ليون: «هذا هو الطريق الصحيح إلى سكوتلاند يارد. نحن نُطلِق على هذا الطريق اسم «طريق المسافرين السعداء»؛ أبعِدْ يدك عن جيبك يا إيميلو. لقد قتلت رجالًا على استفزازاتٍ أقل، وأنا لم أغفل عنك منذ أن خرجنا من الملهى!»

في الساعات الأولى من الصباح الباكر، أُرسلت برقيات إلى أقسام الشرطة في فولكستون ودوفر:

«هذه إشارة بإلقاء القبض على تيوفيلوس بارجر وجوزيف لوكلي وهاري ريجسون.» وتبع هذه الأسماءَ خمسةُ أسماء أخرى «المسافرون إلى أوروبا بالقارب إما اليوم أو غدًا.»

لم تكن هناك حاجة لإعطاء تعليمات بشأن إيزولا؛ فلم يكن سلوكها كامرأةٍ مثاليةٍ رائعةٍ مسوَّغًا.

قال ليون أسفًا: «لقد أضرَّت بسمعتها. لم أرَ في حياتي واحدًا من أفراد المسافرين السعداء مغمومًا كما رأيتها عندما أوصلناها إلى شرطة سكوتلاند يارد.»

عند مناقشة المسألة في المؤتمر الصباحي الذي كان جزءًا من الروتين اليومي في شارع كيرزون، مال مانفريد إلى اعتبار المكيدة ساذجةً تفتقر إلى أي حبكة معقَّدة.

ليون: «إذا تحدَّثت باستخفاف عن عبقريتي وقدرتي على الاستنتاج، فسأنفجر في البكاء. يعتقد رايموند بأنني كنت ذكيًّا؛ ولن أسمح بالطعن في ذلك الحكم. إنك تتقدم في العمر يا جورج وتتذمر من أتفه الأشياء.»

سارَع مانفريد إلى استرضاء صديقه المُبتسم: «كانت طريقة اكتشاف المكيدة ذكيةً.»

قال ليون في إصرار: «وكانت الخطة ذكيةً، بل بالغة الذكاء مثل إيزولا. في يوم من الأيام ستفعل شيئًا مُبتكرًا للغاية، وستقتل رميًا بالرصاص. من الواضح أن ما خطَّطت له هو جمع سبعة رجال يحملون قدرًا من التشابه مع أفراد عصابتها للاغتيالات. وعندما وجدتْهُم استصدرت لهم جوازات سفر. وهذا بالطبع سبب سؤالها عما إذا كانوا يعرفون رجل دين أم لا؛ لأن توقيع قسٍّ على الصورة ونموذج التقديم له قوة توقيع المُحامي. سبعة رجال أبرياء فقراء يحملون جوازات سفر سلَّمتها لأصدقائها بينما يُرسَل المسافرون

السعداء إلى أماكن بعيدة؛ فقد كانت توجِّه العصابة إلى إيطاليا؛ إذ حصلت جميع جوازات السفر على تأشيرات لذلك البلد.»

مانفريد: «أخبِرني، هل ألقَوا القبض على تي بارجر المزيف في دوفر؟»

هزَّ ليون رأسه.

«الرجل الذي كان من المفترض أن يسافر بجواز سفر تي بارجر يُدعى إيميلو كازبيني؛ رصدت التشابه على الفور. كانت إيزولا في غاية البذاءة، ولكني أخمدت حدَّتها عندما ألمحت لها بأن زوجها ربما يرغب في معرفة صداقتها مع إيميلو. لقد كنت أراقب إيزولا منذ وقت طويل، ورأيت أشياء كثيرة.»

الفصل الثالث

# الخاطف

لا يوجد سجل بسابق نشرها تحت هذا العنوان.

* * *

مرَّ عام منذ أن استجدى لورد جيدرو مساعدة رجال العدالة الأربعة الذين كانوا يعيشون في مقرهم الذي يحمل شعار المثلث في شارع كيرزون. كان رجلًا ضيِّق الأفق؛ ففي أول مقابلة لهم معه كان رأي بويكارت فيه أنه بخيل بطبيعته. في المرة الأخيرة التي التقَوا فيها لم يعُد الأمر مجرد رأي، بل أصبح معلومة لا يمكن إنكارها؛ إذ تنصَّل فخامة اللورد بكل جرأة من فاتورة النفقات التي قدَّمها له بويكارت، على الرغم من أن مانفريد وجونزاليس خاطَرا بحياتهما من أجل استعادة ألماسته المفقودة.

لم يعمد ثلاثتهم إلى مقاضاته؛ فلم يكن أيٌّ منهم بحاجة إلى المال. أبدى مانفريد رضاه عن التجربة، وشعر بويكارت بنشوةٍ جمَّة؛ لأن نظريةً من نظرياته ثبتت صحتها، بينما وجد جونزاليس عزاءه في شكل رأس العميل.

قال مُتحمسًا: «ما رأيت انحسارًا للعظم الجداري وتشوُّهًا في القفا مُثيرًا للاهتمام مثل ما رأيته في هذا الرجل.»

كان رجال العدالة الأربعة يتقاسمون هِبةً غير عادية، تمثَّلت في ذاكرةٍ ضخمة للوجوه وبراعةٍ استثنائية في ربط تلك الوجوه بأسماءٍ سيئة السمعة. ومع ذلك لم يكن ثَمة فخر في تذكُّر رأس فخامته.

في إحدى ليالي الربيع، جلس مانفريد في غرفته الصغيرة المُطلة على شارع كيرزون، وكان في أشد حالات الاستغراق في التفكير عندما دخل بويكارت — الذي لم ينفكَّ عن تولِّي وظيفة كبير الخدم — يعرج كي يُعلن عن وصول اللورد جيدرو.

كان مانفريد تهكميًّا إلى حدٍّ كبير؛ إذ قال: «أليس هذا جيدرو من جالات تاورز؟ هل أتى كي يدفع الفاتورة؟»

ردَّ بويكارت في ورع: «الله أعلم. هل يدفع نبلاء المملكة فواتيرهم؟ لست مُهتمًّا الآن بشأن النبلاء بقدر ما أهتم بكاحلي؛ إن ليون بائسٌ مستهتر حقًّا. اضطررت أن أستقلَّ سيارة أجرة ...»

ضحك مانفريد ضحكةً مكتومة، ثم قال: «سيندم وسيكون الاستماع إلى حديثه مُثيرًا؛ أعني فخامته، فلتُدخله.»

دخل اللورد جيدرو وهو مُتوتر قليلًا، وأخذ يرمش من الضوء الساطع المتَّقِد على طاولة مانفريد. من الواضح أنه كان مُضطربًا على نحوٍ غير عادي. كان فمه الواهن يرتعش، ولم يكن الضوء الساطع هو المسئول كليًّا عن السرعة التي كان يفتح بها عينيه ويُغلقهما. كان وجهه الطويل المليء بالتجاعيد يختلج ويتشنج، ومن حين لآخر كان يمرِّر أصابعه بين خصلات شعره الخفيفة ذات اللون الرمادي المائل إلى الحُمرة.

«أرجو يا سيد مانفريد ألَّا يكون لديك ... اممم ...»

أدخل يده في جيبه وأخرج قصاصة ورق مستطيلة ودفعها عبر المكتب. نظر مانفريد وتعجَّب. أما بويكارت، فراح يُراقب المشهد في اهتمام ما جعله ينسى دوره ككبير خدم. بالإضافة إلى ذلك، لم تكن هناك حاجة إلى التظاهر بشخصيةٍ خلاف ما كان عليها.

أخذت عينا اللورد جيدرو تتنقَّلان من واحد إلى الآخر.

«كنت أرجو من صديقك ... اممم ...»

قال مانفريد مُتسائلًا في نفسه عما هو قادم: «السيد جونزاليس بالخارج وسيعود في وقتٍ لاحق في المساء.»

خرَّ فخامة اللورد مُنهارًا على الكرسي وهو يئن، وترك رأسه يسقط على ذراعيه المُمتدتين على المكتب.

اشتكى قائلًا: «يا ربي! هذا أفظع شيء مررت به. لا أحتمل التفكير في الأمر.»

انتظر مانفريد في صبر. وبعد قليل رفع الرجل المُسن رأسه.

قال: «لا بد أن أخبركم بالقصة من البداية يا سيد مانفريد. ابنتي أنجيلا، أظن أنك قابلتها؟»

هزَّ مانفريد رأسه نافيًا.

«لقد تزوَّجت هذا الصباح. تزوَّجت من السيد جانثايمر؛ مصرفي أسترالي فاحش الثراء، كما أنه شخصٌ لطيف للغاية.» ثم هزَّ رأسه ومسح دموع عينيه بمنديل.

بدأت الأمور تتكشَّف لمانفريد.

تابع فخامته قائلًا: «جانثايمر يكبر ابنتي بكثير، ولن أُخفي عليك حقيقة أن أنجيلا لديها اعتراضات بشأن التوافق بينهما. في الحقيقة، لقد وصلَت بحمقٍ شديد إلى نوعٍ من التوافق والتفاهُم مع شابٍّ يُدعى سايدوورث، وهو من أسرةٍ طيبةٍ وبه كل الصفات الحسنة، ولكنه لا يملك أي شيء. كان تصرُّفها هذا ضربًا من الجنون.»

باتت المسألة واضحةً لمانفريد تمامًا.

«اضطررنا للتعجيل بالزواج؛ لأن جانثايمر سيُغادر إلى أستراليا في وقتٍ مبكر عن الذي توقَّعه. ومن حسن حظي أن استجابت ابنتي لرغباتي المشروعة، وتزوَّجا هذا الصباح لدى مكتب أمين السجل، وكان مقرَّرًا أن تُغادر اليوم إلى جزيرة وايت في قطار الساعة الثالثة.

لم نذهب لتوديعها، والرواية الوحيدة التي لديَّ عمَّا حدث كانت من زوج ابنتي. قال إنه كان متَّجِهًا إلى عربته المحجوزة لهما، وفجأةً لم يجد ابنتي بجانبه. ظل ينظر من حوله وعاد أدراجه إلى الخلف، ولكنه لم يعثر لها على أثر. ظن أنها ربما ذهبت إلى العربة مباشرةً، فعاد إليها ولكنه وجدها فارغةً. عندئذٍ عاد إلى ما بعد الحاجز ولكنه لم يرَها، ولكن حامل الأمتعة الذي استأجره كي يحمل أمتعته وكان يتبعه قال إنه رآها في محادثةٍ جادَّة مع رجلٍ مُسنٍّ، وإنهما اتَّجها إلى صالة الحجز معًا ثم اختفيا. ورآهما حامل أمتعةٍ آخر في فناء المحطة وهما يركبان سيارة وانطلقا بها.»

كان مانفريد يدوِّن ملاحظاته في دفتر ملاحظاته. لم يرفع بويكارت عينه عن الزائر مطلقًا.

تابع فخامة اللورد حديثه: «القصة التي رواها حامل الأمتعة — أقصد حامل الأمتعة الذي كان بالخارج — تقول إن ابنتي بدَتْ غير راغبةٍ في الذهاب مع العجوز، وإنها ربما أُدخلت عَنوةً إلى السيارة التي لا بد أنها مرَّت به. لما اقتربت السيارة منه كان الرجل يُسدِل الستائر، ويقول حامل الأمتعة إنه لا يشكُّ في أن ابنتي كانت تُجاهد للتخلُّص من الرجل.»

مانفريد: «من الرجل المُسن؟»

أومأ اللورد جيدرو.

قال بصوتٍ مُنتحب: «سيد مانفريد، أنا لست ثريًّا، وربما من الحكمة أن أترك المسألة بين يدَي الشرطة، ولكنْ لديَّ إيمانٌ غير عادي بذكائكم وفِراستكم. أعتقد أنكم ستجدون

الرقم الذي يحمله هذا الشيك مُناسبًا، وعلى الرغم من معرفتي بأتعابكم الباهظة فإنني أرغب في الاستعانة بكم. إنها ابنتي الوحيدة ...» وتحشرج صوته.

«هل أخذ حامل الأمتعة رقم السيارة؟»

هزَّ اللورد جيدرو رأسه، وقال: «لا. وبالطبع أرغب في أن يبقى الأمر بعيدًا عن الصحافة.»

قال مانفريد: «أخشى أن تكون قد فشلت في إخفاء الأمر.» وأخذ ورقة من السلة التي كانت بجانبه، وأشار إلى فقرة في قسم آخر الأخبار.

بلاغ عن اختطاف عروس.

«اختُطفت عروس من قِبل رجل عجوز عنوةً قُبَيل مغادرتها واترلو لقضاء رحلة شهر العسل. وقد أُخطرَت شرطة سكوتلاند يارد بالحادث.»

أسند مانفريد ظهره إلى المقعد وقال: «سيتحدَّث حاملَا الأمتعة. هل لدى الشرطة نظرية بشأن الواقعة؟»

ردَّ اللورد بسرعة: «مطلقًا.»

«هل تحدَّث السيد سايدوورث مع أحد؟»

هزَّ اللورد جيدرو رأسه بقوة.

«بالطبع كان هذا هو أول ما يتبادَر إلى ذهني. أظن أن سايدوورث قد استدرج هذه الفتاة التعيسة ...»

تساءل مانفريد بوميضٍ في عينه لم يفهمه سوى بويكارت: «هل هو رجلٌ مُسنٌّ؟»

ردَّ اللورد بسرعة: «بالطبع لا. لقد أخبرتك أنه شابٌّ. وفي الوقت الحالي يمكث مع بعضٍ من أعز أصدقائي في نيوبيري. أظن أنه ينظر إلى الزواج نظرةً سيئة. على أي حال، لقد قال صديقي إنه لم يُغادر ضيعة كينجشوت طوال اليوم، ولم يستخدم الهاتف على الإطلاق.»

حكَّ مانفريد أنفه المُتناسق مُفكرًا.

«وماذا عن السيد جانثايمر؟»

«مشتَّت بالطبع. لم أرَ أحدًا غاضبًا مثل غضبه. أوشك الحزن أن يُذهب عقله. هل يمكنكم أن تمنحوني أي أمل أيها السادة؟»

أخذت عينه تنتقل من واحد إلى الآخر، وتهلَّل وجهه النحيل مع إيماء مانفريد.

قطع بويكارت هذا الصمت بسؤاله: «أين يمكث السيد جانثايمر؟»

قال اللورد جيدرو: «في فندق جايبورو.»

مانفريد: «نقطةٌ أخرى، ما الهدية التي قدَّمها للعروس؟»

نظر الزائر مُتفاجئًا، ثم قال مُتباهيًا: «مائة ألف جنيه. السيد جانثايمر لا يعتدُّ بطُرُق الاتفاق القديمة لدينا. يمكنني القول إن الشيك الذي يحمل هذا المبلغ في جيبي الآن.»

مانفريد: «وماذا كانت هديَّتك للعروس؟»

أبدى اللورد جيدرو بضع إشارات تدلُّ على نفاد الصبر.

«صديقي العزيز، أنت تسير على المسار الخطأ. لم تُخطف أنجيلا من أجل الحصول على ما معها. صندوق المجوهرات الذي حوى ألماساتها كان مع جانثايمر. لم يكن بحوزتها شيءٌ ذو قيمة باستثناء بعض الجنيهات المُتبقية في حقيبة يدها.»

نهض مانفريد.

«أعتقد أن هذا كل ما أردت أن أسألك عنه يا لورد جيدرو. وما لم أكن مُخطئًا في تقديري، فستعود إليك ابنتك في غضون أربع وعشرين ساعة.»

أوصل بويكارت الرجل إلى سيارته بعدما اطمأنَّ قلبه، وعاد ليجد مانفريد يقرأ عمود الرياضة في إحدى الجرائد المسائية.

سأل بويكارت: «ماذا إذن؟»

أخفض الجريدة وتمدَّد وقال: «قضيةٌ غريبة، ومن النوع الذي تتراقص معه روحي. إذا جاء ليون، فهلَّا طلبت منه أن ينتظر عودتي ما لم يكن ثَمة أمرٌ عاجل اضطرَّه للخروج؟» رفع رأسه، ولما سمع صرير الفرامل قال: «أعتقد أنه هو.»

هزَّ بويكارت رأسه.

قال: «ليون لا يُحدِث كل هذه الضوضاء.» ثم نزل كي يُدخل شابًّا غاضبًا.

كان السيد هاري سايدوورث من الشباب الذين يروقون كثيرًا لمانفريد. جسدٌ نحيل ووجهٌ نضر، وكل صفاته لا تُعبر عن عمره.

قبل أن يدخل إلى الغرفة مباشرةً، قال: «ألست السيد مانفريد؟ لقد كنت في منزل ذلك الشيطان العجوز وأخبرني سكرتيره أن آتي إلى هنا، ولكن لأجل الرب لا تُخبر أحدًا أنه قال لي ذلك!»

«بالطبع أنت السيد سايدوورث؟»

أومأ الشاب بقوة. كان وجهه يشعُّ قلقًا، وكان أشعث الشعر؛ فقد كان أصغر من أن يستطيع إخفاء ما به من كرب.

بدأ قائلًا: «أليس رهيبًا أن تُعبر الكلمات ...»

رمقه مانفريد بنظرةٍ حانية وقال: «سيد سايدوورث، لقد أتيت إلى هنا كي تسأل عن حبيبتك أنجيلا، وأنا أقول لك، كما قلت للورد جيدرو، إنني واثقٌ تمام الثقة بأنها ستعود إليك سالمةً. ثَمة شيءٌ أودُّ السؤال عنه: كم مرَّ على معرفتها بزوجها؟»

عبس وجه الشاب.

قال مُتذمرًا: «إنني أكره هذه الكلمة. هل تقصد جانثايمر؟ حوالَي ثلاثة أشهر. إنه ليس شخصًا سيئًا، وأنا لا أُكنُّ له أي كراهية باستثناء أنه تزوَّج من أنجيلا. وظن جيدرو العجوز أنني اختطفتها؛ فقد اتصل بالأشخاص الذين كنت أقيم معهم، وكان هذا أول علم لي باختفائها. لم يحدث لي شيءٌ مروِّع كهذا من قبل.»

مانفريد: «هل وصلتك أخبار منها مؤخرًا؟»

أومأ سايدوورث.

قال في كآبةٍ شديدة: «نعم، هذا الصباح. مجرد رسالة مُقتضَبة تشكرني فيها على هدية الزواج. لقد أهديتها صندوق مجوهرات ...»

سأل مانفريد بحدة: «ماذا؟» ما جعل الشاب يحدِّق فيه مُتفاجئًا من حدته.

«صندوق مجوهرات؛ كانت أختي قد اشترت واحدًا منذ شهر، وأُعجبت به أنجيلا كثيرًا لدرجة أنني اشتريت لها واحدًا طِبق الأصل منه.»

أخذ مانفريد ينظر إليه وهو شارد الذهن.

قال بنبرةٍ مُتثاقلة: «أختك؟ أين تعيش أختك؟»

قال الشاب مُندهشًا: «إنها تعيش في ميدينهيد.»

نظر مانفريد في ساعته.

ثم قال: «الساعة الآن الثامنة. ستكون هذه الأمسية أمسيةً مُمتعة.»

كانت دقَّات الساعة تُعلن العاشرة والنصف عندما رنَّ جرس الهاتف في جناح السيد جانثايمر الخاص بصوتٍ هادئ. أوقف جانثايمر خطواته المُتململة عبر أرجاء الغرفة واتَّجه نحو الهاتف.

قال: «لا أستطيع أن أرى أحدًا. مَن؟» قطَّب جبينه ثم قال: «حسنًا، سأُقابله.»

كانت الأمطار تهطل بغزارة، واعتذر مانفريد عن مِعطفه الذي بلَّله المطر، وانتظر الدعوة كي ينزعه، ولكن من الواضح أن السيد جانثايمر كان مُنشغلًا بأفكاره السلبية بما جعله لا يعبأ كثيرًا بالقيام بواجبات الضيافة.

كان رجلًا طويلًا حسن الطلَّة، ولكن وجهه بات هزيلًا مُرهَقًا، وكانت اليد التي تُداعب الشارب الرمادي ترتعش قليلًا.

«أخبرني جيدرو أنه ذاهب لمقابلتك، ما تفسيرك لتلك الواقعة المروِّعة يا سيد مانفريد؟»

ابتسم مانفريد.

قال: «الحل غاية في البساطة يا سيد جانثايمر. إنه يكمن في الألماسة الوردية.»

سأل الآخر مذهولًا: «في ماذا؟»

مانفريد: «زوجتك لديها دبوس زينة جميل من الألماس. ما لم تكن معلوماتي مغلوطة، فالفص الثالث من نهاية الدبوس له لونٌ ورديٌّ مميَّز. هذا الدبوس ملك — أو كان ملكًا — لأمير كوميتار الهندي، وستجد كلمة «السعادة» مكتوبةً باللغة العربية على الجانب العلوي منه.»

ظل جانثايمر يُحملق فيه فاغرًا فاه.

«ما علاقة ذلك بالأمر؟»

ابتسم مانفريد مرةً أخرى: «إذا كانت زوجتك لديها ألماسةٌ وردية ومنقوش عليها الكلمة التي ذكرتها، فيمكنني أن أجدها في ست ساعات، وليس في أربع وعشرين ساعة.»

حكَّ جانثايمر ذقنه بأصابعه مُفكرًا.

قال: «من السهل حسم هذه المسألة. مجوهرات زوجتي في أمانات الفندق. فقط انتظِر.»

غادَر لمدة خمس دقائق، وعاد وهو يحمل علبةً صغيرةً ذات لون قرمزي. وضع العلبة على الطاولة وفتحها بمفتاحٍ أخرجه من جيبه. لما رفع الغطاء أخرج مسندًا صغيرًا من الشمواه، وكشف عن مجموعةٍ من الجواهر المُتلألئة على حامل.

قال بعد بحث: «لا يوجد أي دبوس زينة هنا.» ثم أخرج الحامل وفحص الجزء السفلي المبطَّن من العلبة.

كانت هناك دبابيس زينة عادية ومُستطيلة من جميع الأنواع. أشار مانفريد إلى واحدٍ منها وفحصه، ولكن لم يعثر على أي ألماسة وردية، ولم يكن لها وجودٌ في أي دبوس زينة آخر.

لما أغلق جانثايمر غطاء العلبة وقفله بالقُفْل، سأل: «هل هذا أفضل ما لديك في أعمال التحري الجنائي؟ أعتقد أن الحكاية كانت خياليةً قليلًا.»

فجأةً سمعا صوت كسر! اخترق النافذةَ حجرٌ مهشِّمًا الزجاج، ثم سقط على السجادة. التفَّ جانثايمر سريعًا وهو يتلفَّظ بالسِّباب.

«ما هذا؟»

انتزع صندوق المجوهرات الذي كان على الطاولة وجرى نحو النافذة. كانت هناك شرفة صغيرة أمام النافذة مُمتدة بطول المَبنى.

جانثايمر: «لا بد أن من قذف الحجر شخصٌ يقف في الشرفة.»

سُمِع صوت تكسير الزجاج في الردهة، ودخل اثنان من العاملين في الفندق وتفحَّصا التلف، ولكن من دون أن يقدِّما تفسيرًا لما حدث.

انتظر مانفريد حتى وضع العريس المشتَّت علبة المجوهرات في صندوقٍ قوي، وعندئذٍ تحسَّن مزاج جانثايمر.

قال: «لقد سمعت عنكم يا رفاق، وأعرف أنكم تتمتَّعون بذكاءٍ كبير، وإلا كنت سأعتقد أن قصة الألماسة الوردية محض هراء. لعلك ستُخبرني ما علاقة ذلك الأمير الهندي باختفاء أنجيلا.»

كان مانفريد يعضُّ على شفتيه مُفكرًا.

قال ببطء: «لا أريد أن أُزعجك، ولكن هل خطر لك يا سيد جانثايمر أنك قد تُشاركها قدرها؟»

مرةً أخرى، التفت سريعًا ولاحت على وجهه نظرة تخوُّف.

«لا أفهم ما ترمي إليه تمامًا.»

قال مانفريد: «كنت أتساءل إن كنت ستُشاركها قدرها.» ثم مد يده مُصافحًا، والتفت تاركًا مُضيفه المذهول وهو يحدِّق فيه من خلفه.

عندما وصل إلى شارع كيرزون، وجد جونزاليس يجلس في كرسيٍّ ذي ذراعين ويضع قدمه على كرسيٍّ آخر. من الواضح أن بويكارت — الذي وصل أولًا إلى المنزل — أخبره عن الزائرين؛ لأنه كان يتحدث بإسهاب عن النساء.

قال بصوتٍ حزين: «إنهن جامحات، ويفتقرن لرجاحة العقل. تتذكر يا جورج تلك المرأة في قرطبة، كيف أنقذناها من حبيبها، وكيف أنقذنا حياتها، وكيف أنقذنا حياتنا بالكاد من يديها بسبب غضبها؛ لا بد أن يُسَن قانونٌ يمنع النساء من حيازة الأسلحة

النارية. وها هي قضيةٌ مُشابهة. ستُخبرك الجرائد غدًا عن القصة المروِّعة لعروسٍ انتُزعت من بين ذراعَي عريسها الوسيم. ستذرف العجائز الدموع على تلك المأساة من دون أن يعرفن شيئًا عن الألم الموجِع في قلب السيد هاري سايدوورث، ولا عن المتاعب التي تسبَّبت فيها هذه الواقعة الغريبة والمأساوية لجورج مانفريد ورايموند بويكارت وليون جونزاليس.»

فتح مانفريد الخِزانة الموجودة في أحد أركان الغرفة، ووضع فيها شيئًا أخرجه من جيبه. وعلى نحوٍ مُعتاد، لم يطرح جونزاليس أي أسئلة عن هذا الشيء، وكان من الغريب واللافت أن أحدًا لم يُناقش مسألة الألماسة الوردية.

مرَّ الصباح التالي بلا أحداث، باستثناء كثرة حديث ليون عن صلابة أريكة غرفة الاستقبال التي قضَوا ليلتهم عليها، وأنهى الرجال الثلاثة غداءهم، وكانوا جالسين يدخِّنون السجائر مع القهوة عندما دقَّ جرس الباب وخرج بويكارت إلى الردهة ليرى الطارق.

لما وصل صوت إليهم، قال جورج مانفريد: «جيدرو، وآتٍ بأخبارٍ سيئة.»

كان القادم هو اللورد جيدرو بالفعل، وأخذ يصيح بما لديه من معلوماتٍ هائلة.

«هل سمعتم الأخبار؟ اختفى جانثايمر! ذهب النادل إلى غرفته هذا الصباح، ولما لم يردَّ عليه أحدٌ فتح الباب بالمفاتيح التي معه ودخل. وجد السرير مرتَّبًا، وكل أمتعته موجودة، وعلى الأرض ...»

أمسك مانفريد بجبهته وقال: «دَعْني أخمِّن، وُجدت علبة المجوهرات مهشَّمةً إلى قِطعٍ صغيرة، ولا توجد فيها قطعة مجوهرات واحدة! أم أنه ...»

ولكن أنبأه وجه اللورد جيدرو أنه أصاب في تخمينه الأول.

قال مُتلهفًا: «كيف عرفت؟ لم يرِد هذا الخبر في الجرائد، يا إلهي، هذا مروِّع!»

وفي غمرة غضبه، لم يُلاحظ أن ليون جونزاليس قد انسلَّ من الغرفة، ولم يشعر بعدم وجوده إلا عندما التفت ليكتشف أنه لا يوجد سوى الرجل الذي وثق به لسببٍ ما غير عادي.

(قال جورج بعد ذلك: «جيدرو لم يثق بك ولا بي قط.»)

قال مانفريد مُبتسمًا: «أخجل من الاعتراف بذلك. لقد كان ذلك مجرد تخمين. يبدو أن أحدًا قد سطا على علبة المجوهرات؛ لا عجب في ذلك!»

تلعثم السيد النبيل: «ولكن ... ولكن ...» وفي تلك اللحظة فُتح الباب ووقف مذهولًا. وجد فتاةً مُبتسمةً، وفي اللحظة التالية ارتمت في أحضانه.

قال ليون بهدوءٍ بالغ: «ها هي أنجيلا، ومع احترامي للجميع فلن آسف على النوم في سريري الخاص الليلة. جورج، يجب إعادة هذه الأريكة إلى اللصوص الذين جلبوها.»

ولكن كان جورج عند الخزانة يُخرج منها علبة مجوهرات من الجلد الأحمر.

مرَّ وقتٌ طويل قبل أن يهدأ جيدرو بما يكفي لسماع القصة.

قال مانفريد: «صديقي ليون جونزاليس يتمتع بذاكرةٍ قوية للوجوه، ونحن أيضًا لدينا هذه المزية، ولكن ليون لديه موهبةٌ خاصة في ذلك. كان ينتظر في واترلو كي يوصل صديقنا بويكارت إلى المنزل. ذهب رايموند إلى وينشيستر كي يرى جرَّاحًا صديقًا لنا بشأن الْتِواء في الساق. بينما كان ليون يجلس مُنتظرًا رأى جانثايمر وابنتك، وعلى الفور تعرَّف على جانثايمر الذي كان له أسماءٌ أخرى وهي: لانستري، أو سميث، أو ماليكين. خطيئة جانثايمر هي تعدُّد الزوجات، وتصادف أن كان ليون يعرفه جيدًا. طرحت بعض الاستفسارات على حامل الأمتعة، ولم يكتشف هوية ابنتك فحسب، بل عرف أن هذا الرجل تزوَّج في ذلك اليوم. تقرَّب إلى أنجيلا بحكايةٍ لا أصل لها، وهي أن شخصًا غير معروف ينتظر رؤيتها أمام المحطة. لن أقول إنها تخيَّلت أن ذلك الشخص المجهول هو هاري سايدوورث، ولكنها خرجت بكامل إرادتها على أي حال. أبدت بعض المقاومة عندما دفعها صديقنا ليون داخل السيارة وانطلق بها إلى مكانٍ بعيد ...»

قاطَعه ليون: «سيتعاطف معي أي شخص جرَّب قيادة سيارة والتحكم في سيدةٍ غاضبة ومذعورة.»

تابَع مانفريد: «مع وصول الآنسة أنجيلا جيدرو إلى شارع كيرزون، كانت قد عرفت جميع الحقائق التي عرفها ليون. كان اعتراض ليون الوحيد هو تأجيل شهر العسل حتى يستطيع الاستعانة بشخصٍ ما ليتحقق من هوية جانثايمر. لم تُخبرنا السيدة الشابَّة شيئًا عن علبة المجوهرات خاصتها، ولكننا جميعًا توقَّعنا تقديم الشيك ذي المائة ألف جنيه إلى البنك لصرفه بعد فوات الأوان؛ فقبل صرف الشيك سيكون جانثايمر خارج البلاد مع أي غنيمة يستطيع جمعها — وهي ألماسات العائلة في تلك الحالة — وبالطبع بات القبض عليه سهلًا ليلة أمس. عندما جئت فخامتك ليلة أمس كان ليون بالخارج يُنهي تحرياته. وقبل أن يعود تمكَّنت من معرفة من أين يمكن الحصول على علبة مجوهرات طِبق الأصل مطابقة للعلبة الأخرى، وأجريت مكالمةً مع بويكارت عن صديقنا المتعدِّد الزيجات. كان بويكارت في البلكونة يستمع إلينا؛ وبناءً على كلمةٍ متَّفَق عليها كإشارةٍ حطَّم زجاج النافذة؛ مما أعطاني الفرصة التي أريدها بالضبط كي أبدِّل علبتَي المجوهرات. وفي وقتٍ

لاحق، أفترض أن السيد جانثايمر فتح الصندوق ووجده فارغًا، وأدرك أن اللعبة قد انتهَتْ وهرب.»

سأل اللورد جيدرو: «ولكن كيف أقنعته بأن يُريك علبة المجوهرات؟»

ابتسم مانفريد ابتسامةً غامضة. كانت حكاية الألماسة الوردية غايةً في البساطة بحيث لا يمكن تكرارها.

الفصل الرابع

# المصادفة الثالثة

لا يوجد سجل بسابق نشرها تحت هذا العنوان.

* * *

كان ليون جونزاليس كالعالم الشهير، يتمتَّع بموهبةٍ لا حدود لها في جمع المصادفات. كذلك كانت لديه معتقداتٌ غريبة، وكان يعتقد أن الشخص إذا رأى بقرةً وردية اللون بقرنٍ واحد في الصباح، فلا بد أن يُقابل بقرةً أخرى وردية اللون بقرنٍ واحد في وقتٍ لاحقٍ في نفس ذلك اليوم؛ بناءً على الآليات الشائعة لقانونٍ خفي.

قال: «المصادفات، يا عزيزي جورج، أمورٌ حتمية، وليست حوادث عارضة.»

غمغم مانفريد بشيء ردًّا عليه؛ إذ كان عاكفًا على دراسة ملف شخصٍ يُدعى ويليام يابي، الذي ربما يُقال عنه شيءٌ في وقتٍ لاحق.

«ها هي مصادفةٌ أخرى.» لم يكن ليون خجلًا بأي حال؛ إذ كان الوقت حينئذٍ بعد العشاء، وهي الساعة التي يتحلَّى فيها بأعلى درجات الثقة من اليوم. «أخذت السيارة هذا الصباح في جولة إلى ويندسور، وكان الجو فيها رطبًا قليلًا بالأمس. تخيَّلْ ماذا وجدت في لانجلي. رجلًا يجلس أمام نُزُل وفي حالة سُكْر شديد. تخيَّلت أنه عاملٌ زراعي يرتدي أفضل ملابسه، وكان اللافت أنه يرتدي خاتمًا ماسيًّا يُساوي خمسمائة جنيه. أخبرني أنه ذهب إلى كندا، وأقام في فندق شاتو فرونتوز، وهو فندقٌ باهظ التكلفة.»

بدا على بويكارت الاهتمام.

«وماذا عن المصادفة؟»

«لو استمع لي جورج.» رفع مانفريد رأسه مُتذمرًا. «شكرًا لك. لم أكَد أبدأ في الاستفسار من هذا المُزارع المخمور حتى وصلت سيارة رولز ونزل منها رجلٌ حسن المظهر يرتدي خاتمًا ماسيًّا هو الآخر في خنصره.»

قال جورج مانفريد: «شيءٌ مُثير.» ثم عاد إلى ملفه.

«سأغضب إذا لم تستمع. تخيَّلْ أن هذا المُزارع هبَّ فجأةً واقفًا وكأنه رأى شبحًا. قال المُزارع مُتلهفًا: «أمبروز!» هرب الدم من وجهه الذي صار في بياض الحليب. لم يكن من الممكن أن يسمعه أمبروز — إن كان سيغفر له تجرُّؤه عليه من الأساس — ودخل النُّزل. هرب العامل وهو يتعثَّر وكأن الشيطان في أثره، واللافت للنظر أن عقل المرء يستفيق على نحوٍ أسرع بكثيرٍ من قدميه.

دخلت إلى النُّزل ووجدت أمبروز يحتسي الشاي. والرجل الذي يشرب الشاي في الحادية عشرة صباحًا إما أنه من جنوب أفريقيا أو من أستراليا. وتبيَّن أنه من جنوب أفريقيا. كان شخصًا يعمل في التنقيب عن الماس الغريني، كما كان جنديًّا سابقًا، وتبدو عليه سمات النُّبلاء، على الرغم من أنه ليس كثير الكلام. بعدما ذهب خرجتُ أبحث عن العامل، وأدركته وهو يدخل فيلا تنمُّ عن ثراءٍ فاحش.»

«ودخلتها، دونما اعتبارٍ منك لحرمة منزل الرجل الإنجليزي.»

أومأ ليون.

ثم قال: «هذا ما حدث في الحقيقة. تخيَّلْ، يا عزيزي جورج، فيلا في الضواحي مليئة بأثاثٍ لا فائدة له، بحيث يصعب العثور على مكانٍ للجلوس فيه. أرائك مغطَّاة بالساتان وخزاناتٌ صينيةٌ مقلَّدة، ورفوف ومساحةٌ مُزدحمة بأغراضٍ مُشابهة. رسومٌ زيتيةٌ سخيفةٌ مرسومة في الفناء وموضوعة في إطاراتٍ ذهبيةٍ ثقيلة، وصورٌ فوتوغرافيةٌ مكبَّرة لأشخاصٍ يبتسمون ابتساماتٍ مصطنعةً تُغطي ورق الحائط ذا الشكل البغيض، وسيدتان ترتديان ملابس باهظة وتتزينان بالألماس، ولكن لم يكن بينها أي ألماسات شفافة قيِّمة؛ امرأتان خشنتان كالدنس الذي على حذائي، بما يُصاحب ذلك من صخبٍ وقبحٍ وفظاظة.

لما دخلت إلى الصالة في أثر العامل، سمعته يقول: «إنه لم يُقتل، لقد عاد.» وامرأةٌ تقول: «يا إلهي!» ثم قالت المرأة الثانية: «لا بد أنه قُتِل — لقد كان مُدرَجًا على قائمة ضحايا «رأس السنة الجديدة»!» ثم انشغلتُ في شرح سبب وجودي بحيث لم يكن هناك مجالٌ للمزيد من الاستيضاح.»

ربط جورج مانفريد ملفَّه جيدًا بقطعةٍ من شريطٍ أحمر، واتَّكأ بظهره على الكرسي.

«بالطبع أخذت رقم سيارة أمبروز، أليس كذلك؟»

أومأ ليون.

«وهل كان يرتدي خاتمًا ماسيًّا؟»

«خاتم امرأة، كان يرتديه في خنصره. لم يكن لافتًا للنظر كثيرًا. كان خاتمًا عاديًّا من النوع الذي ترتديه أي فتاة.»

ضحك بويكارت في نفسه.

قال: «لنجلس الآن وننتظر المصادفة الثالثة؛ فلا بد من حدوثها.»

بعد بضع دقائق كان ليون في طريقه إلى شارع فليت؛ فقد كان رجلًا ذا فضول مُستعصٍ على الإشباع. ظل لمدة ساعتين في مكتب إحدى الصُّحف الصديقة يدقِّق في قوائم الضحايا التي نُشرت في يوم رأس السنة الجديدة على مدى أربعة أعوام مضت؛ بحثًا عن جنديٍّ اسمُه الأول «أمبروز».

قال المفوض المساعد مُبتهجًا: «رجال العدالة الثلاثة صاروا الآن منظمةً بارزة لها احترامها، حتى إننا صِرنا نمنحكم حمايةً شُرطية.»

لا بد من الأخذ في الاعتبار حقيقة أن هذا الحديث كان بعد العشاء، عندما يتبسَّط المرء قليلًا في الحديث حتى لو كان مفوضًا مساعدًا، خاصةً عندما يستضيف آخرين في منزله الجميل في بلجرافيا. يجب أيضًا الوضع في الاعتبار تلك الحقيقة الأكثر إثارةً، وهي أن أحد أفراد ذلك التنظيم الشهير قد شُوهِد أمام منزل الكولونيل بينفورد في تلك الليلة.

«إنهم شياطين غُرباء. إن سبب مراقبتهم لهذا المكان يحيِّرني. لو كنت أعلم لسمحت للرجل بالدخول!»

نظرت السيدة إيرين بيلفين إلى إحدى الصور على الحائط. كان يبدو أن اهتمامَها برجال العدالة الثلاثة محدودٌ للغاية، ومع ذلك كانت كل كلمة تفوَّه بها الكولونيل بينفورد محفورةً في ذاكرتها.

كانت امرأة في الخامسة والثلاثين، وأرملةً لرجل كان يشغل منصبًا وزاريًّا؛ ومن ثَم كان يمكن أن تدَّعي أنها ذات حظوةٍ خاصة. كما تزوَّجت من مليونير وترك لها ثروته كاملة، وكانت ذا وجه نضر خلا من أي تجاعيد، وتتَّسم باتزانٍ هادئ لا ينعم به سوى شخص لم يعرف الهمَّ له طريقًا.

قالت بصوت فيه تشدقٌ خفيف: «لا أعرف ما يفعلونه بالضبط. هل هم محقِّقون؟ ولكن بالطبع أعرف ما كانوا عليه فيما مضى.»

ومن لم يكن يعرف هؤلاء الثلاثي الشرس في تلك الأيام عندما كان الجميع ضدهم؟ عندما كان الموت السريع يعقب تهديدهم، وكان كل من يُخالف القانون في الخفاء يرتجف عند ذكر أسمائهم.

قال أحدهم: «لقد أصبحوا مروضين الآن بما يكفي. إنهم لا يُمارسون ألاعيبهم الخبيثة الآن، أليس كذلك يا بينفورد؟»

لم يكن الكولونيل بينفورد واثقًا من ذلك تمام الثقة.

قالت إيرين مُتأملةً: «هذا غريب. لم أفكر فيهم.»

وغرقت في أفكارها تمامًا حتى إنها لم تشعر بعلوِّ صوتها وهي تتحدث.

تساءل بينفورد وهو مُندهش قليلًا: «ولمَ التفكير فيهم بحق السماء؟»

وعند ذلك انتفضت فجأةً وغيَّرت الموضوع.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما وصلت إلى شقتها الجميلة في بيكاديلِّي، ووجدت جميع الخدم قد خلدوا إلى النوم باستثناء وصيفتها. لما سمعت الوصيفة صوت المفاتيح وهي تدور في القفل أسرعت إلى الصالة، وبوَجلٍ شديد عرفت إيرين بيلفين أن ثَمة خَطبًا ما.

قالت الفتاة بصوتٍ مُنخفض: «إنها تنتظر منذ التاسعة يا سيدتي.»

أومأت إيرين.

سألت: «أين هي؟»

«أدخلتها غرفة المكتب يا سيدتي.»

ناولت المِعطف للوصيفة، ثم عبَرت الممر الواسع وفتحت بابًا ودخلت إلى غرفة المكتب. نهضت المرأة التي كانت تجلس على الأريكة المغطَّاة بالجلد في حرج عندما رأت المرأة المتألِّقة التي دخلت الغرفة. كانت الزائرة ترتدي ملابس رديئة، ولها وجهٌ طويلٌ غير نظيف، وفمٌ متهدِّل على نحوٍ يُثير الشفقة. ألقت نظرةً ماكرة من تحت جفنيها المخفَضين، وعلى الرغم من التواضع في نبرة صوتها فقد حملت أيضًا إيحاءً بالتهديد.

قالت: «لقد ساءت حالته مجددًا بدرجةٍ مُخيفة هذه الليلة يا سيدتي. لقد تركنا جميعًا عملنا من أجل إبقائه في السرير. قال إنه يريد المجيء إلى هنا وهو في حالة هذيان. يقول الطبيب إنه يجب إرساله إلى ...» وهنا رفعت عينيها سريعًا وأخفضتهما مرةً أخرى: «جنوب أفريقيا.»

قالت إيرين في هدوء واتزان: «كانت كندا المرة الماضية. كانت رحلةً مكلِّفة يا سيدة دينيس.»

تمتمت المرأة بشيءٍ ما وهي تفرك يديها بمزيد من التوتر.

«لا شك أنني قلقة للغاية بشأن المسألة برمَّتها بصفتي عمته، كما أنني متأكدةٌ من أنه لا يمكنني تحمُّل خمسة آلاف جنيه تكلفة إرساله إلى جنوب أفريقيا.»

خمسة آلاف جنيه! صُدمت إيرين عند سماع الطلب. لقد تكلَّفت الرحلة إلى كندا ثلاثة آلاف، ولكن الطلب في الأساس كان لرحلةٍ واحدة.

قالت بإصرارٍ مُفاجئ: «أريد أن أراه بنفسي.»

ألقت تلك النظرة الماكرة السريعة مرةً أخرى.

«ما كنت لأسمح لك بالإتيان ورؤيته يا سيدتي إلا إذا حضر معكِ رجل. كنت لأخبركِ بأن تُحضري زوجك، ولكني أعلم أنه لم يعُد موجودًا. ما كنت لأتحمَّل المسئولية، ما كنت لأفعل ذلك في الحقيقة. وهذا ما جعلني لا أخبركِ مطلقًا بالمكان الذي نعيش فيه؛ تحسبًا لئلا يُغويكِ عقلكِ لفعل ذلك يا سيدتي؛ فهو لم يعُد يفكر في قطع رقبتكِ بقدر ما يفكر في رؤيتك!»

تصلَّب الوجه الجميل بابتسامة ازدراء.

قالت إيرين بهدوء: «لست واثقةً تمامًا من أن هذا يُخيفني حقًّا. أنت تريدين خمسة آلاف جنيه، متى ستنطلق الرحلة؟»

قالت المرأة مُتلهفةً: «السبت القادم يا سيدتي. ويقول جيم إنه ينبغي دفع المال نقدًا.»

أومأت إيرين.

قالت: «حسن جدًّا، ولكن يجب ألا تأتي إلى هنا مرةً أخرى حتى أرسل في طلبك.»

«أين سأحصل على المال يا سيدتي؟»

«هنا في الثانية عشرة غدًا. وأيضًا، أرجو أن تجمِّلي مظهركِ قليلًا عند قدومك.»

ابتسمت المرأة.

قالت ساخرة: «ليس لديَّ مظهركِ ولا ملابسكِ يا سيدتي. كل فلسٍ أكسبه يضيع على جيم المسكين، في محاولةٍ لإنقاذ حياته، في حين أنه لو حصل على حقوقه لأصبح لديه ملايين.»

اتجهت إيرين إلى الباب وفتحَتْه، وانتظرت في الممر إلى أن أوصلت الوصيفة الزائرة غير المرغوب في وجودها إلى الخارج.

قالت إيرين: «افتحي النوافذ وجدِّدي هواء الغرفة.»

صعدت إلى الطابق العُلوي، وجلست أمام مزينتها وهي تتطلع إلى صورتها في المرآة مُتأملةً.

بعد بُرْهة نهضت فجأةً واتجهت إلى الهاتف. رفعت السماعة ثم أدركت أنها لا تعرف الرقم. بعد البحث في دليل الهاتف، حصلت على المعلومات التي أرادتها. كان مقرُّ وكالة تريانجل للتحقيقات في شارع كيرزون. وقالت في نفسها إنهم سيكونون نائمين في هذا الوقت، وحتى لو لم يكن أعضاء هذا الاتحاد غير العادي نائمين، فهل من المحتمل أن يشغلوا أنفسهم بالرد في هذه الساعة المتأخرة؟

وما كادت تطلب الرقم حتى أُجيبَ اتصالها. سمعت صوت السماعة وهي تُرفَع وسمعت رنينًا مميزًا لجيتار، ثم سمعت صوتًا مُتحمسًا يسأل مَن المتحدِّث.

قالت: «السيدة إيرين بيلفين. أنت لا تعرفني، ولكن ...»

«أعرفكِ جيدًا يا سيدة إيرين.» استطاعت أن تستشفَّ أن هذا المجهول الذي يُخاطبها كان يبتسم وهو يُجيبها. «لقد تناولتِ العشاء في منزل الكولونيل بينفورد الليلة وغادرت المنزل في الثانية عشرة إلا اثنتَي عشرة دقيقة. وأمرت السائق أن يعود بك من طريق هايد بارك.»

توقَّف صوت الجيتار. سمعت صوتًا بعيدًا يقول: «استمعي إلى ليون؛ إنه لا يختلف عن شيرلوك هولمز.» ثم سمعت صوت ضحكة. ابتسمَت في انسجام مع الموقف.

«هل تريدين رؤيتي؟» كان ليون جونزاليس من يتحدث وقتئذٍ.

سألت: «متى يمكنني رؤيتك؟»

«الآن، سآتي على الفور إذا كنت في مأزقٍ خطير. أعلم أنكِ في مشكلة.»

تردَّدتْ؛ ومن ثَم اتخذت قرارها على الفور وعقدت العزم.

«حسن جدًّا. هل ستأتي؟ أنا في انتظارك.»

بسبب توتُّرها، أسقطت السماعة بينما كان يُجيبها.

بعد خمس دقائق، أدخلت الوصيفة رجلًا نحيفًا حسن المظهر. كان يرتدي بذلةً سوداء، وكان هناك تشابهٌ غريب بينه وبين مُحامٍ بالمحكمة العليا كانت تعرفه. كانت تحيَّتها له مُرتبكةً ومُفتقدةً للباقة؛ إذ كان الفاصل الزمني أقصرَ من أن تقرِّر ما يجب أن تُخبره به وكيف يجب أن تبدأ.

كانت في المكتبة حين أدلت باعترافاتها لزائرها القادم في وقتٍ متأخر الذي عبق المكانُ برائحته الكريهة لأنفها الحساس، وأنصت إليها دون أي تعبيراتٍ على وجهه.

«... كنت صغيرة. هذا عذري الوحيد، وكان هو شابًّا في غاية الوسامة والجاذبية، والسائق لا يُعتبر خادمًا؛ أعني أنه يمكن لشخصٍ أن يكوِّن صداقةً معه بينما لا يمكنه ذلك، حسنًا، مع الخدم الآخرين.»

أومأ ليون.

«يمكنك أن تُسميه جنونًا وقبحًا وكل شيء آخر تشاء. لما طرده أبي أحسستُ أن قلبي سينفطر.»

سأل جونزاليس بنبرةٍ جادَّة: «هل عرف والدك؟»

هزَّت رأسها.

«لا، أبي كان سريع الغضب، وعنَّف جيم بسبب خطأ لم يرتكبه وانتهى الأمر. تلقَّيت منه خطابًا واحدًا، ولم يصلني منه أي أخبار بعد ذلك حتى عامين أو ثلاثة بعد زواجي، حين تلقَّيت خطابًا من تلك المرأة تُخبرني فيه بأن ابن أخيها مُصاب بداء السُّل، وأنها تعرف كم كنا صديقين حميمين.»

لدهشتها، كان زائرها يبتسم؛ وتأذَّت لذلك في البداية.

قال ردًّا على دهشتها: «أنت لم تُخبريني بأكثر مما خمَّنته.»

«خمَّنت ... ولكنك لم تعرف ...»

قاطَعها بأسلوبٍ فظ.

«هل كنت سعيدةً في زواجكِ الثاني يا سيدة إيرين؟ أنا لا أحاول الخروج عن الموضوع.»

تردَّدت.

«كنت سعيدة للغاية. كان زوجي يكبرني بحوالَي ثلاثين عامًا. لماذا تسأل؟»

ابتسم ليون مرةً أخرى.

«أنا عاطفي، وهذا اعترافٌ صادم لشخصٍ يتباهى بعقله العلمي. أنا شغوف بقصص الحب، سواء الخيالية أو الحقيقية. ألم يكن جيم هذا سعيدًا؟»

هزَّت رأسها.

قالت: «نعم.» ثم أضافت ببساطة: «لقد أحببته، وما زِلت أحبه. هذا هو الجزء المروِّع من القصة. يروعني التفكير فيه وهو يرقد مريضًا وهذه العمة الفظة تعتني به ...»

قاطَعها ليون بهدوء: «إنها صاحبة المنزل؛ فليس له أقارب.»

حينئذٍ هبَّت واقفةً وحملقت فيه.

«ما الذي تعرفه؟»

أصدر إشارةً كان لها تأثير السحر في تهدئتها.

«لقد ذهبت إلى منزل الكولونيل بينفورد الليلة، وتصادف أن عِلمت بأنكِ ضيفة لديه، وأردت أن أرى فمك. أعتذر عن غموضي، ولكني أحكم على النساء من أفواههن؛ التجربة خير برهان؛ ولذلك عرفت الساعة التي غادرت فيها.»

نظرت إليه إيرين بيلفين عابسةً.

قالت: «لا أفهم يا سيد جونزاليس. ما شأن فمي بتلك المسألة؟»

أومأ ببطء.

«لو كان لكِ فمٌ من نوعٍ معيَّن، فما كنت لأهتم؛ لأن ...»

انتظرت، ثم تحدَّث بعد قليل.

«ستجدين جيمس أمبروز كلينز في جناحه بفندق بيكاديلِّي. خاتمكِ الذي أعطيته إياه في إصبعه الخنصر، ولا توجد صور في غرفته سوى صورتك.»

مد يده كي يسندها وهي تجلس على الكرسي بعدما شحب لونها وأخذت ترتعش.

«إنه رجلٌ ثري للغاية ولطيف للغاية، وغبي للغاية، وإلا لأتى لرؤيتك.»

توقَّفت سيارة أمام فيلا مزخرَفةٍ في قرية لانجلي ونزلت منها امرأةٌ رديئة الثياب. فتح البابَ رجلٌ ضخم، ودخل الاثنان إلى الردهة الصغيرة المليئة بالأثاث. ارتسمت ابتسامة رضًا على وجه السيدة دينيس.

قالت وهي تُلقي معطفها القديم: «كل شيء على ما يُرام؛ ستدفع.»

التفت الرجل ذو المظهر الرث الذي يرتدي الخاتم الماسي إلى أخته الأخرى.

قال بنبرة تُنذِر بسوء: «بمجرد أن نحصل على المال سنُغادر إلى كندا. لا أريد أن أُصاب بالخوف الذي أُصبتُ به في يوم الثلاثاء، لماذا كل هذا التأخير يا ماريا؟»

قالت وهي تفرك يديها عند المدفأة: «انفجر الإطار على طريق جريت ويست. ما الذي يُقلقك يا شاءول؟ لم نقترف شيئًا. لم يحدث أن هدَّدناها قط، وإلا لأصبحت جريمة. لم نطلب منها سوى مساعدة شخص مسكين مريض، وهذه ليست جريمة.»

استمرَّ النقاش بينهم في إيجابيات المسألة وسلبياتها لمدة ساعة تقريبًا، ثم سمعوا طَرقًا على الباب.

كان الرجل هو من ذهب كي يُقابل الضيف القادم.

قال ليون جونزاليس مُبتهجًا: «إذا لم أدخل فستدخل الشرطة. سيصدر أمر ضبط وإحضار في صباح الغد، وسيُلقى القبض عليكم بتهمة التآمر والاحتيال.»

بعد بضع ثوانٍ، كان يستجوب مجموعةً من أشخاصٍ يرتعدون من الخوف.

كان بويكارت وجورج مانفريد ينتظرانه حين عاد في الساعات الأولى من الصباح.

قال ليون وهو يمرِّر عينه سريعًا على ملاحظاته: «إنها قضيةٌ فريدة. أمبروز رجلٌ مُتعلم، وقع في حب ابنة إيرل كارسليك. يفقد وظيفته، ولأنه يحب الفتاة يقرِّر ألا يتواصل معها. يلتحق بالجيش، وقبل إرساله إلى خارج البلاد يكتب إلى صاحبة المنزل الذي يعيش فيه ويطلب منها أن تأخذ مظروفًا مغلقًا مليئًا بخطابات من إيرين وتحرقه. في الوقت الذي تتلقى فيه هذه التعليمات، تصِلها أخبار بأن أمبروز قُتِل. ونظرًا للفضول الذي يُميز الطبقة التي تنتمي إليها صاحبة المنزل السيدة دينيس، تفتح المظروف وتعلم ما يكفي لكي تستطيع ابتزاز هذه الفتاة البائسة، ولكن أمبروز لم يمت، بل أُعفيَ من الخدمة في الجيش بسبب جروح أُصيبَ بها؛ وبناءً على دعوة قبلها من جندي من جنوب أفريقيا ذهب إلى كيب وتحسَّنت صحته هناك.

في هذه الأثناء، تعاظمت ثروة عائلة دينيس. لقد زعموا أن «جيم» — كما يُسمونه — مريض بشدة، وكلهم ثقة في أن إيرين لم تسمع بموته. وبهذه الوسيلة، وبناءً على تهديدها بإخبار زوجها، استولَوا منها على ما يُقارب عشرين ألف جنيه.»

سأل بويكارت: «ما الذي سنفعله معهم؟»

أخرج ليون شيئًا من جيبه وكان خاتمًا ماسيًّا برَّاقًا، ثم قال: «أخذت هذا مقابلًا لمشورتي.»

ابتسم جورج.

«وماذا كانت مشورتك يا ليون؟»

قال ليون: «أشرت عليهم بالخروج من البلاد قبل أن يعثر عليهم أمبروز.»

الفصل الخامس

# لغز سلين

لا يوجد سجل بسابق نشرها تحت هذا العنوان أعيدت الطباعة في «مجلة ذا سانت»، طبعة المملكة المتحدة، يوليو ١٩٦٢.

* * *

بات مقتل برنارد سلين لغزًا من الألغاز الغامضة التي تسرُّ الصحافة وتُقلق الشرطة. كان السيد سلين سمسارًا ثريًّا في البورصة، ولم يسبق له الزواج، وكان شخصًا جيدًا. تناول العشاء في نادي بال مول ولما كانت سيارته في الورشة لإجراء بعض أعمال التصليح أخذ سيارة أجرة، وأمر السائق أن يُوصله إلى شقته في مجمع شقق ألبرت بالاس مانشنز، وكان بواب المجمع قد أخذ المصعد إلى الطابق الخامس وقت وصول السيد سلين.

كان النذير الأول بوجودِ خَطبٍ ما عندما نزل البواب، ووجد السائق يقف في الردهة وسأل عما يريده.

قال السائق: «لقد أوصلت رجلًا إلى هنا لتوِّي؛ السيد سلين، القاطن في رقم سبعة. لم يكن لديه أي نقود فكة؛ ومن ثَم ذهب لإحضارها.»

كان هذا محتملًا بدرجةٍ كبيرة؛ لأن سلين كان يقطن في الطابق الأول ويستخدم السُّلم دائمًا. تحدَّث السائق والبواب معًا لنحو خمس دقائق، وبعدها تطوَّع البواب بالصعود لإحضار الأجرة.

كان مجمع ألبرت بالاس مانشنز يختلف عن أي مجمع سكني آخر من نوعه؛ إذ كان يوجد في الطابق الأول والأعلى شقةٌ واحدةٌ صغيرة تتكون من أربع غُرَف يعيش فيها سلين.

ظهر ضوء من خلال العارضة، ولكنه ظل متَّقِدًا طوال الليل. دقَّ البواب جرس الباب وانتظر، ودقه مرةً أخرى، ثم طرق على الباب، ولكن دون أي إجابة، فعاد إلى السائق.

قال: «لا بد أنه خلد إلى النوم، كيف كانت حالته؟»

قصد بهذا السؤال الاستفسار عمَّا لو كان سمسار البورصة مخمورًا أم لا؛ فقد كان سلين في الحقيقة يُعاقر الخمر بإفراطٍ نوعًا ما، وعاد إلى المنزل أكثر من مرة في حالةٍ استدعَتْ مساعدة البواب الذي يعمل في المناوبة الليلية لإيصاله إلى فراشه.

أقرَّ السائق — وكان اسمه رينولدز — بأن الراكب كان معه في حالةٍ جيدة، وربما أكثر من جيدة. أعاد البواب الكرَّة مُحاولًا الحصول على ردٍّ من صاحب الشقة، ولكن لم يُفلح؛ ومن ثَم دفع للسائق أجرته من جيبه، وكانت أربعة شلنات وستة بنسات.

ظل البواب في مناوَبته طوال الليل، وصعد خلالها إلى الشقة ونزل عدة مرات. ومن خلال الحاجز القضباني المفتوح في الطابق الأول، أُتيحت له رؤية الشقة رقم ٧. وذكر في أقواله أنه لم يرَ السيد سلين نهائيًّا في تلك الليلة، وأنه يستحيل أن يُغادر سمسار البورصة المبنى دون أن يراه.

في الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، رأى شُرطيٌّ كان يجوب منتزه جرين بارك في نوبة حراسته، رجلًا يجلس على مقعد في حديقة مُنكفئًا على نفسه. كان يرتدي سترةً ليلية، وأثارت وضعيته الشكوك؛ مما دفع الشرطي إلى القفز من فوق الحواجز واجتياز حيز الحشائش الذي تخلَّل الطريق بين الممر والمقعد القريب من أجمةٍ من شُجَيرات الورد. اقترب من الرجل ليجد لهواجسه ما يسوِّغها. كان الرجل ميتًا؛ تعرَّض للضرب المبرِّح بآلةٍ غير حادَّة، وبالبحث في جيوبه تبيَّن أنه السيد برنارد سلين.

كان يوجد بالقرب من مسرح الجريمة بوابةٌ حديديةٌ مقحَمة داخل الحواجز تؤدي إلى المركز التجاري، ووُجد القفل الذي كان على هذه البوابة محطَّمًا. حضر ضباط المباحث من شرطة سكوتلاند يارد على الفور إلى مسرح الحادث، واستُجوِب بواب مجمع ألبرت بالاس السكني، وأُرسلَ أمرٌ يطلب من السائق رينولدز الحضور إلى مركز الشرطة. حضر إلى مركز الشرطة بحلول الثانية عشرة، ولكنه لم يستطع إلقاء أي ضوء من شأنه حل خيوط اللغز.

كان رينولدز رجلًا يحظى بالاحترام وليس له سوابق، وكان أرمل يعيش في مرأب بالقرب من ميدان دورست في شارع بيكر.

قال ليون جونزاليس وهو يضع مرفقيه على مائدة الإفطار ورأسه بين يديه: «جريمةٌ مسلِّية للغاية.»

تساءل جورج: «ولماذا مسلِّية؟»

واصَل ليون القراءة مُحركًا شفتيه، وكانت خدعةً من خدعه، وهو يلتهم كل سطر مكتوب. بعد برهة اتَّكأ بظهره على كرسيه وفرك عينيه.

قال: «إنها مسلية بسبب فاتورة الفندق التي وُجدت في جيب القتيل.»

وضع إصبعه على إحدى الفقرات، وسحب مانفريد الجريدة نحوه وقرأ ما يأتي:

«عثرت الشرطة في الجيب الأيمن من مِعطف القتيل على ورقةٍ ملطَّخة بالدماء تبيَّن أنها فاتورة فندق، صادرة من فندق بليج بأوستيند منذ خمس سنوات. أُصدرت الفاتورة باسم السيد ويلبراهام وزوجته بقيمة ٧٥٠٠ فرنك.»

دفع مانفريد الجريدة مُعيدًا إياها.

سأل: «أليس اللغز يكمن في سبب مغادرة هذا الرجل الشِّبه ثَمِل شقتَه، والرجوع إلى منتزه جرين بارك الواقع على مسافةٍ بعيدة من مجمع ألبرت بالاس؟»

هزَّ ليون رأسه ببطء، وكان يُحملق في شرود إلى الجدار البعيد، ثم غيَّر الموضوع بسرعة بطريقته المعهودة.

قال: «ثَمة مزايا كثيرة تدعم القانون الذي يحظر نشر تفاصيل معيَّنة في قضايا الطلاق، ولكن أعتقد أن الملابَسات التي أحاطت بزيارة السيد ويلبراهام وزوجته إلى فندق بليج كانت ستتكشَّف كاملةً لو نُظرت القضية أمام المحكمة.»

«هل تشكُّ في أن الجريمة ارتُكبت بدافع الانتقام؟» هزَّ ليون كتفيه وغيَّر الموضوع. اعتاد جورج مانفريد أن يقول إن ليون يتمتع بعقلٍ ذي قدرة استيعابية مُذهِلة لكل التفاصيل وتصنيفها، وإنه من حسن حظه أن الْتَقى به؛ فنادرًا جدًّا ما يحتاج إلى الرجوع إلى الملاحظات والبيانات الضخمة التي جمعها في حياته، وملأت إحدى الغُرف في ذلك المنزل الصغير، وجعلتها غير قابلة للسكنى.

كان يوجد رجل في سكوتلاند يارد، يُدعى المحقِّق ميدوز، يحظى بعلاقةٍ طيبة للغاية مع الرجال الثلاثة. كان من عادته تدخين غليون — أو العديد من الغلايين في الحقيقة — في المساء في المنزل الصغير الكائن في شارع كيرزون. وقد جاء في تلك الليلة وفي جعبته الكثير عن لغز مقتل سلين.

قال: «كان سلين رجلًا سريعًا في شئون حياته. بناءً على الأدلة التي وُجدت في منزله، يتبيَّن أنه كان الرجل الوحيد في لندن الذي لا يفترض أن يُطلَق عليه وصف أعزب، في حين أن هناك أربعًا وعشرين امرأة لهن حقوق لديه! بالمناسبة، لقد تتبَّعنا السيد ويلبراهام

وزوجته. بالطبع تبيَّن أن ويلبراهام هو سلين. العثور على السيدة ليس سهلًا. أظن أنها واحدة من علاقاته العابرة.»

قال جونزاليس: «ولكنها الفتاة الوحيدة التي كان يرغب في الزواج بها.»

سأل المحقِّق المُندهش: «وكيف عرفت ذلك؟»

ضحك ليون ضحكةً خافتة.

«من الواضح أن الفاتورة أُرسلت كي تكون بيِّنة على وجود العلاقة الزوجية. فلم يُطلقها الزوج؛ إما لأنه كان يرغب في منح زوجته فرصةً أخرى أو لأنه كان كاثوليكيًّا رومانيًّا.» ثم انحنى إلى الأمام على الطاولة وابتسم للمحقِّق وقال: «والآن أخبِرني؛ عندما توقَّفت السيارة الأجرة أمام باب مجمع ألبرت بالاس السكني، هل نزل منها سلين على الفور؟ يمكنني أن أخبرك أنه لم يفعل.»

قال المحقق مُتشككًا: «يبدو أنك كنت تُجري تحريات. لا، انتظر فيها. ولما كان السائق لبقًا وكيِّسًا، رأى أن من الأفضل أن يُبقيه داخل السيارة إلى أن صعد الأشخاص الذين كانوا في الردهة في المصعد، الذي يمكن رؤيته من الباب.»

«بالضبط. هل كانت فكرة السائق أم فكرة سلين؟»

قال ميدوز: «فكرة السائق. لقد كان سلين شِبه نائم عندما أخرجه السائق.»

«سؤالٌ آخر: عندما أخذ عامل المصعد هذا الرجل إلى الطابق الخامس، هل نزل على الفور؟»

هزَّ المفتِّش رأسه.

«لا، بل ظل بالطوابق العُلوية يتحدث إلى المُستأجرين. سمع صوت باب شقة سلين يُغلَق بقوة، وكانت تلك أول إشارة تلقَّاها بأن شخصًا ما دخل إلى الشقة.»

تقوقع ليون في كرسيه، وعلى وجهه ابتسامة ابتهاج.

قال مُخاطبًا بويكارت صاحب المزاج السيئ: «ما رأيك يا رايموند؟»

قال الآخر: «ما رأيك أنت؟»

تنقَّل ميدوز ببصره من بويكارت إلى جونزاليس.

«هل لديكما أي افتراض عن سبب خروج سلين مرةً أخرى؟»

قال الرجلان في صوتٍ واحد: «إنه لم يخرج مرةً أخرى.»

لاحظ ميدوز الابتسامة التي التمعت في عينَي جورج مانفريد.

«إنهما يُحاولان إرباكك يا ميدوز، ولكن ما يقولانه صحيح. من الواضح أنه لم يخرج مرةً أخرى.»

نهض وتمطَّى.

«سأخلد إلى النوم، وأودُّ مراهَنتك على خمسين جنيهًا بأن ليون سيعثر على القاتل غدًا، وإن كنت لن أُقسِم أنه سيُسلِّمه إلى سكوتلاند يارد.»

في الثامنة من صباح اليوم التالي، كان السائق رينولدز يُجري فحصًا نهائيًّا لسيارته وهو يدخِّن سيجارةً قبل أن يخرج بها ليبدأ يوم عمله، عندما دخل ليون جونزاليس إلى الإصطبلات.

كان رينولدز رجلًا في الأربعين من عمره يتَّسم بالهدوء وحسن المظهر. كان له صوتٌ رقيق، وكان بشوشًا رقيق الجانب.

ارتسمت على شفتيه ابتسامةُ حزن وسأل: «أنت لست محققًا آخر، أليس كذلك؟ لقد أجبت على أكبر عدد حرصت على الإجابة عنه من الأسئلة الحمقاء.»

أشار ليون برأسه إلى العربة اللامعة وسأل: «هل هذه السيارة مِلك لك؟»

السائق: «نعم، إنها ملكي. امتلاك سيارة أجرة ليس منجم ذهب كما يعتقد البعض. وإذا حدث أن تورَّطت في قضية كهذه، ينخفض عائدك منها إلى النصف.»

شرح ليون موقفه باختصارٍ شديد.

«وكالة تريانجل. أها، نعم، أنا أتذكر؛ أنتم رجال العدالة الأربعة، أليس كذلك؟ يا إلهي! لقد أوكلَتْ لكم شرطة سكوتلاند يارد القضية، أليس كذلك؟»

بادَله ليون الابتسامة وقال: «لقد تولَّيت القضية لمتعتي الخاصة. ثَمة مسألة أو اثنتان لم أتبيَّنهما، وأتساءل إن كنت لا تُمانع في أن تُخبرني بشيءٍ يبدو أن الشرطة لا تعرفه.»

تردَّد الرجل ثم قال: «تعالَ معي إلى غرفتي.» وصعد به عبر السُّلم الضيق.

كانت الغرفة مؤثثة جيدًا على نحوٍ مُثير للدهشة. لاحَظ ليون وجود قطعة أو قطعتين قديمتين، لا بد أن قيمتهما كانت مرتفعة للغاية. على طاولةٍ قابلة للطي في وسط الغرفة، كانت هناك حقيبة، وكان هناك صندوق بالقرب من الطاولة. لا بد أن السائق لاحظ أن عينَي ليون لم تتزحزحا عن الصندوق والحقيبة؛ إذ سارع يقول: «إنهما يخصَّان أحد زبائني. سآخذهما إلى المحطة.»

استطاع ليون من موضع وقوفه أن يرى أنهما موجَّهتان إلى غرفة الأمانات في تيتلي كي تُسلما من هناك. لم يعلِّق على هذا، ولكن من الواضح أن ملاحظته أربكت مُضيفه؛ إذ تغيَّرت طريقته.

«الآن يا سيد جونزاليس، أنا رجلٌ عامل؛ ولذا أخشى أنني ليس لديَّ الوقت الكافي لك. ما الذي تريد أن تعرفه؟»

قال ليون: «أريد أن أعرف على وجه الخصوص إن كان اليوم الذي أوصلت فيه السيد سلين إلى منزله كان يومًا مُزدحمًا بالنسبة إليك أم لا؟»

قال السائق: «كان يومًا مُربحًا للغاية. وقد قدَّمت للشرطة بالفعل كشفًا بالركاب الذين استقلُّوا معي السيارة، بمن فيها حالة المستشفى، ولكن أظن أنك تعرف هذا.»

«أي حالة مستشفًى؟»

تردَّد الرجل.

«لا أريدك أن تظنَّ بأنني أفتخر بفعل شيء كهذا؛ فما دفعني لذلك سوى الإنسانية. امرأةٌ صدمَتْها حافلةٌ في شارع بيكر، أخذتها وأوصلتها إلى المستشفى.»

«هل كان بها إصاباتٌ بالغة؟»

«لقد ماتت.» كانت نبرة صوته فظة.

نظر إليه ليون مفكرًا. وانصرفت عينه إلى الصندوق مرةً أخرى.

قال: «شكرًا لك. هلَّا أتيت إلى شارع كيرزون الليلة الساعة التاسعة؟ هذا عنواني.» وأخرج بطاقة من جيبه.

«لماذا؟» كان في صوته نبرة استخفاف.

قال ليون: «لأنني أريد أن أسألك عن شيءٍ أظن أنك ستسعد بالإجابة عليه.»

كانت سيارته الكبيرة تنتظر في نهاية الإصطبلات، وانطلق بها مُسرعًا باتجاه المستشفى في شارع وولر. لم يعرف هناك أكثر مما توقَّع، فعاد إلى شارع كيرزون وقد خيَّم عليه الصمت التام، ولم يبُح بأي شيء.

في الساعة التاسعة من تلك الليلة جاء رينولدز، وبقي مع ليون جونزاليس بمفردهما في الغرفة الصغيرة الكائنة في الطابق السفلي لنحو ساعة. لحسن الحظ أن ميدوز لم يرَ ضرورةً للحضور؛ فلم يأتِ إلا بعد أسبوع، وبحوزته معلومة لم تُفاجئ أحدًا سواه.

«حدث شيءٌ غريب؛ السائق الذي أوصل سلين إلى شقته اختفى؛ لقد باع عربته وغادَر. لا توجد علاقةٌ تربطه بجريمة القتل، وإلا كنت أصدرت أمر ضبط له. لقد كان صريحًا منذ البداية.»

اتفق مانفريد مُتأدبًا مع هذا الرأي. حملق بويكارت في بلاهة. أما ليون جونزاليس، فتثاءب وبدا أنه سئم هذه الألغاز كلها.

لما تنازل جونزاليس وقص الحكاية كاملةً، قال: «من الغريب أن الشرطة لم تهتمَّ مطلقًا بالبحث في حياة سلين في تيتلي. لقد كان لديه منزلٌ كبير هناك لبضع سنوات. لو كانوا حقَّقوا في الأمر، فلا بد أنهم كانوا سيسمعون قصة الطبيب الشاب جرين وزوجته الجميلة التي هربت منه. اختفت هي وسلين معًا، وبالطبع كان واقعًا في غرامها بشدة ومُستعدًّا للزواج منها، ولكن في ذلك الوقت كان سلين من النوع الذي يُغرَم بالأشخاص لمدة ثلاثة أشهر تقريبًا، وما لم تتم مراسم الزواج على الفور تتضاءل فرصة الفتاة البائسة في أن تصبح زوجةً له.

عرض الطبيب على زوجته أن تعود له، ولكنها أَبَتْ واختفَتْ من حياته. اعتزل الطب وجاء إلى لندن، واستثمر مدَّخَراتِه في جراجٍ صغير، وبات مُفلسًا كما يحدث لكل أصحاب الجراجات إذا لم يكونوا مدعومين برأس مال جيد، ولما اضطرَّ إلى أن يقرِّر ما إذا كان سيعود إلى مهنة الطب أم لا، ويُلملم كل ما فقده في السنوات التي كان يحاول فيها نسيان زوجته، اختار المهنة الأقل إرهاقًا له وهي مهنة السائق. أعرف رجلًا آخر فعل الشيء ذاته، سأخبركم عنه في أحد الأيام.

لم يرَ زوجته قط مجددًا على الرغم من أنه كثيرًا ما رأى سلين. قام رينولدز، أو جرين كما سأُسميه، بحلق شاربه، وغيَّر مظهره بوجهٍ عام، ولم يتعرف عليه سلين مطلقًا. بات جرين مشغولًا بتتبُّع غريمه ومعرفة تحركاته وعاداته. العادة الوحيدة التي اكتشفها والتي تبيَّن أنها ذاتها سبب دماره هي تناول العشاء في نادي ريل كلوب في مركز بول التجاري مساءَ كل أربعاء، ومغادرة النادي في الحادية عشرة والنصف في تلك المناسبات.

لم يستفد من هذا الاكتشاف ولم يتوقع أنه سيستفيد منه، حتى ليلة الجريمة. كان يقود سيارته في المنطقة الشمالية الغربية، ورأى امرأةً صدمتها حافلة، وكاد هو نفسه أن يدهس جسدها المُلقى على الأرض. لما أوقف سيارته قفز منها، وأصابه الرعب حين رفعها، ووجد نفسه يُحملق في وجه زوجته الضامر. أدخلها إلى السيارة وسار بأقصى سرعة إلى أقرب مستشفًى. وبينما كانا في غرفة الانتظار قبل وصول الجرَّاح، أخبرته السيدة المحتضرة ببضع كلمات مُتقطعة ومُضطربة كمن يهذي؛ قصة الانحدار الذي آلت إليه، وماتت قبل نقلها إلى غرفة العمليات، وكان في ذلك رحمة لها كما تبيَّن.

عرفت كل هذا قبل أن أذهب إلى المستشفى، واكتشفت أن شخصًا مجهولًا قرَّر دفنها في تيتلي، وأجرى ترتيباتٍ فخمةً للغاية لنقلها ودفنها. خمَّنت هذا قبل أن أرى حقيبة جرين مجهَّزة لتلك المأساة. غادَر المستشفى والجنون يضربه والكراهية تملأ صدره. كان

المطر غزيرًا. تحسَّس طريقه ببطء إلى مركز بول التجاري، وحالَفه الحظ؛ إذ في اللحظة التي خرج فيها البواب ليجد سيارة أجرة شاغرة، كان جرين مُتوقفًا أمام الباب.

بحجة انفجار الإطار توقَّف في مركز التسوق، وفتح إحدى البوابتين المؤديتين إلى المتنزه عنوةً، وانتظر حتى لم يعُد هناك مُشاة على مرمى البصر، ثم سحب الرجل نصف المخمور إلى الحدائق. كان الرجل يقظًا بما يكفي قبل أن يُنهي جرين قصته. يُقسِم جرين أنه أعطاه فرصة عمره، ولكن سلين صوَّب مسدسًا نحوه؛ ومن ثَم اضطرَّ جرين إلى قتله دفاعًا عن نفسه. قد يكون هذا حقيقيًّا أو لا.

لم يفقد أعصابه قط. وعندما وصل إلى سيارته من دون أن يلحظه أحد، اتَّجه بالسيارة إلى مجمع ألبرت بالاس، وانتظر حتى ارتفع المصعد ثم صعد مُسرعًا عبر السُّلم. كان قد أخذ مفاتيح سلين، وفي الطريق اختار المفتاح الذي عرف أنه سيفتح الباب. كان أول ما انتوى هو البحث في الشقة عن كل شيء يُفشي علاقة الرجل بزوجته، ولكنه سمع البواب بالأعلى يُلقي تحية المساء، وبعد أن أغلق الباب بقوةٍ هُرع إلى أسفل بحيث كان هناك عندما وصل الرجل إلى الطابق الأرضي.»

قال مانفريد بنبرةٍ جادَّة: «لن نُخبر الشرطة بهذه الأحداث، أليس كذلك؟»

انطلق بويكارت الذي كان على الطرف الآخر من الطاولة يُقهقه بصوتٍ عالٍ.

قال: «إنها قصةٌ جميلة للغاية، لدرجة أن الشرطة لن تُصدِّقها مطلقًا.»

الفصل السادس

# الشيك ذو العلامات

لا يوجد سجل بسابق نشرها تحت هذا العنوان.

* * *

كان الرجل الذي حضر إلى المنزل الصغير في شارع كيرزون غاضبًا ومُتلهفًا لقول شيء من شأنه أن يؤذي مخدومه الراحل.

كان للرجل أيضًا شكوى شخصية ضد السيد جينس، كبير الخدم.

قال: «وظَّفني السيد ستورن خادمًا ثانيًا لديه، وبدت الوظيفة جيدة، ولكني لم أتكيَّف مع باقي العاملين، ولكن هل كان من العدل أن أُطرَد من دون سابق إنذار لمجرد أنني تفوَّهت بكلمة باللغة العربية؟»

سأل ليون جونزاليس مُتفاجئًا: «باللغة العربية؟ هل تتحدث العربية؟»

ابتسم تانلي الخادم المفصول.

«حوالَي عشر كلمات؛ كنت في الجيش في مصر بعد الحرب، والتقطت بضع عبارات. كنت ألِّع الفضة في الردهة، وتصادف أن قلت «هذا جيد» بالعربية، وسمعت صوت السيد ستورن خلفي.

وجدته يقول: «أنت مطرود.» وقبل أن أعرف ما الذي حدث، وجدت نفسي خارج المنزل ومعي راتب شهر.»

أومأ جونزاليس.

قال: «أمرٌ مُثير للاهتمام للغاية، ولكن لماذا أتيت إلينا؟»

كان قد طرح السؤال ذاته مراتٍ عديدةً على أشخاصٍ تافهين جاءوا إلى مقر وكالة سيلفر تريانجل، بشكاواهم التافهة.

قال الرجل بغموض: «لأن ثَمة لغزًا في المسألة.» ربما كان قد هدأ الآن قليلًا، وكان ينتابه شعور بعدم الارتياح وقتئذٍ. «لماذا طردني بسبب تفوُّهي بكلمةٍ عربية؟ وما معنى الصورة التي في غرفة ستورن الخاصة؛ صورة الرجال المعلَّقين على المشنقة؟»

اعتدل ليون في جلسته. «رجال معلقون على المشنقة؟ ما هذا؟»

«إنها صورةٌ فوتوغرافية. لا يمكنك إخراجها؛ لأنها موضوعة داخل الإطار، ويجب أن تفتح أحد جوانب الإطار، ولكني دخلت في أحد الأيام وكان قد ترك لوح البرواز مُواربًا. ثلاثة رجال معلقين على مشنقة من نوعٍ ما، ومن حولهم أتراكٌ كُثُر ينظرون إليهم. شيءٌ غريب أن يمتلك رجلٌ مثل هذه اللوحة في بيته.»

التزم ليون الصمت لوهلة.

«هذه ليست جريمة على حد علمي، ولكنه أمرٌ غريب بالتأكيد. هل هناك ما يمكنني فعله لك؟»

لم يكن يوجد شيء على ما يبدو، وغادر الرجل وهو خجلٌ بعض الشيء، ونقل ليون الأخبار لشريكه. وتذكَّر فيما بعدُ أنه لم يسمع شيئًا عن شكوى الرجل ضد كبير الخدم.

«الشيء الوحيد الذي عرفته عن ستورن هو أنه بخيل بدرجةٍ غير عادية، وأنه يُدير منزله في بارك لين بأقل عدد ممكن من الخدم، ويدفع لهم أقل رواتب ممكنة. إنه من أصلٍ أرميني، وجمع ثروته من حقول البترول التي استولى عليها بطُرقٍ مشبوهة إلى حدٍّ كبير.

أما بالنسبة إلى الثلاثة المعلقين على المشنقة، فهذا أمرٌ مروِّع، ولكن قد يكون به ما هو أسوأ. لقد رأيت صورًا فوتوغرافية في منزل الثري الكسول تجعل شعر رأسك يقف من الرعب يا عزيزي بويكارت. على أي حال، فالاهتمام المرَضي لدى المليونير بإعدام رجل تركي ليس شيئًا استثنائيًّا.»

قال مانفريد: «لو كنت أرمينيًّا لباتت هذه هوايتي الرئيسة، ولكان لديَّ مَعرِضٌ كامل لتلك الصور!»

وإلى هنا انتهت قصة المليونير المهووس الذي يعيش عيشة تقتير ويبخس خدمه أجورهم.

في بداية أبريل، قرأ ليون في الجريدة أن السيد ستورن غادَر إلى مصر لقضاء عطلة قصيرة.

في كل مناسبة، كان فرديناند ستورن صديقًا مرغوبًا فيه؛ فقد كان رجلًا فاحش الثراء، وكان ذا جاذبية على المستوى الشخصي بأنفه الطويل الداكن، كما كان يستطيع

التحدث في الفن والشئون المالية ببراعةٍ مُتساوية لأولئك الذين كانوا يُقابلونه ويرونه عن قرب، وكان هؤلاء قلة. وبحسب ما كان معروفًا لم يكن له خصوم. كان يعيش في بيرسون هاوس، ببارك لين، وهو مَسكنٌ صغيرٌ جميل اشتراه من المالك، لورد بيرسون، مقابل ١٥٠٠٠٠ جنيه إسترليني. كان يقضي معظم وقته إما هناك وإما في فيلفري بارك، منزله الريفي الجميل الكائن في ساسيكس. كان مقر اتحاد شركات النفط الفارسي والشرقي — الذي كان يرأسه — في مبنًى رائع في شارع مورجيت، واعتاد أن يُوجَد فيه من الساعة العاشرة صباحًا إلى الساعة الثالثة بعد الظهر.

على الرغم من وجود مجلس إدارة للاتحاد كان يُدار على نحوٍ أحادي، وكان يُدير أعمال المصرفيين، من بين أشياء أخرى. استحوذ ستورن على غالبية الأسهم، وكان من المفترض — كما شاع — أنها تدرُّ عليه دخلًا يبلغ حوالَي ربع مليون في السنة. حظي بقليل من الأصدقاء الشخصيين ولم يسبق له الزواج.

بعدما اطَّلع ليون على هذه الأخبار بشهر، توقَّفت سيارةٌ كبيرة عند باب وكالة تريانجل، ونزل منها رجلٌ قوي البنية، وتبدو عليه مظاهر الثراء، ودق الجرس. لم يكن معروفًا لليون، الذي تحاوَر معه، وبدا مُترددًا في الكشف عن عمله؛ لأنه كان يُراوغ في الحديث ويطرح أسئلة، حتى سأله ليون، بعدما نفد صبره، سؤالًا مباشرًا عن هُويته وهدفه من الزيارة.

قال الرجل القوي البنية: «سأخبرك يا سيد جونزاليس. أنا المدير العام لاتحاد النفط الفارسي.»

سأل ليون وقد أُثيرَ اهتمامه: «شركة ستورن؟»

«شركة ستورن. أظن أنني يجب أن أذهب بشكوكي إلى الشرطة، ولكنَّ لي صديقًا يؤمن كثيرًا بقدراتك وبمن يُسميهم رجال العدالة الثلاثة؛ ما دفعني للاعتقاد بأن من الأفضل أن ألتقيك أولًا.»

ليون: «هل الأمر متعلِّق بالسيد ستورن؟»

أومأ السيد، الذي تبيَّن أنه السيد هوبرت جري، المدير العام للاتحاد.

«كما ترى يا سيد جونزاليس، فأنا في منصبٍ مرموق. السيد ستورن رجلٌ صعب للغاية، وسأفقد وظيفتي إذا تسبَّبت في وضعه في موقفٍ سخيف.»

سأله ليون: «إنه بالخارج، أليس كذلك؟»

وافَقه الآخر في رصانة وجدية: «نعم، إنه خارج البلاد. في الحقيقة، لقد غادَر البلاد على نحوٍ غير متوقَّع تمامًا؛ بمعنى أن الشركة لم تتوقَّع سفره هذا. في واقع الأمر، لقد

كان سيعقد اجتماعًا مهمًّا مع مجلس الإدارة في اليوم الذي سافر فيه، ولكني تلقَّيت خطابًا منه في الصباح يقول فيه إنه اضطرَّ إلى الذهاب إلى مصر في مسألةٍ تمسُّ شرفه الشخصي. طلب مني ألَّا أتواصل معه، أو حتى أعلن مغادرته لندن. ولكن لسوء الحظ أن أحد المساعدين لديَّ، بحماقةٍ شديدة، أخبر صحفيًّا حضر في ذلك اليوم بأن السيد ستورن قد غادَر.

بعد أسبوع من مغادرته، أرسل لنا خطابًا من فندق في روما مُرفَقًا به شيك بقيمة ثلاثة وثمانين ألف جنيه، ووجَّه بسداد هذا الشيك بمجرد حضور رجل ما، والذي جاء بالفعل في اليوم التالي.»

سأل ليون: «رجلٌ إنجليزي؟»

هزَّ السيد جري رأسه. «لا، كان أجنبيًّا؛ كان رجلًا ذا بشرةٍ سمراء. وقد دُفع المال له.

بعد بضعة أيام، تلقَّينا خطابًا آخر من السيد ستورن مرسَلًا من فندق دي روسي، في روما. أخبرنا في هذا الخطاب أن شيكًا آخر أُرسلَ إلى السيد كرامان وينبغي سداده. كانت قيمة هذا الشيك مائة وسبعة آلاف جنيه وبضعة شلنات. وأعطانا تعليمات بشأن كيفية دفع المبلغ، وطلب منا إرسال برقية له على فندق في الإسكندرية لحظةَ صرف الشيك. وهذا ما فعلته. في اليوم التالي مباشرة، ورد خطابٌ آخر مرسَل من فندق ميديترانيو في نابولي — سأُطلِعك على نُسخٍ من كل هذه الخطابات — يُخبرنا فيه بصرف شيك ثالث من دون تأخير، ولكن لرجلٍ مختلف يُدعى السيد ريزيو، والذي من المقرَّر أن يأتي إلى المكتب. كان هذا الشيك بمبلغ مائة واثنَي عشر ألف جنيه، وهو ما استنفد الرصيد النقدي للسيد ستورن تقريبًا، على الرغم من امتلاكه أرصدةً ضخمة في البنك بالطبع. يمكنني القول إن السيد ستورن رجلٌ غريب الأطوار في مسألة الودائع الاحتياطية الضخمة؛ فهو لا يجمد سوى قدر قليل من أمواله في صورة أسهم. انظر هنا.» وأخرج محفظة جيب من جيبه وأخرج منها شيكًا: «لقد دُفعت هذه الأموال، ولكني أحضرت الشيك كي تطَّلع عليه.»

أخذه ليون في يده. كان مكتوبًا بخطٍّ مميز، وتفحَّص التوقيع.

«ألا يوجد أي شك في أن يكون هذا الشيك مزوَّرًا؟»

قال جري مؤكدًا: «لا يوجد أدنى شك. والخطاب أيضًا مكتوب بخط يده، ولكن ما يحيِّرني في أمر الشيك هو العلامات الغريبة التي على ظهره.»

لم يتمكن ليون من التعرف على تلك العلامات حتى أخذ الشيك إلى النافذة، وحينئذٍ رأى صفًّا من علاماتٍ باهتة بقلم رصاص بطول الجزء السفلي من الشيك.

سأل ليون: «أعتقد أنه لا يمكنني الاحتفاظ بهذا الشيك لمدة يوم أو يومين، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد، كما ترى، صار التوقيع مُلغًى وتم صرف المبلغ.»

تفحَّص ليون الشيك مرةً أخرى. حُرِّر الشيك على بنك النفط العثماني، الذي كان فيما يبدو منشأةً خاصةً مملوكة لشركة ستورن.

سأل: «ما الذي حدث في اعتقادك؟»

«لا أعرف، ولكني قلِق.»

تبيَّن كم هذا القلق في تقطيبة وجه جري المُضطربة.

«لا أعرف سببًا لهذا القلق، ولكنَّ بداخلي شعورًا غير مُريح بأن ثَمة احتيالًا في الأمر.»

«هل أرسلت برقية إلى الإسكندرية؟»

ابتسم السيد جري: «بالطبع، وتلقَّيت ردًّا. خطر لي أنه ربما كان لك وكلاء في مصر، وهو ما قد يسهِّل عليك اكتشاف ما إذا كانت هناك أي مشكلة. أهمُّ ما في الأمر أنني لا أرغب في أن يعرف السيد ستورن أنني كنت أُجري تحريات بخصوص هذه المسألة. سأتكفَّل بأي تكاليف معقولة تتكبَّدها، وأنا متأكد تمامًا من أن السيد ستورن سيُقرُّ بأنني قد فعلت الصواب.»

بعد مغادرة الضيف تحاوَر ليون مع مانفريد.

قال جورج بصوتٍ منخفض: «بالطبع قد تكون قضية ابتزاز، ولكن سيكون عليك البدء من بدايات شركة ستورن إذا كنت تريد حل أي لغز في هذه القضية.»

قال جونزاليس: «أعتقد ذلك.» وخرج من المنزل بعد بضع دقائق.

لم يعُد حتى منتصف الليل، وعاد بكمٍّ هائل من المعلومات عن السيد ستورن.

«منذ ما يقرب من اثنتَي عشرة سنة، كان موظفًا في شركة «توركو تليجراف». إنه يتحدث ثماني لغات شرقية، وكان ذائع الصيت في إسطنبول. هل تُخبرك هذه المعلومات بشيء يا جورج؟»

هزَّ مانفريد رأسه.

«لا تُخبرني بأي شيء حتى الآن، ولكني أنتظر الإثارة.»

«لقد امتزج مع الحشد الثوري — الأتباع الذين أمسكوا بزمام الأمور في عهد السلطان عبد الحميد — ولا شك في أنه حصل على امتيازه من خلال هؤلاء الأشخاص.»

سأل مانفريد: «أي امتياز؟»

«قِطعٌ كبيرة من الأراضي النفطية. عندما تولَّت الحكومة الجديدة السلطة صِيغت عقود الامتياز، على الرغم من أنني أشكُّ في أن صديقنا قد دفع مبالغ باهظة للحصول على هذا الامتياز، ولكن شركاءه الخمسة كانوا أقل حظًّا. اتُّهم ثلاثة منهم بخيانة الحكومة، وحُكِم عليهم بالإعدام شنقًا.»

أومأ مانفريد: «الصورة الفوتوغرافية. ما الذي حدث مع الاثنين الآخرين؟»

«كان الاثنان الآخران إيطاليين، وحُكِم عليهما بالسجن مدى الحياة في آسيا الصغرى. عندما جاء ستورن إلى لندن، جاء بصفته المالك الوحيد للامتياز، الذي طرح أسهمه للاكتتاب محقِّقًا من وراء ذلك أرباحًا بقيمة ثلاثة ملايين جنيه إسترليني.»

غادر ليون المنزل في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، وفي الساعة العاشرة كان يدقُّ جرس الباب لمنزل بيرسون.

نظر إليه كبير الخدم ذو اللُّغد الغليظ بارتياب، إلا أنه أظهر له الاحترام.

«السيد ستورن بالخارج، ولن يعود قبل بضعة أسابيع يا سيدي.»

سأل ليون بأسلوبه الدمث: «هل يمكنني مقابلة سكرتيرة السيد ستورن؟»

«السيد ستورن لا يعيِّن أي سكرتيرة له في منزله؛ ستجد السيدة الشابَّة في مقر اتحاد النفط الفارسي.»

أدخل ليون يده في جيبه وأخرج بطاقة.

قال: «أنا واحد من سكان بيرسون، وفي الحقيقة وُلِد والدي هنا. عندما كنت في لندن منذ بضعة أشهر سألت السيد ستورن إن كان يسمح لي بتفقُّد المنزل.»

تضمَّنت البطاقة سطرًا مكتوبًا من دون عناية، وموقَّعًا باسم «فرديناند ستورن»، ويُعطي الإذن لحاملها بأن يرى المنزل في أي ساعة «عندما أكون خارج المدينة». لقد استغرق منه الأمر أكثر من نصف ساعة كي يزوِّر هذا التصريح.

قال كبير الخدم وهو يمنعه من الدخول: «لا يمكنني السماح لك بالدخول يا سيدي. أخبرني السيد ستورن ألا أسمح للغُرباء بالدخول.»

سأل ليون فجأةً: «في أي يوم نحن؟»

قال الرجل: «الخميس يا سيدي.»

أومأ ليون وقال: «اليوم العالمي للجبن.»

ارتبك الرجل لجزء من الثانية.

قال بنبرةٍ خشنة: «لا أعرف ما الذي تقصده يا سيدي.» وأغلق الباب في وجه الزائر.

طاف جونزاليس حول المنزل. كان قائمًا مع منزلٍ آخر على جزيرة.

عندما انتهى، ذهب إلى المنزل وهو مُبتهج ومُتحمس، وأعطى التعليمات لرايموند بويكارت الذي — من بين مؤهِّلاته الأخرى — كان لديه دائرةٌ واسعة من الأصدقاء المُجرمين. لم يكن يوجد عصابةٌ كبيرة في لندن إلا ويعرفها. كان على دراية بالحانة العامة في لندن حيث مُلتقى المُحتالين وسارقي الخزائن، كان يمكنه في أي لحظة التعرفُ على ما يدور في السجون، وربما كان أعلم بالأخبار السرية لعالم الجريمة من أي رجل في سكوتلاند يارد. أرسله ليون في مهمةٍ لجمع الأخبار، وفي حانةٍ عامةٍ صغيرة بعد مَمْشى لامبيث، عِلم بويكارت بفاعل الخير المجهول الذي وجد وظيفة لثلاثة على الأقل من أصحاب السوابق.

كان ليون جالسًا بمفرده عندما عاد؛ إذ عكف على فحص العلامات الغريبة على ظهر الشيك باستخدام عدسة مكبِّرة قوية.

قبل أن يُدلي بويكارت بالأخبار التي لديه، مد ليون يده إلى دليل الهاتف.

لما توقَّف إصبعه عند إحدى الصفحات قال: «بالطبع ترك جري مكتبه، ولكن هذا عنوانه الخاص ما لم أكن مُخطئًا.» رد خادم على مكالمته. أجابه بأن السيد جري موجودٌ في المنزل. وبعد قليل، جاءه صوت المُدير العام.

«سيد جري، من الذي يصرف الشيكات التي تلقَّيتها من ستورن؟ أقصد من المسئول؟»

جاء الرد: «المُحاسِب.»

«أأنت من عيَّن المحاسب في وظيفته تلك؟»

توقَّف لبرهة.

«لا، السيد ستورن. كان يعمل في شركة إيسترن تليجراف، وقابله السيد ستورن بالخارج.»

سأل ليون بلهفة: «وأين يمكنني العثور على المحاسب؟»

«إنه في إجازته. غادَر قبل وصول الشيك الأخير، ولكن يمكنني الوصول إليه.»

ضحك ليون ضحكةً نابعة من بهجةٍ غامرة.

قال: «لا تشغل بالك. لقد علمت أنه ليس موجودًا في المكتب.» ثم أنهى المكالمة مع المُدير المُندهش.

«الآن، ماذا وجدت يا عزيزي بويكارت؟»

ظل مُنصتًا حتى انتهى صديقه، ثم قال: «لنذهب إلى بارك لين، وأحضِرْ مسدسًا معك. سنمرُّ بمقر سكوتلاند يارد في طريقنا.»

كانت الساعة العاشرة عندما فتح كبير الخدم الباب. وقبل أن يسأل عن شيء، أمسك محققٌ ضخم الجثة بتلابيبه وسحبه إلى الشارع.

اندفع الضباط الأربعة الذين رافقوا ليون في ملابس مدنية إلى الصالة. أُلقيَ القبض على خادمٍ ذي وجه عابس قبل أن يُطلِق أي صيحة إنذار. على سطح المنزل، في شقةٍ صغيرة بلا نوافذ كانت تُستخدم مخزنًا فيما مضى، وجدوا رجلًا هزيلًا ناحلًا، لدرجة أن مُديره العام، حين استُدعي على عجل إلى مسرح الأحداث، لم يستطع التعرف عليه بوصفه المليونير. لم يُبدِ الرجلان الإيطاليان اللذان كانا مكلَّفين بحراسته، وكانا يُراقبانه عبر ثقب في جدار غرفة مُجاورة، أي مقاوَمة.

كان أحدهما صريحًا جدًّا، وهو من زرع منزل بيرسون بالخدم من أصحاب السوابق بعناية وحرص.

قال: «هذا الرجل خاننا، وكان لا بد أن نعدمه شنقًا مثل حاتم أفندي والشيري وماروبولوس اليوناني، وما فعلنا شيئًا سوى أن رشَينا الشهود. كنا شركاء في حقول النفط، وكي يسرقنا لفَّق أدلةً بأننا كنا نتآمر ضد الحكومة. هربت أنا وصديقي من السجن وعُدنا إلى لندن. وقرَّرت أنه لا بد أن يدفع لنا الأموال التي يدين بها لنا، وأدركت أننا لن نتمكن من الحصول عليها برفع قضية أمام المحكمة.»

لما جلس ليون على مائدة العشاء في تلك الليلة، أوضح قائلًا: «كانت مسألةً غاية في البساطة، وأنا خجِلٌ من نفسي حقًّا لأنني لم أفهم تلك العلامات على ظهر الشيك من النظرة الأولى. صديقنا الإيطالي كان واحدًا من المجموعة التي حصلت على الامتياز. عاش سنوات في لندن وربما سيثبت أن له شُركاء في الجريمة. على أي حال، لم يُواجه صعوبة في جمع مجموعة من الخدم في المنزل، ويتصرف بناءً على معرفته بشخصية ستورن. عرض كل هؤلاء الرجال أن يعملوا لدى ستورن مقابل مبالغ يترفَّع الخادم العادي أن يقبل بها. استغرق الأمر ما يقرب من عامٍ كي يمتلئ منزل صاحبنا بأصحاب السوابق هؤلاء. تتذكر أن الخادم الذي جاءنا منذ بضعة أشهر قال إن ستورن نفسه هو من وظَّفه، وليس كبير الخدم. كانوا سينتهزون أول فرصة للتخلص منه. لم يفعل الرجل شيئًا سوى أن استخدم لفظًا عربيًّا من دون قصد، ولكن طرده ستورن شرَّ طِرْدة؛ إذ كان يتشكك في وجود جواسيس، وربما كان يتوقَّع عودة الرجال الذين خانهم.

في اليوم الذي كان من المفترض أن يُغادر فيه ستورن إلى مصر، أمسك به الإيطاليان وحبساه في غرفة، وأجبراه على كتابة تلك الخطابات والتوقيع على تلك الشيكات حسبما أملياه، ولكن في نهاية ذلك اليوم تذكَّر أن المُحاسب كان يعمل في شركة تلغراف؛ ومن ثَم كتب على ظهر الشيك رسالةً بشفرة مورس، بواسطة علامات بالقلم الرصاص، مُستخدمًا الرموز القديمة التي كانت تُستخدم وقت شيوع استخدام الآلة الكاتبة.»

أخرج من جيبه الشيك ووضعه على المائدة، ومرَّر إصبعه بطول علامات القلم الرصاص مُشيرًا إلى شفرة:

SOSPRSNRPRKLN.

«إنها تعني «سجين في بارك لين». كان المُحاسب في إجازته؛ ومن ثَم لم يقرأ الرسالة.»

أخذ مانفريد الشيك وقلَّبه وتفحَّصه.

سأل مُتهكمًا: «كم أتعابك التي سيُرسلها لك هذا المليونير؟»

لم تأتِ الإجابة حتى مرَّت بضعة أيام بعد المحاكَمة في أولد بايلي. وجاءت في هيئة شيك بقيمة خمسة جنيهات إنجليزية.

همهم ليون بإعجاب: «خداع حتى النهاية!»

الفصل السابع

# ابنة السيد ليفينجرو

لا يوجد سجل بسابق نشرها تحت هذا العنوان أعيدت الطباعة في «كتاب إدجار والاس عن شرطة سكوتلاند يارد»، ١٩٣٢.

* * *

أخرج السيد ليفينجرو سيجاره الطويل من فمه وهزَّ رأسه أسفًا. كان رجلًا بدينًا غليظ العنق ومُكتنز الخدَّين، وما كان ليترك سيجارًا جيدًا قبل أن يُنهيه.

«يا للفظاعة! يا للوحشية! يا للهول! هذا يجعلني أسعى إلى ... مسكينة جوزيه!» نخر رفيقه مُتعاطفًا.

سقط جوزيه سيلفا. أخبر قاضٍ صارمٌ جوزيه في وقتٍ سابق أن هناك جرائم معيَّنة يعتبرها القانون جرائم شنيعة. على سبيل المثال، كانت النساء يحظين بتقديرٍ خاص، واستغلال الحماقات التي يرتكبنها اعتُبر أمرًا بغيضًا، بحيث أن لا شيء يحمي انتهاك قداسة القانون سوى الحبس لمدةٍ طويلة.

وقد ارتكب جوزيه إساءات لا تُغتفر. كان يُدير وكالة فنَّاني أمريكا اللاتينية لمنح الطامحات من الشابَّات الجميلات للصعود على خشبة المسرح تعاقداتٍ سريعةً ومُربحة لأعمالٍ فنية على مسارح أمريكا الجنوبية. كنَّ يذهبن والسعادة تغمرهن ولا يعُدْن أبدًا. كانت الخطابات تتواتر منهن إلى ذويهن بصياغةٍ جيدة وخالية من الأخطاء الإملائية، وكنَّ سعيدات على حد قولهنَّ. كتَبْن جميعًا الخطابات بلغةٍ مُتطابقة تقريبًا. قد تتخيَّل أن الخطابات قد أُمليت عليهن، وهو ما حدث بالفعل.

لكن شرطة الآداب تعقَّبت جوزيه؛ فقد تقدَّمت فتاةٌ جميلة لوظيفة، وذهبت إلى بوينس آيرس برفقة والدها وأخيها — وكان كلاهما من رجال سكوتلاند يارد — ولما عرفوا كل ما كان عليهم معرفته، عادوا مع الفتاة — وكانت محققةً داهية — وأُلقيَ القبض على جوزيه، ثم عِلموا المزيد عنه، وما كان هناك مناص من الحكم بالسجن.

لم يعتقل أحدٌ جولز ليفينجرو، ويأخذه من منزله الصغير الجميل الأنيق الكائن في نايتسبريدج ويرسله إلى سجنٍ باردٍ كئيب. ولم يعتقل أحدٌ شريكه هينرتش لوس. لقد أعطَوا أموالًا لجوزيه والكثيرين من أشباهه، ولكنهم كانوا على درجةٍ عالية من الذكاء.

تنهَّد جولز وهو يدخِّن سيجاره قائلًا: «كان جوزيه مُستهترًا.»

تنهَّد هينرتش هو الآخر. كان بدينًا مثل صاحبه، ولكنه بدا أكثر بدانةً بسبب قِصر قامته.

تجوَّل جولز بناظرَيه في أرجاء الصالون الجميل ذي الديكورات التي مزجت ما بين الذهبي والكريمي، وتوقَّفت عيناه بعد برهة عن طوافهما وتركَّزتا على صورةٍ فوتوغرافية ذات إطار كانت معلَّقةً فوق رف الموقد. ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ ظهرت معها تجاعيد وجهه الكبير وهو ينهض ناخرًا، وسار مُتبختِرًا إلى المدفأة وأخذ الصورة بين يديه. كانت الصورة لفتاةٍ فاتنة الجمال.

«هل ترى؟»

أخذ هينرتش الصورة وتمتم بعبارات ثناء رائعة.

قال: «الصورة ليست جيدة بما يكفي لتُوفِّيها حقها.»

اتفق معه السيد ليفينجرو. إنه لم يرَ بعدُ صورةً لفتاةٍ يُعادل جمالها جمال ابنته الوحيدة. كان الرجل أرمل؛ ماتت زوجته حينما كانت فاليري طفلةً رضيعة. ما كانت لتعرف كم من القلوب تحطَّمت، وكم من أرواحٍ دُمِّرت في سبيل أن تنشأ في الرفاهية التي تُحيط بها. لم يكن هذا الجانب من نشأتها يخطر ببال السيد ليفينجرو. لقد كان يتباهى بتجرده من العواطف.

كان شريكًا في ملكية ثلاثة وعشرين مَلهًى وقاعة رقص منتشرة في أرجاء الأرجنتين والبرازيل، وحقَّق أرباحًا طائلةً من هذا العمل الذي اعتبره عملًا مشروعًا تمامًا.

وضع الصورة ثم عاد إلى الكرسي العميق ذي الذراعين.

«يا له من أمرٍ مؤسف ما حدث لجوزيه! ولكن هؤلاء الرجال يأتون ويذهبون. وهذا الرجل قد يكون جيدًا، وقد لا يكون.»

سأل هينرتش: «ما اسمه؟»

بحث جولز في جيوبه مُتلهفًا فوجد رسالة، وفتحها وأصابعه المُكتنزة باللحم تتلألأ في ضوء الثريا الكريستالية؛ إذ كان عاشقًا للخواتم.

«ليون جونزاليس، يا إلهي!»

كان هينرتش يجلس مُنتصبًا في كرسيه وقد هرب الدم من وجهه، وصار كورقةٍ بيضاء.

«اسم غليون! ماذا بك يا هينرتش؟»

ردَّد الآخر الاسم بصوتٍ أجش: «ليون جونزاليس! تظنُّ أنه مُتقدم للحصول على وظيفة، ألا تعرفه؟»

هزَّ جولز رأسه الكبير.

«وما شأني أن أعرف من هو. إنه إسباني، وهذا جيد بما يكفي بالنسبة إليَّ. هكذا تجري الأمور دائمًا يا هينرتش. ما يكاد رجلٌ من رجالنا يرتكب حماقة ويُلقى القبض عليه حتى يظهر آخر. غدًا سيكون لديَّ عشرون، ثلاثون، خمسون مُتقدمًا، ليس لي، ولكن من خلال القناة المُعتادة.»

كان هينرتش ينظر إليه غائر العين، وفي غمرة انفعاله تحدَّث باللغة الألمانية؛ ذلك النوع من الألمانية التي كثيرًا ما تُسمع في بولندا.

«أرِني الخطاب.» أمسك الخطاب وقرأه بتمعُّن.

«إنه يطلب تحديد موعد، هذا كل ما في الخطاب.»

«هل سمعت من قبلُ عن رجال العدالة الأربعة؟»

قطَّب جولز جبينه.

«لقد ماتوا، أليس كذلك؟ قرأت شيئًا من هذا القبيل منذ سنوات.»

قال الآخر مُتجهمًا: «إنهم على قيد الحياة، وحصلوا على عفوٍ من الحكومة الإنجليزية. لديهم مكتب في شارع كيرزون.»

في عجالة، سرد تاريخ هذا التنظيم الغريب الذي ظل لسنواتٍ يبثُّ الرعب في نفوس الأشرار الذين استطاعوا بدهائهم الفطري التحايل على إجراءات العدالة القانونية، وفي أثناء حديثه تجهَّم وجه جولز ليفينجرو.

وأخيرًا قال مُتلعثمًا: «ولكن هذا ... هذا غير معقول! كيف عرف هؤلاء الرجال عني وعنك ... إضافة إلى ذلك، إنهم لا يجرءون على فعل شيء لنا.»

قبل أن يردَّ هينرتش، جاء طَرقٌ خفيف على الباب ودخل الخادم. كانت هناك بطاقة على صينيةٍ يحملها في يده. أخذها جولز، وعدَّل نظارته وقرأها، وتفكَّر لبرهة ثم قال: «أدخِلْه.»

قال هينرتش شِبهَ هامس عندما أُغلقَ الباب خلف الخادم: «ليون جونزاليس. هل ترى المثلث الفضي الصغير في طرف البطاقة؟ هذا المثلث موجود على باب منزلهم. إنه هو!»

قال رفيقه ساخرًا: «تعسًا! لقد أتى ... تُرى، لماذا أتى؟ ليعرض خدماته. سترى!»

اندفع ليون جونزاليس إلى الغرفة بشعره الرمادي وأناقته، وقد بدا التوتر على وجهه الحاد الذي بدت عليه مظاهر الزهد، وكانت عيناه متَّقِدتين. كان ليون مُبتسمًا دائمًا، فكان يبتسم وهو يتنقَّل بعينه من رجل إلى الآخر.

أشار إلى جولز وقال: «أنت!»

انتفض السيد ليفينجرو؛ فقد كانت إشارة إصبعه تحمل اتهامًا.

«كنت ترغب في رؤيتي؟» حاوَل استعادة بعضٍ من كرامته المبعثَرة.

قال ليون بهدوء: «نعم، من سوء حظي أني لم أرَك من قبل. يعرفك صديقي مانفريد، الذي سمعت عنه، شكلًا حق المعرفة، وكذلك يعرفك رفيقي العزيز بويكارت جيدًا، حتى إنه يمكنه رسم ملامحك رسمًا دقيقًا. وهذا ما فعله في الحقيقة ليلة أمس على مفرش الطاولة على العشاء؛ وهو ما تسبَّب في انزعاجٍ كبير لمدبِّر منزلنا المُقترا!»

كان ليفينجرو حذِرًا يقِظًا؛ إذ كان في هاتين العينين المُبتسمتين شيءٌ من الشر الكامن.

قال: «ما الذي أدين به؟»

اتسعت ابتسامة ليون، وكانت عيناه تلتمعان وهو يُحاول كتم ضحكه: «أتيت وليس في قلبي مثقال ذرة من سوء. ستغفر هذه الكذبة. ستغفرها يا سيد ليفينجرو؛ لأنها كذبة بالفعل. لقد جئت أحذِّرك من أن مشروعك الخبيث الصغير لا بد أن ينتهي، وإلا فستلقى تعاسةً لا حدود لها؛ فالشرطة ليس لديها علم بمقهى كافيه إسبانيول ومظاهر الجذب والإغراء الغريبة التي يقدِّمها.»

أدخل يده في جيب معطفه وبحركته السريعة والمُندفعة المُميزة له، أخرج ورقةً من مفكرة وفردها.

قال: «لديَّ هنا قائمةٌ تضمُّ اثنتين وعشرين فتاةً دخلن إلى منشأة أو أكثر من منشآتك خلال السنتين الماضيتين. يمكنك الاطلاع عليها.» ودس الورقة في يد جولز، «فلديَّ نسخة منها. ستندهش عندما تعرف أن هذه الورقة نتاج ستة أشهر من التحريات.»

لم يقرأ جولز ولو اسمًا واحدًا. وبدلًا من ذلك هزَّ كتفيه، وأعاد الورقة مرةً أخرى إلى ضيفه، وأسقطها على الأرض لَمَّا لم يأخذها ليون.

قال: «لا أعلم أي شيء تمامًا عمَّا تقول. إذا لم يكن لك تعاملاتٌ تخصُّ العمل معي فالأفضل أن تذهب. طابت ليلتك!»

انخفض صوت ليون بعض الشيء، وكانت عيناه تخترقان روح الرجل الذي كان جالسًا مثل ضفدع قبيح الشكل في حُلَل الحرير الفاخر التي تُحيطه من كل جانب، حين قال: «صديقي، ستُرسل برقيات إلى المُديرين لديك، وتأمرهم بتحرير هؤلاء الفتيات ودفع تعويض مناسب، وحجز تذاكر لهن في الدرجة الأولى للعودة إلى لندن.»

هزَّ ليفينجرو كتفيه.

«لا أعرف حقًّا ما تقصده يا صديقي. يبدو لي أنك أتيت بناءً على حكايةٍ ملفَّقة من نسج الخيال، وأنك تعرَّضت للخداع.»

مدَّ السيد جولز ليفينجرو يده بتؤدة وضغط على جرس من العاج.

«أظن أنك مجنون؛ ولذا لن آخذ ما لفظته على محمل السوء. والآن يا صديقي، ليس لدينا مزيد من الوقت كي نمنحه لك.»

لكن ليون جونزاليس ظل رابط الجأش.

قال مُقتضبًا: «لا يسعني إلا أن أقول إنك لا تعي الموقف يا سيد ليفينجرو. أنت لا تدرك العذاب والأسى والامتهان المريع الذي رميت فيه هؤلاء الفتيات.»

نقرةٌ خفيفة على الباب ودخل الخادم. أشار السيد ليفينجرو إلى ضيفه بحركةٍ من يده.

«أوصِلْ هذا السيد إلى الباب.»

إذا كان قد توقَّع منه أن ينفجر غضبًا فمن حسن الحظ أنه خاب ظنه؛ فقد أخذ ليون يتنقَّل ببصره من رجل إلى الآخر، ولم تزَل تلك الابتسامة الساخرة تتراقص على زاويتَي فمه، ثم استدار من دون أن ينبس ببنت شفة، وأُغلقَ الباب خلفه.

«أسمعت؟ أسمعت؟» كان صوت هينرتش يرتعش من الرعب، واستحال وجهه إلى لون الطبشور المتَّسِخ. «يا إلهي! أنت لا تفهم يا جولز! أنا أعرف هؤلاء الرجال. صديق لي ...»

وقصَّ حكايةً من شأنها أن تؤثر أيَّما تأثير في معظم الرجال، ولكن ليفينجرو ابتسم.

«أنت مُرتعِب يا صديقي المسكين. أنت لم تمرَّ بتجاربي مع التهديدات. دعه يُثبِت ما يمكن أن يُثبِته ويذهب إلى الشرطة.»

قال هينرتش وقد قارَب صوته أن يُشبِه العويل: «أيها الأحمق! الشرطة! ألم أخبرك أنهم لا يحتاجون إلى دليل؟ لقد عاقبوا ...»

قال جولز مُتذمرًا: «صه!»

سمع صوت خطوات الفتاة في الردهة. كانت ذاهبة إلى المسرح، وما كادت تتحدث حتى توقَّفت عن الحديث لما رأت وجه هينرتش الشاحب.

قالت بنبرة تأنيب: «أبي، كنت تتشاجر مع عمي هينرتش.»

وانحنت وقبَّلت جبين أبيها، وجذبت أذنه برقَّة. ضمَّها الرجل البدين بين ذراعيه وابتسم ابتسامةً مكتومة.

«لا يوجد شجار يا حبيبتي. هينرتش خائف من صفقةٍ تِجارية. لن تتخيَّلي أنه قد يكون مثل طفل رضيع هكذا.»

وقفت بعد دقيقة أمام المدفأة ووضعت أحمر الشفاه ببراعة. وفي الأثناء توقَّفت كي تُنبئه بخبر.

«لقد قابلتُ رجلًا لطيفًا اليوم يا أبي، في منزل السيدة آثري، يُدعى السيد جوردون، هل تعرفه؟»

ابتسم جولز: «أعرف كثيرين بهذا الاسم.» ثم قال بانزعاجٍ مُفاجئ: «إنه لم يُغازلك، أليس كذلك؟»

ضحكت لذلك.

«أبي العزيز، إنه في مثل عمرك تقريبًا، كما أنه فنَّانٌ عظيم ومُسلٍّ للغاية.»

سار معها جولز إلى الباب ورآها وهي تنزل على السُّلم وتجتاز الحديقة الصغيرة المرصوفة، ووقف هناك إلى أن اختفت عن الأنظار، ثم عاد إلى صالونه الجميل لمناقشة تلك المسألة الخاصة برجال العدالة الأربعة.

انضمَّت فاليري إلى حفل للشوادٍّ يضمُّ شبابًا في مثل عمرها. عجَّت مقصورة المسرح بالزحام، وباتت حارَّة، والدخان يجثم عليها؛ لأن التدخين كان مسموحًا به. شعرت بالخلاص عندما نقر أحد الحاضرين على كتفها وأشار إليها بالخروج.

«يوجد رجل يريد رؤيتك يا آنستي.»

قالت مُتعجبةً: «يريد رؤيتي أنا؟» ثم دخلت إلى الردهة لتجد رجلًا وسيمًا في منتصف العمر، ويرتدي ملابس سهرة.

قالت في اندهاش: «السيد جوردون! لم أكن أعرف أنك هنا!»

بدا جادًّا على غير العادة.

قال: «لديَّ بعض الأخبار السيئة لكِ يا آنسة ليفينجرو.» ومن ثَم شحب لونها.

«لا تقُل إنها عن والدي.»

«في الحقيقة إنها عنه. أخشى أنه واقع في ورطةٍ سيئة.»

قطَّبت جبينها عند سماعها ذلك.

«ورطة؟ أي ورطة؟»

«لا يمكنني التوضيح هنا. هلَّا أتيتِ معي إلى قسم الشرطة؟»

حدَّقت فيه، والشك ينخر في قلبها، فاغرةً فاهها.

«قسم الشرطة؟»

استدعى جوردون أحد الحرس الواقفين بالانتظار.

قال بنبرةٍ رسمية: «أحضِرْ معطف الآنسة ليفينجرو من المقصورة.»

بعد بضع دقائق خرجا من المسرح معًا، ودخلا سيارةً كانت بانتظارهما.

دقَّت الساعة الثانية عشرة عندما نهض السيد ليفينجرو من كرسيه مُتصلبًا وأخذ يتمطَّى. كان هينرتش قد غادَر قبل ثلاث ساعات تقريبًا. وفي الحقيقة، لقد غادَر المنزل في الوقت المناسب كي يلحق آخر قطار متَّجِه إلى خارج إنجلترا، إلى حيث هرب دون حتى أن يأخذ أقل قدر من الأمتعة. لم يدرِ السيد ليفينجرو بهذا الهروب، وكان على وشك صعود السُّلم إلى غرفة النوم حين هزَّ صوتٌ مدوٍّ المنزل. التفت إلى الخادم.

قال مُتذمرًا: «انظر من هذا.» وانتظر مُتلهفًا.

لما فُتح الباب رأى مفتِّش شرطة مُمتلئ الجسم.

سأل الزائر: «أنت ليفينجرو؟»

تقدَّم السيد ليفينجرو.

قال: «ذاك اسمي.»

دخل المفتِّش إلى الصالة.

«أريدك أن تأتي معي إلى قسم الشرطة.» كان أسلوبه فظًّا، بل وقحًا في الواقع، وشعر ليفينجرو لأول مرة في حياته بشيء من الخوف.

«قسم الشرطة؟ لماذا؟»

«سأوضِّح لك عندما نصل إلى هناك.»

انفجر الرجل البدين: «ولكن هذا تصرفٌ وقِح! سأتصل بالمُحامين لديَّ.»

«هل ستأتي معي بهدوء؟»

كان ثَمة تهديد في نبرة صوته؛ مما جعل جولز ينصاع للأوامر على الفور.

«حسن جدًّا أيها المفتش، سآتي معك. أعتقد أنك ارتكبت خطأً فادحًا و...»

دُفع الرجل إلى خارج الصالة ونزل على الدَّرج إلى السيارة المنتظرة.

لم تكن سيارة أجرة عادية. كانت الستائر مُسدَلة. إضافةً إلى ذلك، اكتشف فور دخوله إلى السيارة أن ثَمة ركابًا بداخلها؛ فقد جلس رجلان على المقعدين المُواجهين له، بينما اتخذ المفتِّش مقعده بجانب السجين.

لم يستطع أن يرى إلى أين تذهب السيارة. مرَّت خمس دقائق، ثم عشر دقائق، لا بد أن هناك قسم شرطة في مكانٍ أقرب من تلك المسافة. طرح سؤالًا.

قال صوتٌ هادئ: «سأُريح بالك. أنت لست ذاهبًا إلى قسم الشرطة.»

«إلى أين تأخذونني إذن؟»

جاءته إجابةٌ غير شافية: «هذا ما ستعرفه بعد قليل.»

مرَّت حوالَي ساعة قبل أن تتوقَّف السيارة أمام منزل مُظلِم، وأمره «المفتِّش» المتسلِّط باقتضابٍ بأن يترجَّلَ من السيارة. بدا المنزل غير مأهول بالسكان، وكانت الصالة مُمتلئة بالنُّفايات والغبار. اقتادوه إلى دَرجٍ حجري يؤدي إلى القَبو، وفتحوا بابًا فولاذيًّا ودفعوه إلى الداخل.

ما كاد يدخل حتى أضاء مصباحٌ كهربائي معلَّق في الحائط بضوءٍ خافت، ووجد نفسه فيما بدا غرفة خَرَسانية ليس فيها سوى سرير. في الطرف البعيد كان ثَمة مدخلٌ صغيرٌ مفتوح لا يوجد به باب، أُخبرَ الرجل بأنه يؤدي إلى مغسلة، ولكن الشيء الذي تجلَّى للسيد ليفينجرو وبثَّ الرعب في روحه أن الرجلين اللَّذيْن أحضراه كانا ملثَّمين بشدة، بحيث لم يظهر شيءٌ من ملامحهما، واختفى المفتش، ولم يستطع جولز أن يتذكر شكله رغم محاولاته في ذلك.

«ستبقى هنا وستظل هادئًا، ولا داعي للخوف من أن ينزعج أحد من اختفائك.»

تلعثم ليفينجرو في رعب: «ولكن ... ابنتي!»

«ابنتك؟ ستُغادر ابنتك إلى الأرجنتين مع السيد جوردون في صباح الغد، مثلما غادرت بنات الرجال الآخرين.»

حملق ليفينجرو وتقدَّم خطوةً إلى الأمام، وسقط مغشيًّا عليه على الأرض.

مرَّ ستة عشر يومًا؛ ستة عشر يومًا من الجحيم المُستعر على الرجل الذي لم يكفَّ عن الصراخ، وقد أوشك على الجنون، وكان يذرع الزنزانة لساعاتٍ بلا توقُّفٍ حتى يُرهِقه التعب ويخرَّ كجثةٍ هامدة على سريره. في كل صباح كان يأتي رجلٌ ملثَّم كي يُخبره بالخطط التي وُضعت، وكي يصف بالتفصيل المنشأة في أنتوفاجاستا التي تقرَّر أن تكون وجهة فاليري ليفينجرو، وعرضوا عليه صورةً فوتوغرافية لصاحب حانة، كان هو الراعي الرسمي لهذا الجحيم.

صرخ ليفينجرو: «أيها الشياطين! أيها الشياطين!» وأخذ يضرب بقوة، ولكن الآخر أمسكه وألقاه مرةً أخرى على السرير.

قال ساخرًا: «لا يجب أن تلوم جوردون. إنه يقوم بعمله، وما هو إلا وكيل للرجل الذي يملك الملهى الليلي.»

في صباح اليوم الثامن عشر جاء ثلاثة رجال ملثَّمين، وأخبروه أن فاليري قد وصلت وبدأت في أداء مهامها كراقصة.

قضى جولز ليفينجرو ليلته وهو يرتجف في أحد أركان زنزانته. وجاءوه في الثالثة صباحًا ووخزوه بإبرة تحت الجلد. وعندما استيقظ ظن أنه كان في حلم؛ إذ كان جالسًا في صالون منزله، حيث حمله هؤلاء الملثَّمون الثلاثة وهو مخدَّر في جنح الليل.

دخل أحد الخدم، وألقى الصينية من يده فور رؤيته.

قال لاهثًا: «يا إلهي! سيدي! من أين أتيت؟»

لم يستطع ليفينجرو التحدث، وما استطاع سوى أن يهزَّ رأسه.

«ظننَّا أنك في ألمانيا يا سيدي.»

بعد برهة، مسح جولز على حلقه الجاف، ثم سأل بصوتٍ أجش:

«هل هناك أي أخبار، عن الآنسة فاليري؟»

تساءل الخادم مُندهشًا: «الآنسة فاليري يا سيدي؟ نعم يا سيدي، إنها نائمة في الطابق العُلوي. كانت قلِقة قليلًا ليلة عودتها حين لم تجدك هنا، وبالطبع وصل إليها خطابك الذي تقول فيه إنك استُدعيت إلى خارج البلاد.»

كان الخادم يحدِّق فيه، وفي نظرتِه دهشة وعدم ارتياح. ثَمة شيءٌ غريب قد حدث. نهض جولز على قدميه في غير اتزان، وألقى نظرةً سريعة على وجهه في المرآة. كان شعر لحيته ورأسه مخضَّبًا باللون الأبيض.

توجَّه مُترنحًا إلى طاولة الكتابة، وفتح درجًا وهو يرتعش، وأخرج منه نموذج برقية دولية. «اتَّصِل بساعي البريد.» كان صوته أجش ومُرتعشًا. «أريد أن أرسل أربع عشرة برقيةً إلى أمريكا الجنوبية.»

الفصل الثامن

# مروج الأوراق المالية

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «جون بولز كريسماس أنيوال»، ١٩٢٧.

* * *

كان الرجل الذي أدخله رايموند بويكارت إلى حضرة مانفريد يبدو سيدًا نبيلًا وسيمًا ذا مظهر عسكري على مشارف الستين. كان لباسه في غاية الأناقة لا غبار عليه، كما كان له مِشية الجندي وحضوره. اعتقد مانفريد أنه جنرالٌ مُتقاعد، ولكنه رأى به شيئًا يتجاوز ما يُفشيه التصنع الخارجي الذي غلَّف أسلوبه ومظهره. كان هذا الرجل محطَّمًا. كان على وجهه تعبيرٌ معيَّن لا يمكن تخمينه، ألمٌ مُتفاقم في أعماقه، لم تعجز فطنة أكثر أفراد رجال العدالة الثلاثة دهاءً ومكرًا عن تفسيره في لمح البصر.

وضع بويكارت كرسيًّا للضيف وانسحب مُتباطئًا، ثم قال الضيف: «اسمي بول؛ اللواء سير تشارلز بول.»

قال مانفريد على الفور: «وأتيت لمقابلتي بشأن السيد بونسور ترو.» وضحك حين انتفض الآخر مُتوترًا. قال مانفريد بلطف: «لا، أنا لست ذكيًّا للدرجة. لقد جاء كثيرون لمقابلتي بشأن السيد بونسور ترو، وأظن أن بإمكاني توقُّع قصتك. كنت تستثمر في واحدة من منشآته النفطية وخسرت مبلغًا كبيرًا من المال. هل كان الاستثمار في النفط؟»

قال الآخر: «القصدير، القصدير النيجيري. هل سمعت عن المصيبة التي حلَّت عليَّ؟»

هزَّ مانفريد رأسه.

«سمعت عن المصائب التي حلَّت على رءوس العديدين ممن وثقوا في السيد ترو. كم المبلغ الذي خسرته؟»

أخذ العجوز نفسًا عميقًا.

قال: «خمسة وعشرون ألف جنيه؛ كل فلس أمتلكه. أبلغت الشرطة ولكنهم قالوا إنهم لا يمكنهم فعل شيء. كان منجم القصدير موجودًا بالفعل، ولم يقدِّم ترو أي معلومات مضلِّلة في أي خطاب أرسله إليَّ.»

أومأ مانفريد.

قال: «قضيتك مكرَّرة أيها الجنرال. لا يوقع ترو نفسه بين براثن القانون مطلقًا. إن جميع معلوماته المضلِّلة تُصاغ على طاولة غداء، حين لا يوجد أي شهود، وأظن أنه أشار في خطاباته التي أرسلها إليك إلى الطبيعة المضاربية لاستثمارك، وحذَّرك من ألا تضع كل أموالك في أوراقٍ مالية من الدرجة الأولى.»

قال الجنرال: «كان على طاولة العشاء. ساوَرني بعض الشك في المسألة، وطلب مني أن أتناول العشاء معه في فندق وولكلي. أخبرني بوجود كميات هائلة من القصدير في متناوَله، وأنه على الرغم من أنه لا يستطيع التنبؤ بمبلغ الأرباح — إنصافًا لشركائه — الذي يمكن أن تحقِّقه الشركة على نحوٍ دقيق، فقد طمأنني بأن أموالي ستتضاعف في غضون ستة أشهر. لم أكن لأمانع كثيرًا.» تابَع العجوز وهو يرفع يده المُرتعشة إلى شفتيه: «ولكن يا سيد مانفريد، أنا لديَّ ابنة؛ فتاةٌ شابَّة ذكية لها مستقبلٌ باهر، في رأيي. لو كانت ولدًا لأصبحت مخطَّطًا استراتيجيًّا. تمنَّيت أن أترك لها ما يُغْنيها في حياتها، ولكن ما حدث يعني الخراب، الخراب! ألا يوجد أي شيء يأتي بهذا المجرم بين يدَي العدالة؟»

لم يردَّ مانفريد على الفور.

«لا أعلم أيها الجنرال إن كنت تعلم أنك الشخص الثاني عشر الذي أتى إلينا خلال الأشهر الثلاثة الماضية. السيد ترو محصَّن تمامًا بقوة القانون وبالخطابات؛ ما يجعل ملاحقته أمرًا شِبه مستحيل.» وابتسم ابتسامةً باهتة ثم أضاف: «مرَّ علينا وقتٌ كنت أنا وأصدقائي سنتَّخذ أشد الخطوات للتعامل مع هذا الرجل، وأعتقد أن طريقتنا كانت لتصبح فعَّالة، ولكن الآن»، وهزَّ كتفيه مُردِفًا: «نحن مقيَّدون نوعًا ما. من الذي عرَّفك بهذا الرجل؟»

«السيدة كالفورد كرين. قابَلتها على العشاء عند صديقٍ مشترك، وطلبت مني تناول العشاء معها في شقتها في مجمع هانوفر مانشنز السكني.»

أومأ مانفريد مرةً أخرى، فلم يتفاجأ البتةَ بهذه المعلومة.

قال: «أخشى أنه لا يمكنني منحك وعدًا قاطعًا. الشيء الوحيد الذي سأطلبه منك هو أن تبقى على اتصال معي. أين تسكن؟»

في ذلك الوقت كان الزائر يعيش في منزلٍ صغير بالقرب من ترورو. دوَّن مانفريد العنوان، وبعد بضع دقائق كان يقف بجوار النافذة يُراقب العجوز المُنهَك وهو يسير ببطء في شارع كيرزون.

دخل بويكارت.

قال: «لا أعرف شيئًا عن أعمال هذا الرجل، ولكن لديَّ إحساسًا بأنه يتعلَّق بصديقنا ترو. جورج، يجب أن نتمكن من الإيقاع بهذا الرجل. لما كنا على الإفطار هذا الصباح، قال ليون إنه توجد بركةٌ عميقة في نيو فورست، حيث يمكن لرجلٍ مثبَّت جيدًا بالسلاسل والأوزان أن يبقى لمدة مائة عام دون أن يكتشفه أحد. من وجهة نظري، لا أؤيد الإغراق مطلقًا.»

ضحك جورج مانفريد.

قال: «ضع القانون في اعتبارك يا صديقي. لن يكون هناك قتل، على الرغم من أن الرجل الذي سرق هذا البائس الجديد بطريقةٍ منهجية يستحقُّ الموت بإغراقه في رصاصٍ مغلي.»

لم يستطع ليون جونزاليس هو الآخر تقديم أي حلول عندما استُشير بعد الظهيرة.

«الشيء الغريب أن ترو لا يملك أي أموال في ذلك البلد. إنه يمتلك حسابين بنكيين وكلاهما مكشوف. ولا ينبغي أن أتفاجأ لو أنه كان يمتلك أموالًا سائلة في مكانٍ ما، وفي هذه الحالة كان سيصبح بسيطًا. إنني أُراقبه منذ نحو عام، وهو لم يسافر إلى الخارج قط، وفتَّشت شقته المُتواضعة في ويستمنستر مراتٍ كثيرة، لدرجة أنني يمكنني الذهاب إلى المكان الذي يحتفظ فيه برابطات عنقه وأنا معصوب العينين.»

حدث كل هذا في العام الماضي، ولم ترِد مزيد من الشكاوى بشأن مروج الأوراق المالية المُحتال هذا. ولم يتوصل أحد من الرجال الثلاثة إلى حل لتلك القضية عند اختفاء مارجريت لين، الذي كان لافتًا نوعًا ما.

لم تكن مارجريت شخصًا بالغ الأهمية. كانت بكل المعايير الاجتماعية شخصًا غير مهم، مثل شخص قد تُقابله خلال نزهة عبر ويست إند في لندن. كانت تشغل وظيفة خادمة لدى السيدة الموقَّرة كالفورد كرين، وقد خرجت في مساء أحد الأيام إلى الصيدلية لشراء زجاجة من أملاح الشم لسيدتها، ولم تعُد مرةً أخرى.

كانت جميلة، وفي التاسعة عشرة من عمرها، ولم يكن لها أصدقاء في لندن؛ نظرًا لكَوْنها يتيمةً على حد قولها، وعلى حد ما هو معلوم، لم يكن لديها أي مقرَّبين بالمعنى

العام للكلمة، ولكن حسبما أشارت الشرطة لم يكن من المحتمل تمامًا أن تُمضي خادمةٌ جميلة، ذات لسان عذب وأسلوب ساحر، بالإضافة إلى مفاتنها الجسدية الجذَّابة، عامًا في لندن دون أن تكتسب «معجبًا».

لما لم ترضَ السيدة كالفورد كرين عن تحقيقات الشرطة، اتصلت برجال العدالة الثلاثة لمساعدتها. بعد أسبوع من اختفاء مارجريت لين، جاء مُحامٍ مشهور عبر حلبة الرقص المصقولة في مَلهى ليتر لتحية الرجل الذي جلس منعزلًا وحيدًا على طاولةٍ صغيرة جدًّا بالقرب من حافة الحلبة.

ابتسم وقال: «سيد جونزاليس! هذا آخر مكان في العالم أتوقَّع أن أراك فيه! في لايمهاوس، نعم، التجول في غياهب عالم الجريمة والرذيلة، نعم، ولكن ملهى ليتر ... في الحقيقة، ظننتك شخصًا آخر.»

ابتسم ليون ابتسامةً باهتة، وسكب المزيد من نبيذ الراين في كأسه الطويلة الرفيعة وارتشفه.

قال مُتشدقًا: «عزيزي السيد ثيرلس، هذا عالم الجريمة الخاص بي. هذا الرجل البدين الذي ينفث الدخان بتأنُّق وكبرياء مع تلك السيدة المُمتلئة هو بيل سايكس. صحيحٌ أنه لا يقتحم المنازل ولا يرتدي قميصًا مضادًّا للرصاص، لكنه يبيع الأسهم الهابطة للأرامل المقتصدات والساذجات، وقد تضخَّمت ثروته من تلك العائدات. يومًا ما سآخذ هذا الرجل وأحطِّم قلبه.»

حاول ثيرلس ذو الوجه الأحمر إخفاء ضحكه وهو جالس بجوار الآخر.

«سيكون هذا صعبًا. السيد بونسور ترو رجلٌ فاحش الثراء، ولا يمكن تدميره مهما بلغ من الحقارة ما بلغ.»

ثبَّت ليون سيجارة في أنبوبٍ كهرماني طويل، وبدا غارقًا تمامًا في العملية التي أجراها بعنايةٍ بالغة.

قال: «ربما لم يكن يجدر بي أن أتفوَّه بهذا التهديد المروِّع. ترو صديق لأحد عملائك، أليس كذلك؟»

تفاجأ ثيرلس تمامًا وقال: «السيدة كرين؟ لم أكن أعلم بهذا الأمر.»

قال ليون: «لا بد أنني أخطأت.» ثم غيَّر الموضوع.

كان يعلم جيدًا أنه لم يكن مُخطئًا؛ فذاك المروِّج البدين للأسهم المالية كان ضيفًا بمفرده على السيدة كرين في الليلة التي اختفت فيها مارجريت لين عن الأنظار، والأمر الغريب أن السيدة كرين لم تذكُر هذه الواقعة المُثيرة للشرطة ولا لوكالة تريانجل.

كانت أرملةً شابَّة وجميلةً ذات ملامح قاسية، تعيش في شقةٍ مُتواضعة بالقرب من محكمة هانوفر، ويُعتقد أن مصدر دخلها هو تركةٌ تركها لها زوجها الراحل. كان ليون رجلًا فضوليًّا للغاية، ومع كل التحقيقات الشديدة الدقة التي أجراها لم يكتشف أنها كانت مُتزوجة أو أن زوجها قد تُوفي. كل ما كان يعرفه عنها أنها ذهبت في رحلاتٍ كثيرة إلى الخارج، وأحيانًا إلى أماكن بعيدة مثل رومانيا، وأنها دائمًا ما كانت تصطحب مارجريت المفقودة، وأنها أنفقت المال — ليس بحريةٍ ولكن ببذخ — واستمتعت بأشكالٍ رائعة من الترفيه في باريس وروما، ومرةً واحدة في بروكسل، وبدت راضيةً تمامًا عن العودة من حياة لا بد أنها كلَّفتها ما لا يقل عن سبعمائة وخمسين جنيهًا إسترلينيًّا في الأسبوع، إلى المنزل المُتواضع الكائن بالقرب من محكمة هانوفر الذي كان إيجاره سبعمائة وخمسين جنيهًا في السنة، ولم تتجاوز فواتير منزلها عشرين جنيهًا في الأسبوع.

شاهَد ليون الرقص لمدةٍ أطول قليلًا، وأشار إلى النادل ودفع الفاتورة. عاد المُحامي إلى حفله. رأى السيد بونسور ترو في وسط طاولة الشواذ، وابتسم في نفسه وتساءل ما إذا كان مروِّج الأسهم المالية سيظل مُبتهجًا لو عِلم أن الجيب الأيمن لمعطف ليون جونزاليس يحوي نسخةً من عقد زواج عثر عليه هذا الصباح.

كان ما قاد ليون جونزاليس إلى سومرست هاوس هو إلهامه.

نظر في ساعته، وبعد مرور ساعة لم ينقطع الأمل في العثور على السيدة كرين. كانت سيارته تنتظر في المرآب في ويلينجتون بليس، وبعد عشر دقائق توقَّف أمام أبواب هانوفر مانشنز. أخذه المصعد إلى الطابق الثالث. دقَّ جرس الشقة رقم ١٠٩. ظهر ضوء في النافذة المشبكة، وكانت السيدة كرين هي من فتحت له بنفسها. من الواضح أنها كانت تنتظر شخصًا آخر؛ إذ أخذتها المفاجأة لبرهة.

«يا إلهي، السيد جونزاليس!» ثم قالت بسرعة: «هل لديك أخبار عن مارجريت؟»

قال ليون: «لست متأكدًا تمامًا إن كان لديَّ أخبار أم لا. هل يمكنني التحدث معكِ بضع دقائق؟»

لا بد أن شيئًا في نبرة صوته أثار قلقها.

«أظن أن الوقت متأخِّر، أم لك رأيٌ آخر؟»

توسَّل إليها قليلًا: «هذا سيوفِّر عليَّ رحلة في الصباح.» وببعض التردُّد سمحت له بالدخول.

لم تكن الزيارة الأولى له إلى شقتها، وهو يعلم جيدًا أنه على الرغم من تواضع طريقة عيشها نوعًا ما، فإن الشقة نفسها مؤثَّثة بأثاثٍ فاخر.

قدَّمت له الويسكي والصودا، وقبِل المشروب ولكنه لم يحتسِه.

لما جلست، قال: «أريد أن أسألك منذ متى ومارجريت تعمل في خدمتك.»

ردَّت: «منذ أكثر من عام.»

«هل هي فتاةٌ جيدة؟»

«جيدة جدًّا، ولكني أخبرتك بشأنها من قبل. لقد كان غيابها صدمةً شديدة لي.»

«هل يمكن أن نُطلِق عليها أنها بارعة؟ هل كانت تتحدث أي لغات أجنبية؟»

أومأت السيدة كرين.

«إنها تتحدث الفرنسية والألمانية بطلاقة؛ وهذا ما جعل منها كنزًا. لقد نشأت مع أسرة في الألزاس، وأظن أن أحد والديها فرنسي.»

«لماذا أرسلتِها إلى الصيدلي لإحضار أملاح الشم؟»

تململت المرأة في مكانها وقد نفد صبرها.

«أخبرتك من قبل — كما أخبرت الشرطة — أنني كنت أُعاني صداعًا شديدًا، ومارجريت بذاتها هي من اقترحت أن تذهب إلى الصيدلي.»

«ألم يكن هناك سببٌ آخر؟ ألم يكن من الممكن أن يذهب السيد ترو؟»

كادت تقفز من مكانها عند سماع هذا.

قالت: «السيد ترو؟ لا أعرف ماذا تقصد.»

«كان السيد ترو معكِ في تلك الليلة. كنت تتناولين العشاء معه «بمفردكما». في الحقيقة، لقد كنتما تتناولان العشاء وكأنكما زوجان.»

شحب لون المرأة وانقطعت عن الكلام لبضع لحظات.

«لا أعرف لماذا تُخفين أمر زواجك يا سيدة كرين، ولكن أعلم أنكِ مُتزوجة من السيد ترو منذ خمسة أعوام فحسب، وأعرف أنكِ كنتِ شريكته؛ بمعنى أنكِ ساعدتِه في ... في أعماله المالية. والآن يا سيدة ترو، أريد منكِ أن تكشفي أوراقك. عندما سافرت إلى الخارج أخذت هذه الفتاة معك، أليس كذلك؟»

أومأَتْ من دون أن تتكلم.

«ما سبب سفركِ إلى باريس وروما وبروكسل؟ هل كان لديكِ سببٌ آخر غير الترفيه؟ هل كانت هناك أسبابٌ تتعلق بالعمل لسفرك؟»

رآها تلعق شفتيها الجافَّتين، ولكنها لم ترُد.

«دعيني أوضِّح لك الأمور أكثر. هل لديك في تلك المدن أي خِزانة خاصة في أيٍّ من شركات الخدمات المصرفية أو لديكِ ودائع في صناديق أمانات مؤجَّرة؟»

هبَّت واقفةً وقد فغرت فاهها من الدهشة.

سألته بسرعة: «من أخبرك؟ وما هو عملك بالتحديد؟»

لما كانت تتحدث جاء صوت جرس لطيف، واستدارت نصف استدارة.

قال ليون: «اسمحي أن أفتح لكِ الباب.» وقبل أن تتحرَّك كان في آخر الردهة، وفتح الباب على مصراعيه.

كان ثَمة خبيرٌ ماليٌّ مذهول يقف على الباب. صُعِق من الذهول لما رأى ليون.

قال ليون بلطف: «تفضَّلْ يا سيد ترو. أعتقد أن لديَّ بعض الأخبار المهمة لك.»

قال الرجل العجوز مُتلعثمًا: «من ... من أنت؟» وأخذ يُحملق في الزائر، وفجأةً تعرَّف عليه. «يا إلهي! أحد أفراد رجال العدالة الأربعة، أليس كذلك؟ حسنًا، هل وجدت تلك الفتاة؟»

أدرك في تلك اللحظة أن السؤال في ذاته كان خطأً فادحًا. ما كان له أن يبدو مهتمًّا بتلك الخادمة المفقودة.

قال ليون: «لم أجِدها، وأظن أن العثور عليها مهمةٌ صعبة على أيٍّ منا.»

في ذلك الوقت كانت السيدة كرين قد تمالكت نفسها.

«إنني سعيدة للغاية بمجيئك يا سيد ترو. كان هذا الرجل يُدلي بأقوالٍ من أعجب ما يكون عني وعنك. إنه يظن أننا مُتزوجان. هل سمعت شيئًا مُضحكًا كهذا من قبل؟»

لم يُحاول ليون أن يفنِّد سخافة كلامه حتى عادوا إلى غرفة الاستقبال الصغيرة.

قال السيد بونسور ترو مُتباهيًا بنفسه: «والآن يا سيدي، ما الذي تقصده بقولك ...» قاطَعه ليون.

«سأُخبرك باختصار بما أخبرت به زوجتك، وفيما يتعلَّق بمسألة زواجكما؛ فهذه حقيقة لا جدال فيها، لدرجة أنني أُحاول أن أُريك عقد الزواج الموجود في جيبي. لست هنا كي أوبِّخك يا ترو أو أوبِّخ هذه السيدة. ومسألة معاملتك لتُعساء الحظ الذين استثمروا الأموال معك هي مسألةٌ تتعلق بضميرك. ما أرغب في معرفته هو ما إذا كانت توجد مدنٌ معيَّنة خارج البلاد تمتلك فيها خزائن أو صناديق ودائع تحفظ ثروتك أم لا.»

لم يخفَ مَغزى السؤال على السيد ترو ذي الجسم المُمتلئ.

قال: «توجد ودائع معيَّنة لي خارج البلاد، ولكني لا أفهم تمامًا.»

«هل ستكون صريحًا معي تمامًا يا سيد ترو؟» كان في نبرة صوت ليون لمحةٌ من نفاد الصبر. «هل لك خزائن في باريس أو روما أو بروكسل؟ وهل من عادتك أن تحمل مفاتيح تلك الخزائن معك؟»

ابتسم السيد بونسور ترو.

«لا يا سيدي، لديَّ أماكن أضع فيها الودائع، وهي خزائن في الحقيقة، ولكن لها كلمات سرية.»

تهلَّل وجه ليون: «أها! وهل تحمل الكلمات السرية بأي حال في جيبك؟»

تردَّد ترو لبرهة، ثم أخرج من جيب معطفه دفترًا ذهبيًّا صغيرًا بحجم طابع البريد تقريبًا، ومثبَّتًا بسلسلة من البلاتين.

«نعم، أحملها هنا، ولكن ما الذي يجبرني على مناقشة أعمالي الخاصة؟»

«هذا كل ما أردتُ معرفته.»

حدَّق في الزائر. كان ليون يضحك ضحكةً خفيفة لكنها نابعة من القلب، وأخذ يفرك يديه وكأنه استمع إلى أفضل مزحة في العالم.

قال: «أعتقد أنني فهمت الآن، وأعرف أيضًا لماذا أرسلتِ الآنسة مارجريت لين إلى الصيدلي كي تجلب بعض أملاح الشم. لقد كانت هذه الأملاح لك!» وأشار بإصبعه متَّهِمًا الخبير المالي.

صُعِق ترو من الذهول.

«هذا صحيح؛ أصابني تعبٌ مُفاجئ.»

تدخَّلت السيدة كرين: «لقد أُغشيَ على السيد ترو، وأرسلت مارجريت إلى غرفتي كي تجلب بعض أملاح الشم، ولكنها لم تجد. وهي من تطوَّعت لشرائها من الصيدلية.»

مسح ليون على عينيه.

قال: «هذه مزحةٌ رائعة، وبِتُّ أستطيع الآن إعادة ترتيب القصة بأكملها. متى زُرْت السيدة كرين في ذلك المساء؟»

فكَّر ترو.

«حوالَي السابعة.»

«هل من عادتك أن تشرب عصائر الكوكتيل؟ وهل تنتظر هذه العصائر في غرفة الطعام عادةً؟»

صحَّحت السيدة كرين: «غرفة الاستقبال.»

تابَع ليون: «تناولت عصير كوكتيل ثم خرجت فجأةً. بعبارةٍ أخرى، شخصٌ وضع لك نقاطًا من مادةٍ مخدِّرة في شرابك. بالطبع لم تكن السيدة كرين في الغرفة. لما أُغشيَ عليك تفحَّصت مارجريت لين دفترك، وحصلت على كلمات فك الشفرة التي أرادتها. بعد

ذلك سافرت إلى الخارج مع السيدة كرين. وهكذا عرفت طريقتك التحايلية الصغيرة في تخزين أموالك غير المشروعة.»

تجرَّد وجه ترو من حُمْرته الزاهية، وصار شاحبًا شُحوب الموتى.

قال بصوتٍ أجش: «شفرة كلمة السر؟ حصلت على شفرة كلمة السر؟ يا إلهي!»

ودون أن يتفوَّه بكلمةٍ أخرى اندفع خارج الغرفة، وسمعا دويَّ الباب الأمامي وهو يُغلِقه خلفه بقوة.

قضى ليون وقتًا طويلًا في اللهو، ولكنه وصل إلى شارع كيرزون في وقت العشاء.

قال: «لن أُجري تحقيقات بعد الآن، ولكن ربما أصبحت تلك الخزائن في باريس وروما فارغةً الآن، وربما أصبحت تلك الفتاة الألمعية الذكاء في وضعٍ يسمح لها بمساعدة والديها، ولا شك أنها ابنة أحد العملاء الذين خدعهم السيد ترو.»

سأل مانفريد: «وكيف تعرف أن لها والدين؟»

ردَّ ليون بصراحة: «لا أعرف، ولكني متأكدٌ من أن لها أبًا. لقد أرسلت برقيةً إلى الجنرال بول الأسبوع الماضي كي أعرف إن كانت ابنته الذكية تمكث معه؛ ومن ثَم ردَّ عليَّ ببرقيةٍ يقول فيها إن ابنته «مارجريت سافرت إلى الخارج كي تُكمِل دراستها التي فاتتها السنة الماضية.» وأعتقد أن عملها خادمةً لدى شريكٍ مُحتال في الأسهم المالية هو دراسة في حد ذاته.»

الفصل التاسع

# مرتل الترانيم

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «توينتي ستوري»، عدد سبتمبر ١٩٢٧.

* * *

تولَّى ليون جونزاليس معظم قضايا الابتزاز التي وردت إلى رجال العدالة الثلاثة.

وعلى الرغم من ذلك، دائمًا ما كان يرى نفسه آخر رجل في العالم يجب أن يُسنَد إليه حل مِثل هذه القضايا؛ ففي ذلك المقال الشهير الذي كتبه تحت عنوان «التبرير» — الذي رفع مبيعات إحدى المجلات ربع السنوية حوالَي ألف في المائة — أورد الرأي الآتي:

> ... فيما يتعلَّق بالابتزاز، لا أرى عقابًا كافيًا سوى الموت للمُجرمين الذين دأبوا على هذا الفعل؛ فلا يجوز التفاوض مع هذا النوع من المُجرمين الذين يتخصَّصون في هذا الشكل البغيض من أشكال كسب العيش. ولا يخفى أنه لا يمكن أن يكون هناك ما يشفع لهم هذا الفعل البغيض، ولا أرى نظام إصلاح يمكن أن يؤثِّر فيهم. لقد تجرَّدوا من إنسانيتهم، وقد يصنَّفون مع صانعي السموم في الخفاء ومروِّجي المخدرات و...

ووصف إحدى المِهن الأخرى بالمهينة.

وجد ليون وسائل أقل قسوة للتعامل مع هذه الآفات، ومع ذلك ربما نفترض أن الوسائل الأعنف التي ميَّزت حالة الآنسة براون ومرتِّل الترانيم في الكنيسة قد حظيت بمباركةٍ من أعماق قلبه.

ثَمة العديد من صنوف الجمال، حتى إن ليون جونزاليس الذي كان شغوفًا بالتصنيف لم يتخطَّ ثمانية عشر صنفًا فرعيًّا من الفئة الثالثة والثلاثين من صفات الجميلات السمراوات. وفي ذلك الوقت كان قد ملأ دفترَي ملاحظات كبيرين من قطع الربع.

لو لم يسأم من مهمته قبل أن يُقابل الآنسة براون لأدرك استحالة هذه المهمة لا محالة؛ لأنها لم تكن تقع في أي فئة من فئات الجمال، ولم يُدرِج ما لها من مَفاتن خاصة في أيٍّ من الأقسام الفرعية التي وضعها. كانت سمراء البشرة، ذات قوام ممشوق وأنيقة. كرِه ليون تلك الصفة، ولكنه اضطرَّ إلى الاعتراف بها. كان الأثر الذي تركته الفتاة أثرًا من عطرٍ رقيق، حتى إن ليون أطلق عليها «فتاة اللافندر». أطلقت على نفسها اسم براون، وكان واضحًا أن هذا ليس اسمها الحقيقي، وفيما يتعلَّق بمسألة المظاهر كانت ترتدي قبعةً ضيقة تُغطي عينيها؛ مما يجعل التعرف عليها فيما بعدُ أمرًا بالغ الصعوبة.

حدَّدت وقت زيارتها في عتمة الغسق؛ ساعة تدخين السيجارة التي تتبع عشاءً دسمًا، حين يميل الرجال إلى التفكير أكثر من الحديث، وإلى الإغفاء أكثر من أي شيء آخر.

تردَّد آخرون في هذه الساعة على المنزل الصغير في شارع كيرزون، حيث كان المثلث الفضي على الباب يميِّز مسكن رجال العدالة الثلاثة، ولما دقَّ جرس الباب نظر جورج مانفريد إلى الساعة.

«انظر مَن الطارق يا رايموند. وقبل أن تذهب سأخبرك من هو. إنها شابةٌ ترتدي ملابس سوداء، رشيقة في مِشيتها نوعًا ما، وشديدة التوتر وواقعة في مأزقٍ شديد.»

ابتسم ليون عندما نهض بويكارت مُتثاقلًا من الكرسي وخرج.

قال: «إنها فِراسة وليس استنتاجًا، وملاحظة وليس أي شيء آخر؛ فبإمكانك رؤية الشارع من حيث تجلس. لماذا تَحيَّر صديقنا العزيز؟»

نفث جورج مانفريد حلقةً من الدخان من فمه إلى السقف. قال مُتكاسلًا: «ليس مُتحيرًا. لقد رآها هو الآخر. ولو لم تكن مُستغرقًا في قراءة الجريدة لرأيتها أنت أيضًا. كما أنها ظلَّت تذرع الشارع جيئةً وذُهوبًا ثلاث مرات، وكانت في كل مرة تُلقي نظرةً خاطفةً نحو هذا الباب. جمالها ليس أخَّاذًا، وكنت أتساءل ما نوع الابتزاز الذي مُورِس عليها.»

هنا عاد رايموند بويكارت.

قال: «إنها ترغب في رؤية أحدكما. اسمها الآنسة براون، ولكن يبدو أنه ليس اسمها الحقيقي!»

أومأ مانفريد إلى ليون وقال: «من الأفضل أن تراها أنت.»

ذهب جونزاليس إلى غرفة الاستقبال الأمامية الصغيرة، ووجد الفتاة تقف مولِّيةً ظهرها للنافذة ووجهها في الظل. قالت بصوتٍ هادئ ومتَّزِن: «أرجو ألا تُشعِل المصباح. لا أريد أن يتعرف عليَّ أحد إذا قابلتني مرةً أخرى.»

ابتسم ليون.

قال: «لم أكن أنوي الضغط على المفتاح. تعرفين يا آنسة ...» وانتظر مُترقبًا.

ردَّت: «براون.» كانت قاطعةً في ردِّها، حتى إنه كان سيُدرك رغبتها في عدم الكشف عن هُويتها حتى لو لم تطلب عدم إشعال المصباح. «أخبرت صديقك باسمي.»

استرسل قائلًا: «كما تعلمين يا آنسة براون، لدينا عددٌ كبير من الزائرين لا يريدون أن نتعرف عليهم بوجهٍ خاص عندما نتقابل مرةً أخرى. هلَّا جلست؟ أعرف أنه ليس لديك الكثير من الوقت، وأنك تخشين أن يفوتك القطار الذي يُغادر المدينة.»

انتابتها الحيرة.

قالت: «كيف عرفت؟»

أشار ليون بإحدى إيماءاته التي تميِّزه.

«لولا ذلك لكنت انتظرت حتى يحلَّ الظلام الدامس قبل أن تحدِّدي موعدك. وفي الحقيقة لقد غادرتِ في آخر وقت تستطيعين المغادَرة فيه.»

سحبَت كرسيًّا إلى الطاولة، وجلست ببطء، وأدارت ظهرها إلى النافذة.

أومأت قائلةً: «الأمر كما قلت بالطبع. نعم، يجب أن أُغادر في الوقت المحدَّد، ولم يكن لديَّ الكثير من الوقت. هل أنت السيد مانفريد؟»

قال مُصححًا: «جونزاليس.»

قالت: «أحتاج إلى مشورتك.»

تحدَّثت بصوتٍ مُعتدل خالٍ من العاطفة، وشبكت يديها برفقٍ أمامها على الطاولة. وعلى الرغم من الظلام وعدم تَموضُعها بالشكل الذي يُتيح رؤيتها استطاع أن يميِّز جمالها، وخمَّن من نضج صوتها أنها كانت في حدود الأربع والعشرين.

«أنا أتعرَّض للابتزاز. أظن أنك ستقول لي إنني ينبغي الذهاب إلى الشرطة، ولكني أخشى أن الشرطة لن تتمكن من مساعدتي، حتى لو كنت على استعداد للمخاطَرة بالمُثول أمام المحكمة، وأنا لست على استعداد لذلك.» ثم أضافت مُترددةً: «أبي مسئولٌ حكومي، وسينفطر قلبه لو عرف. كم كنت حمقاء!»

سأل ليون مُتعاطفًا: «خطابات؟»

قالت: «خطابات وأشياء أخرى. منذ نحو ست سنوات كنت أدرس الطب بمستشفى سانت جون. لم أدخل الامتحان النهائي لأسبابٍ ستتفهَّمها. لم أنتفع كثيرًا من معرفتي الجِراحية، باستثناء ... حسنًا، لقد أنقذت حياة رجل ذات مرة، على الرغم من أنني أشكُّ في أن الأمر كان يستحق الإنقاذ. يبدو أنه اعتقد أن الأمر يستحق، ولكن هذا لا علاقة له بالقضية. لما كنت في مستشفى سانت جون تعرَّفت على طالبٍ زميل؛ شابٍّ لن تستفيد من معرفة اسمه، وكما هو الحال مع الفتيات في مِثل عمري وقعت في شِباك حبه. لم أكن أعلم أنه مُتزوج، وإن كان قد أخبرني بذلك قبل أن تصل علاقتنا إلى ذروتها.

أنا المسئولة عن كل ما وقع بعد ذلك. كان بيننا تلك الخطابات المعتادة.»

سأل ليون: «وهل هذه الخطابات أساس الابتزاز؟»

أومأت الفتاة. «انتابَني قلقٌ مُميت بشأن ... المسألة. تركت عملي ورجعت إلى المنزل، ولكن هذا لا يهمُّك أيضًا.»

ليون: «من الذي يبتزُّك؟»

تردَّدت: «الرجل. أمرٌ مروِّع، أليس كذلك؟ ولكنه كان يتمادى ويزداد حقارةً. لديَّ مالٌ خاص بي — كانت أمي تترك لي ألفَي جنيه في العام — وبالطبع دفعت له.»

«متى رأيت هذا الرجل آخر مرة؟»

كانت تفكر في شيءٍ آخر ولم تُجِب على سؤاله. لما كرَّر السؤال نظرت إليه بسرعة.

«في يوم عيد الميلاد الماضي، للحظاتٍ فقط. لم يكن مُقيمًا معنا؛ أعني أنه كان في نهاية ...»

فجأةً أصابها الذُّعر والارتباك، وتقطَّعت أنفاسها وهي تُتابع حديثها قائلةً:

«رأيته من دون ترتيب لموعد. بالطبع لم يرَني، ولكنها كانت صدمةً كبيرة. إنه صوته. لطالما كان له صوتٌ رائع من طبقة التينور.»

وفي محاولة من ليون كي تتمالك نفسها مرةً أخرى، قال مُقترحًا لما توقَّفت: «هل كان يغنِّي؟»

قالت يائسةً: «نعم، في الكنيسة؛ فقد رأيته هناك.»

واصلت حديثها بسرعةٍ كبيرة وكأنها مُتلهفة لا لطرد هذا اللقاء من عقلها فحسب، بل لجعل ليون هو الآخر ينساه.

«أرسل لي خطابًا بعد شهرين من هذا اللقاء، أرسله على عنواننا القديم في لندن. قال إنه في حاجةٍ ماسَّة إلى المال، ويحتاج إلى خمسمائة جنيه. سبق أن أعطيته أكثر من ألف جنيه، ولكن هذه المرة كنت في حالةٍ عقلية تؤهِّلني لأن أكتب إليه وأخبره بأنني لن أدفع له أي أموال بعد ذلك. وعندئذٍ بث الرعب في نفسي بإرساله صورةً من الخطاب — أحد الخطابات — التي أرسلتها له. سيد جونزاليس، لقد قابلت رجلًا آخر و... حسنًا، قرأ جون خبر خطبتي.»

«ألا يعرف خطيبك شيئًا عن هذه العلاقة السابقة؟»

هزَّت رأسها.

«نعم، لا يعرف، ويجب ألا يعرف، وإلا فسيذهب كلٌّ منا في طريقه. هل تتخيَّل أنني كنت سأسمح لأحدٍ أن يبتزَّني بعد الآن لولا هذا الأمر؟»

أخرج ليون قصاصة ورق من جيبه وقلم رصاص من الجيب الآخر.

«هلَّا أخبرتني باسم ذلك الرجل؟ جون ...؟»

«جون ليثريت، ٢٧ لايون رو، شارع وايتشيرش. لقد استأجر غرفةً صغيرة واتخذها مكتبًا ومكانًا للمَبيت. لقد أجريت بعض التحريات بالفعل.»

انتظر ليون.

ثم سأل: «ما المشكلة؟ لماذا جئت الآن؟»

أخرجت خطابًا من حقيبتها، ولاحَظ أنه موضوع في مظروفٍ نظيف، من الواضح أنها لم تكن تنوي الكشف عن اسمها وعنوانها الحقيقيين.

قرأ الخطاب ووجده خطابًا عاديًّا. كان كاتبه يطلب ٣٠٠٠ جنيه إسترليني قبل انتهاء الثلث الأول من الشهر، وهدَّد إذا لم ينفَّذ طلبه فستكون «الخطابات» بين «أيدٍ معيَّنة». كان الخطاب يحوي مسحةً ميلودرامية، يستخدمها المُبتزُّ العادي في مراسلاته لسببٍ غريب.

سأل ليون: «سأرى ما يمكنني فِعله، كيف سأتواصل معك؟ أظن أنكِ ترغبين في عدم الكشف عن اسمكِ أو عنوانكِ الحقيقي حتى لي.»

لم تُجِب حتى أخرجَتْ من حقيبتها بعض النقود ووضعتها على الطاولة.

ابتسم ليون: «أظن أننا سنتناقش في مسألة الأجر عندما ننجح في مهمتنا. ما الذي تريدين أن أفعله لك؟»

«أريدك أن تأتي لي بالخطابات، وإذا أمكن فأُريدك أن تُرهِب هذا الرجل كي لا يسبِّب لي مشاكل مرةً أخرى. وفيما يتعلَّق بالنقود فسأُسَرُّ أكثر إذا سمحت لي بأن أدفع لك الآن!»

قال ليون مُبتسمًا: «هذا مُخالف لقواعد المؤسَّسة!»

أعطته اسم شارع ورقم مبنًى، وخمَّن أن هذا عنوان إقامة.

قالت وهي تنظر في ساعة يدها خلسةً: «أرجو ألا تُرافقني حتى الباب.»

انتظر حتى أغلقت الباب خلفها، ثم صعد إلى رفيقَيه في الطابق العُلوي.

قال: «أعرف الكثير عن هذه السيدة لدرجة أنه يمكنني كتابة بحث عنها.»

مانفريد: «أخبِرْنا القليل.» ولكن هزَّ ليون رأسه رافضًا.

ذهب إلى شارع وايتشيرش في تلك الليلة. كان ليون رو طريقًا ضيقًا غير معبَّد، أقرب إلى زقاقٍ منه إلى أي شيء آخر، وما كان يستحق تلك التسمية المَهيبة. في أحد تلك البيوت القديمة التي لا بد أنها شهدت تدهور الألزاس، وفي قمة سُلَّم من ثلاث درجات مُتهالكة، وجد بابًا كُتِب عليه حديثًا: «جيه ليثريت للتصدير.»

لم يُجِب أحد على طَرْقه.

طرَق مرةً أخرى بقوةٍ أكبر، وسمع صرير سرير وصوتًا أجشَّ في الجانب الآخر يسأل مَن الطارق. استغرق إقناع الرجل بفتح الباب بعض الوقت، وحينئذٍ وجد ليون نفسه في غرفةٍ ضيقة وطويلة للغاية، مُضاءة بمصباح طاولة كهربائي بلا مظلَّة. كان الأثاث يتألف من سرير وحوض غسل قديم ومكتب متَّسِخ مكدَّس بكمٍّ هائل من المنشورات التي لم تُفتَح.

خمَّن أن الرجل الذي يقف أمامه مُرتديًا قميصًا وسروالًا متَّسِخَين في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبًا، ولكن لا شك أنه بدا أكبر من ذلك. لم يكن وجهه حليقًا، وكانت الغرفة معبَّأة برائحة أفيون نتِنة للغاية.

قال جون ليثريت مُزمجرًا وهو يحدِّق في زائره بارتياب: «ماذا تريد؟»

بنظرةٍ واحدة فهِم ليون طبيعة هذا الرجل — الذي خمَّن أنه ضعيف — وأدرك أنه شخصٌ وجد الطريق الأسهل لكسب عيشه، ولن ينحرف عن هذا الطريق. كان الأنبوب الصغير الموضوع على الطاولة بجانب السرير بمثابة لافتة إرشادية لا يمكن أن تُخطئها عينه.

قبل أن يُجيب استرسل ليثريت قائلًا: «إذا كنت قد أتيت من أجل الخطابات فلن تجدها هنا يا صديقي.» وأشار بيده المُرتجفة إلى وجه ليون. «يمكنك العودة إلى عزيزتي جويندا وتُخبرها بأنك لن تكون أفضل من الرجل الذي أرسلته قبلك!»

قال ليون مُتأملًا: «مُبتز، أليس كذلك؟ أنت أحقر مُبتز قابلته في حياتي. هل تعلم أن الشابَّة تعتزم مُقاضاتك؟»

قال ساخرًا: «دَعْها تُقاضيني. لتحصل على أمر ضبط وإحضار وتقبض عليَّ! لن تكون المرة الأولى التي أدخل فيها السجن! يمكنها الحصول على إذن تفتيش؛ ومن ثَم ستتمكَّن من سماع خطاباتها وهي تُقرأ في المحكمة. إنني أوفِّر عليك الكثير من المشاكل، وسأوفِّر على جويندا المتاعب أيضًا! لقد خُطبت، أليس كذلك؟ ألست أنت العريس المُرتقَب؟»

قال ليون بهدوء: «لو كنت أنا لكسرت رقبتك في يدي. إذا كنت عاقلًا ...»

زمجر الآخر: «لست عاقلًا. هل تعتقد بأنني سأعيش في هذا المكان القذر لو كنت عاقلًا؟ أنا ... أنا الحاصل على شهادة في الطب؟»

وفي نوبة غضب مُفاجئة، دفع الزائر باتجاه الباب.

«اخرج ولا تدخل مرةً أخرى!»

تفاجأ ليون من هذا الهجوم، لدرجة أنه كان يستمع إلى الباب وهو يُقفَل ويُصدع في وجهه قبل أن يُدرك ما حدث.

من طريقة الرجل تأكَّد أن الخطابات كانت في الغرفة؛ إذ كانت تحوي أماكن كثيرة يمكن أن تُخفى فيها الخطابات. كان بإمكانه التغلب على هذا المُنحط بسهولةٍ بالغة ويقيِّده في السرير ويفتِّش الغرفة، ولكن في هذه الأيام كان رجال العدالة الثلاثة مُلتزمين تمامًا بالقانون.

بدلًا من ذلك عاد إلى صديقيه مُتأخرًا في تلك الليلة وحكى لهم قصة فشله الجزئي.

«لو أنه يُغادر المنزل من وقت لآخر لكان الأمر سهلًا، ولكنه لا يبرحه مطلقًا، بل إنني أعتقد أن بإمكاني أنا ورايموند تفتيش المكان تفتيشًا دقيقًا للغاية من دون أدنى مشكلة. ثَمة زجاجة لبن تُترَك كل صباح على عتبة غرفة ليثريت، ولا أجد صعوبة في وضع منوِّمًا له فيها إذا وصلنا المنزل بعد بائع اللبن بفترةٍ وجيزة.»

هزَّ مانفريد رأسه.

قال: «سيكون عليك العثور على طريقةٍ أخرى؛ فالأمر لا يستحقُّ أن نستثير عداوة الشرطة.»

همهم بويكارت: «هذا أقل ما يمكن أن يحدُث. من تكون السيدة؟»

كرَّر ليون المحادَثة التي دارت بينه وبين الآنسة براون كلمةً بكلمة تقريبًا.

قال: «إن أقوالها تحوي وقائع معيَّنة لافتة للانتباه، وأنا متأكدٌ من أنها وقائع حقيقية، ومتأكدٌ من أنها لم تكن تُحاول خداعي. الواقعة الغريبة الأولى هي أن تلك السيدة

سمعت هذا الرجل يرتِّل الترانيم في عيد الميلاد الماضي. هل السيد ليثريت شخصٌ يُتوقع أن يسمعه الآخرون يجرِّب صوته الجميل في أناشيد عيد الميلاد؟ إن معرفتي القصيرة به تقُودني إلى افتراض أنه ليس كذلك. الواقعة الغريبة الثانية هي العبارة الآتية: «لم يكن مُقيمًا معنا.» أو شيء من هذا القبيل، وعبارة «عند الاقتراب من النهاية.» نهاية ماذا؟ هذه الوقائع الثلاث لافتة للانتباه حقًّا!»

قال بويكارت مُتذمرًا: «ليست لافتةً كثيرًا بالنسبة إليَّ. من الواضح أنه كان أحد حضور حفل منزلي في مكانٍ ما، ولم تكن تعلم أنه يُقيم في الحي حتى رأته في الكنيسة، وكان على مقربة من انتهاء زيارته.»

هزَّ ليون رأسه.

«لقد وقع ليثريت في الحب لسنوات. لم يصِل إلى حالته تلك منذ عيد الميلاد؛ ومن ثَم لا بد أن حالته ساءت — أو كادت أن تسوء — منذ تسعة شهور. لقد كرهته حقًّا، ولا بد أن أحصل على تلك الرسائل.»

نظر إليه مانفريد مُفكرًا.

«لن يضعها في خِزانات مَصرفه لأنه لا يمتلك حسابًا مصرفيًّا، ولا عند مُحاميه لأنني أعلم أن شخصًا كهذا تبدأ معرفته بالقانون وتنتهي عند المحاكم الجنائية. أظن أنك على حق يا ليون؛ الخطابات في غرفته.»

لم يضيِّع ليون وقتًا. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي كان في شارع وايتشيرش، وراقب بائع اللبن وهو يصعد إلى العلِّية القذرة التي يعيش فيها ليثريت. انتظر حتى خرج بائع اللبن واختفى، ولكن بقدر يقظته وحدة ذهنه، لم يكن سريعًا بما يكفي؛ فمع وصوله إلى الطابق العُلوي كان الحليب قد أُخِذ، ولم تُستخدم القارورة الصغيرة ذات السائل العديم اللون التي ربما كانت بمثابة مادة حافظة للحليب.

أعاد المحاولة في صباح اليوم التالي، وفشل مرةً أخرى.

في الليلة الرابعة، ما بين الساعة الواحدة والثانية، تمكَّن من الدخول إلى المنزل، وصعِد السُّلم خلسةً من دون إحداث أي صوت. كان الباب مُقفَلًا من الداخل، ولكنه تمكَّن من الوصول إلى طرف المفتاح باستخدام كماشة صغيرة كان يحملها معه.

لم يكن يوجد أي صوت في الداخل عندما أعاد القفل إلى مكانه وأدار المقبض بهدوء، وكان قد نسي المزلاج.

جاء مرةً أخرى في اليوم التالي وفحص المنزل من الخارج. لم يكن الوصول إلى نافذة الغرفة مُستحيلًا، ولكنه سيحتاج إلى سُلَّم خشبي طويل للغاية. وبعد مشاورات قصيرة مع مانفريد قرَّر ألا يتبع تلك الطريقة.

قدَّم مانفريد اقتراحًا.

«لمَ لا تُرسِل له برقيةً تطلب منه أن يُقابل الآنسة براون في محطة شارع ليفربول؟ هل تعرف اسمها الأول؟»

تنهَّد ليون مُضجرًا.

«جرَّبت هذا الاقتراح في اليوم الثاني يا صديقي العزيز، وأحضرت معي ليو ليفسون الصغير كي «يعلِّق» ما معه في اللحظة التي يدخل فيها الشارع حال كان يحمل الخطابات معه.»

قال مانفريد: «هل تقصد بكلمة «يعلق» أن يسرق ما في جيبه؟ لا يمكنني أن أتتبع لغة اللصوص الحديثة. حينما كنت أهتم بهذه الأشياء كنا نُطلِق عليها «نشل».»

«أنت قديم يا جورج. «يعلق» هي الكلمة الدارجة، ولكن بالطبع لم يخرج ذلك المُتسول. ولو كان يدين بالإيجار لقدَّمت عرضًا للسماسرة، ولكنه غير مَدين بالإيجار. إنه لا يُخالف أي قوانين، ويعيش حياةً طاهرة الذيل إلى حدٍّ ما، باستثناء الأفيون الذي يمكن لأي شخص أن يُمسَك به بتهمة حيازته بالطبع، ولكن لن يفيد ذلك كثيرًا؛ لأن الشرطة حذِرة نوعًا ما في السماح لنا بالعمل معهم.» ثم هزَّ رأسه وأضاف: «أخشى أنني سأضطرُّ إلى إعطاء الآنسة براون تقريرًا سيئًا للغاية.»

لم يُرسِل لها بالفعل إلا بعد مرور بضعة أيام على العنوان المتَّفَق عليه، واكتشف للمرة الأولى أنه عنوان محل صغير للأدوات المكتبية يمكن استقبال الخطابات منها، مِثلما توقَّع.

بعد أسبوع، جاء المفتِّش ميدوز، الذي كان على علاقةٍ طيبة مع ثلاثتهم، كي يستشير مانفريد في مسألةٍ تتعلق بجواز سفر إسباني مزوَّر. ولما كان مانفريد خبيرًا قديرًا في تزوير جوازات السفر، ولديه مخزون من القصص حول المُجرمين الإسبانيين، انتهى اللقاء بعد منتصف الليل بوقتٍ طويل.

سار ليون — الذي كان بحاجة إلى بعض التمرين — إلى شارع ريجنت مع ميدوز، وتحوَّل الحديث إلى السيد جون ليثريت.

«آه، نعم، أعرفه جيدًا. ألقيت القبض عليه منذ عامين بتهمة البلاغ الكاذب، وحكمت عليه محكمة جنايات لندن بالسجن ثمانية عشر شهرًا. في الحقيقة إنه شخصٌ وضيع،

كما أنه مُرشِد أيضًا. إنه الرجل الذي تسبَّب في سجن جو بينثال؛ أمهر لص منازل عرفناه على مدار جيل كامل. حُكِم على جو بالسجن عشر سنوات، ولا أُحبُّ أن أصبح في مكان هذا الشخص عندما يخرج!»

طرح ليون سؤالًا مُفاجئًا عن سجن ليثريت، وعندما أجاب الآخر توقَّف رفيقه من دون حراك في وسط ميدان هانوفر الخالي من المارَّة، وأخذ يتلوَّى من الضحك في صمت.

«لا أفهم وجه المزاح في هذا.»

كتم ليون ضحكته وقال: «ولكني أفهم. كم كنت أحمق! وأنا من ظننت أنني فهمت القضية!»

قال ميدوز: «هل تريد ليثريت في شيء؟ أنا أعرف أين يسكن.»

هزَّ ليون رأسه: «لا، لا أريده، ولكني لديَّ رغبةٌ شديدة في أن أدخل إلى غرفته لمدة عشر دقائق!»

نظر ميدوز بجدية.

«إنه يُمارس الابتزاز، أليس كذلك؟ كنت أتساءل من أين يحصل على المال.»

لم يوضِّح له ليون المسألة. عاد إلى شارع كيرزون وبدأ البحث في مراجع معيَّنة، وأعقب ذلك بفحص خريطة ذات مقياس رسم كبير للمقاطَعات الرئيسة. كان آخر من ذهب إلى النوم وأول من استيقظ؛ إذ كان نائمًا أمام المنزل، وسمع الطَّرق على الباب.

كانت السماء تُمطر بغزارة وهو يفتح النافذة وينظر إلى الخارج، وفي ضوء الفجر الخافت اعتقد أنه رأى المفتِّش ميدوز، وتأكَّد من هُوية زائره بعد بضع ثوانٍ.

«هلَّا نزلت؟ أريد أن أراك.»

ارتدى جونزاليس الروب وأسرع إلى الطابق السفلي وفتح الباب للمفتِّش.

قال ميدوز وهو في طريقه مع ليون إلى غرفة الاستقبال الصغيرة: «هل تتذكر أننا كنا نتحدث عن ليثريت ليلةَ أمس؟»

كان صوت المفتِّش جافًّا على نحوٍ واضح، وكان يتطلع إلى ليون بحدة.

«نعم، أتذكَّر.»

«ألم تخرج مرةً أخرى بأي حال ليلةَ أمس؟»

«نعم. لماذا؟»

لاحت في عينه نظرة الاشتباه مرةً أخرى.

«قُتِل ليثريت الساعة الواحدة والنصف هذا الصباح، وتعرَّضت غرفته للنهب.»

حدَّق ليون فيه.

في النهاية سأل: «قُتِل؟ وهل توصَّلتم إلى القاتل؟»

«لا، ولكن سنتوصَّل إليه لا محالة. شاهَده شُرطيٌّ من شرطة المدينة وهو ينزل على ماسورة صرف الأمطار. من الواضح أنه دخل إلى غرفة ليثريت من النافذة، وهذا ما دفع الشرطي إلى تفتيش المنزل. اضطرَّ رجال شرطة المدينة إلى كسر الباب، ووجدوا ليثريت ميتًا على السرير. من الواضح أنه ضُرِب على رأسه باستخدام عَتَلة، وما كان لإصابةٍ كهذه أن تقتله في الظروف العادية وفقًا للطبيب الشرعي، ولكنها كانت كفيلةً بالقضاء عليه نظرًا لحالته الصحية. طاف الشرطي حول المنزل لاعتراض اللص، ولكن لا بد أنه هرب بطريقةٍ ما في واحد من الأزقة الصغيرة التي يعجُّ بها هذا الجزء من المدينة، وشُوهِد بعد ذلك من قِبل شرطي في شارع فليت يقود سيارةً صغيرة، وكانت لوحة الأرقام مغطَّاة بالطين.»

«هل تعرَّفتم على الرجل؟»

«ليس بعد. ما فعله هو ترك ثلاث بصمات أصابع على النافذة، ولما كان واضحًا أن له سوابق في هذا الأمر، فهذا بمثابة تحديد مباشر لهُويته. استدعتنا شرطة مباحث المدينة، ولكننا لم نتمكن من المساعدة باستثناء إعطائهم بعض التفاصيل عن حياة ليثريت السابقة. بالمناسبة، لقد أعطيتهم نسخةً من بصمات أصابعك. أرجو ألا يكون لديك مانع.»

ابتسم ليون.

قال: «بكل سرور!»

بعد أن غادَر الضابط صعِد ليون إلى الطابق العُلوي كي يُبلغ صديقيه بتلك الأخبار.

لكن من العادة أن تأتيهم معظم الأخبار المُفجِعة على مائدة الإفطار؛ فقد وصل ميدوز. رأوا سيارته تتوقَّف أمام الباب وخرج بويكارت كي يفتح له الباب. اندفع إلى الغرفة الصغيرة وعيناه تكادان تخرجان من مَحْجِرَيهما من فرط الحماسة.

قال: «إليكم لغزًا لن يستطيع أحدٌ قطُّ حلَّه، حتى أنتم. هل تعلمون أن هذا اليوم يشهد مأساةً كبرى لشرطة سكوتلاند يارد ولنظام تحديد الهوية؟ وهذا يعني تدمير طريقة وُضعت بشِقِّ الأنفُس.»

سأل مانفريد بسرعة: «ما الذي تتحدث عنه؟»

قال ميدوز: «نظام تحديد البصمات.» وهنا حملق فيه بويكارت فاغرًا فاهه؛ إذ كانت طريقة البصمات شيئًا مقدسًا. قال ميدوز: «وجدنا بصماتٍ مطابقة. لا شك أن البصمات

التي وجدناها على الزجاج هي بصمات جو بينثال؛ وجو بينثال موجود في سجن مقاطعة ويلفورد يقضي الجزء الأول من حكم بالسجن لمدة عشر سنوات!»

شيءٌ ما جعل مانفريد يُدير رأسه نحو صديقه. كانت عينا ليون متوهِّجتين، ووجهه النحيل مكلَّلًا بابتسامة فرحة.

قال بصوتٍ خافت: «مرتِّل الترانيم! هذه أجمل قضية تناولتها. اجلس الآن يا عزيزي ميدوز وتناوَلِ الإفطار! لا، لا، اجلس. أريد أن أسمع عن بينثال، هل يمكن لي أن أراه؟»

حدَّق ميدوز النظر فيه.

«وما جدوى هذا؟ أقول لك هذه أكبر ضربة تلقَّيناها على الإطلاق. والأكثر من ذلك أننا لما عرضنا صورة بينثال على شرطي المدينة تعرَّف عليه، وقال إنه الرجل الذي رآه ينزل على أنبوب صرف الأمطار! اعتقدت أن بينثال هرب؛ ومن ثَم اتصلت بالسجن، ولكنه كان هناك.»

«هل يمكنني رؤية بينثال؟»

تردَّد ميدوز.

«نعم، أظن أنه يمكننا تدبير هذه المسألة. وزارة الداخلية على علاقةٍ طيبة معكم، أليس كذلك؟»

من الواضح أنها كانت طيبة للغاية؛ فبحلول الظهيرة كان ليون جونزاليس في طريقه إلى سجن ويلفورد، وما أسعده أنه كان ذاهبًا بمفرده.

كان سجن ويلفورد واحدًا من المنشآت العقابية الصغيرة، وكان يُستخدم لإيواء المحكوم عليهم لمدةٍ طويلة ممَّن يتمتَّعون بحسن السير والسلوك، ولهم دراية بمهنة تجليد الكتب والطباعة. يوجد عدة سجون «إصلاحية» في إنجلترا — مثل سجن ميدستون المختص بمهنة «الطباعة»، وشيبتون ماليت الخاص بمهنة «الصباغة» — حيث يمكن للسجناء ممارسة مِهنهم.

أخبره كبير حُراس السجن — الذي أجرى ليون مقابلةً معه — أن سجن ويلفورد سيُغلَق قريبًا، وسيُنقَل نزلاؤه إلى ميدستون. بدت نبرةٌ حزينة في صوته بينما كان يتحدث عن هذا التغيير.

«لدينا الكثير من الرجال الصالحين هنا؛ فلم يسبِّبوا لنا أي متاعب، ويقضون وقتهم دون أي مشاكل أو صعاب. لم يكن لدينا أي حالات من عدم الانضباط لسنوات. لا يوجد سوى ضابط واحد في المناوَبة الليلية؛ وهذا يُعطيك فكرةً عن مدى الهدوء الذي ننعم به هنا.»

سأل ليون: «من هو الضابط الذي كان موجودًا ليلة أمس؟» وكان لهذا السؤال غير المتوقَّع وقعُ المفاجأة على كبير حُراس السجن.

قال: «السيد بينيت، وهو في إجازةٍ مرَضية اليوم بالمناسبة؛ يُعاني من نوبة صفراء. سؤالك عنه يُثير الغرابة؛ لقد ذهبت لتوِّي لزيارته. لقد كنا نُجري تحقيقًا مع الرجل الذي أتيت لزيارته. بينيت العجوز المسكين في السرير بسبب صداع فظيع.»

ليون: «هل يمكن أن أرى مأمور السجن؟»

هزَّ رئيس حُراس السجن رأسه.

«لقد ذهب إلى دوفر مع الآنسة فوليان ابنته. لقد سافر خارج البلاد.»

«الآنسة جويندا فوليان؟» ولما أومأ كبير حراس السجن، قال: «هل هي السيدة التي كانت تتدرب كي تصبح طبيبة؟»

قال الآخر مؤكدًا: «إنها طبيبة. عندما أوشك بينثال على الموت بسبب أزمة قلبية أنقذت حياته. إنه يعمل في منزل مأمور السجن، وأعتقد أنه على استعدادٍ أن يفعل أي شيء في سبيل خدمة السيدة الشابَّة. يوجد خيرٌ كثير في بعض هؤلاء الأشخاص!»

كانا يقفان في قاعة السجن الأساسية. حدَّق ليون على طول المشهد الكئيب للشُّرفات الفولاذية والأبواب الصغيرة.

وضع يده على المكتب العالي بالقرب من المكان الذي كانا يقفان فيه وسأل: «هذا مكان جلوس حارس المناوَبة الليلية، على ما أظن؟ والباب يؤدي إلى ...؟»

«إلى مكتب مأمور السجن.»

أضاف بلا اكتراث: «وغالبًا ما تتسلَّل الآنسة جويندا إلى هناك ومعها فنجان من القهوة وشطيرة لحارس المناوَبة الليلية، أليس كذلك؟»

راوَغ كبير حُراس السجن في إجابته.

قال: «سيكون هذا مُخالفًا للوائح إن فعلَت. والآن، هل تريد رؤية بينثال؟»

هزَّ ليون رأسه.

قال بهدوء: «لا أعتقد ذلك.»

تساءل ليون بينما كان يسرد الأحداث الوثيقة الترابط لهذه القضية لرفيقيه: «أين يمكن لوغدٍ ذميمٍ مِثل ليثريت أن يرتِّل الترانيم في يوم عيد الميلاد؟ في مكانٍ واحد فقط؛ السجن. من الواضح أن الآنسة براون كانت في ذلك السجن؛ فدائمًا ما يتردَّد مأمور السجن وعائلته على تلك الكنيسة. لم يكن ليثريت «مُقيمًا». كانت نهاية عقوبته، وأُرسلَ

إلى ويلفورد كي يأخذ أمر الإفراج عنه. ميدوز المسكين! مع كل إيمانه بطريقة بصمات الأصابع فإنه ضلَّ طريقه؛ لأن مَدينًا مُفرَجًا عنه أوفى بكلمته وخرج للحصول على الرسائل التي لم أستطع الحصول عليها، بينما كان السيد بينيت المخدَّر نائمًا على مكتبه، وحلَّت الآنسة جويندا فوليان مكانه!»

الفصل العاشر

# سيدة من البرازيل

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «توينتي ستوري»، عدد أكتوبر ١٩٢٧.

* * *

بدأت الرحلة في عاصفةٍ من الأمطار واستمرَّت في الضباب. مرَّ المسافرون بالعديد من المطبَّات الهوائية مما أصابهم بالإعياء. اتصل الطيار بمركز القيادة وانخفض بالطائرة على ارتفاعٍ أقل من مائتَي قدم.

ثم جاء المُضيف بأنباءٍ صدح بها بصوتٍ علا فوق هزيم المحرِّكات.

«سنهبط في ليمبني. ضبابٌ كثيف يخيِّم على لندن. ستأخذكم الحافلات إلى لندن.»

مال مانفريد إلى الأمام نحو السيدة التي كانت تجلس في الجانب الآخر من الممر الضيِّق.

قال بصوتٍ لا يصل إلا إلى أذنها: «أنت سعيدة الحظ.»

رفعت السيدة المبجَّلة بيفيرسي نظارتها وتفحَّصته ببرود.

«معذرةً؟»

هبطت الطائرة بسلامٍ بعد فترةٍ وجيزة، ولما نزل مانفريد على سُلَّم طائرة باريس مد يده كي يساعد السيدة الجميلة على النزول.

«هل كنت تقول ...؟»

حدَّقت فيه المرأة الرشيقة الجميلة ورمقته بنظرة عجرفة باردة.

مانفريد: «كنت أقول إنه من حسن حظكِ أن هبطنا هنا. اسمكِ كاثلين زيلينج، ولكنكِ مشهورة باسم «كلارو» ماي، ويوجد ضابطَا تحقيقٍ في انتظاركِ في لندن لاستجوابكِ بشأن

عقدٍ من اللؤلؤ فُقِد في لندن منذ ثلاثة أشهر. إنني أفهم الفرنسية جيدًا جدًّا، وسمعت رجلَيْن من مديرية الأمن يتناقشان بشأن مستقبلكِ قبل أن نُغادر لو بورجيه مباشرةً.»

لم يعُد التحديق ينمُّ عن العجرفة، بل عن عدم الاهتمام. من الواضح أن نظرتها المُتمعنة في الرجل الذي أعطاها هذه المعلومة المُقلِقة قد طمأنتها فيما يتعلَّق بنزاهته وصدقه.

قالت بصوتٍ هادئ: «شكرًا لك، ولكني لست قلقةً على الإطلاق. فينيكر وإدموندز هما الرجلان اللذان تقصدهما، سأرسل برقيةً لهما كي يُقابلاني في الفندق. مظهرك لا يدل على أنك «شُرطي»، ولكني أظن أنك كذلك؟»

ابتسم مانفريد: «ليس بالضبط.»

نظرت إليه باستغراب.

«بالتأكيد تبدو أصدق من أن تكون ضابط شرطة. أنا بخير، ولكن شكرًا لك على أي حال.»

كانت هذه بمثابة إذن له بالانصراف، ولكن مانفريد ظل واقفًا لم يتزحزح من مكانه.

«إذا واجَهتْكِ مشكلةٌ من أي نوع فسيُسعدني أن تتصلي بي.» ثم أعطاها بطاقة، ولكنها لم تنظر فيها ولو نظرةً سريعة. «وإذا كنتِ تتساءلين عن سبب اهتمامي فيكفي أن تعرفي أنه قبل عامٍ كاد صديقٌ عزيز جدًّا لي أن يَلقى حتفه على يد عصابة فوريت التي انقضَّت عليه على حين غِرة في مونمارتر، وأنت فقط من تكرَّمت بمساعدته.»

بهذه المفاجأة قرأت البطاقة، ولما قرأتها تغيَّر لونها.

قالت في ارتباك وحرج: «يا إلهي! لم أكن أعرف أنك واحد من هذه الفِرقة؛ رجال العدالة الأربعة؟ إني أخافكم كثيرًا! كان اسمه ليون، يعقبه اسمٌ إيطالي ...»

قال مانفريد: «جونزاليس.» فأومأَتْ له.

«هذا صحيح!»

كانت تنظر إليه الآن باهتمامٍ جديد.

«في الحقيقة، لا تُواجهني مشكلة بشأن مسألة عقد اللؤلؤ. وفيما يتعلَّق بصديقك فقد أنقذني. ما كان أن يدخل في شجار مع العصابة إلا لأنه أراد مساعدتي لما خرج من الملهى الليلي.»

«أين تُقِيمين في لندن؟»

أخبرته بعنوانها، وفي تلك اللحظة جاء ضابطٌ من ضباط الجمارك وقطع حديثهما. لم يرَها مانفريد مرةً أخرى؛ فلم تكن في الحافلة المُغلَقة التي نقلته إلى لندن.

في الحقيقة، لم يكن لديه رغبةٌ كبيرة في مقابلتها مرةً أخرى. كان الدافع وراء تصرُّفه هو الفضول والرغبة في مساعدة امرأة قدَّمت مساعدةً كبيرة لليون جونزاليس، وهي المناسبة التي تكشفت فيها القصص المزيَّفة عن ليون.

لم يكن مانفريد يتعاطف مع المُجرمين ولا يمقتهم. كان يعرف أن ماي مُحتالةٌ دولية على نطاقٍ واسع، وكان مُقتنعًا إلى حدٍّ كبير بأن الشرطة الإنجليزية ستعتني بها جيدًا.

ندم مانفريد خلال رحلته إلى لندن لأنه لم يطلب منها المزيد من المعلومات عن جاري، على الرغم من أنهما لم يلتقيا مطلقًا.

أزال جورج مانفريد، المعروف ضِمنًا بكَوْنه الروح القائدة لرجال العدالة الأربعة، ثلاثًا وعشرين درنةً اجتماعية من جميع الأنشطة البشرية على مدار حياته.

أهدت الحرب له ولرفاقه عفوًا عن الجرائم التي عُرِف أنهم ارتكبوها والانتهاكات التي يُشتبَه في تورُّطهم فيها، ولكن في المقابل أخذت السلطات التي منحته العفو عهدًا عليه بأن يلتزم بالقانون نصًّا وروحًا، وقد قطع هذا العهد على نفسه بالنيابة عن نفسه وبالأصالة عن رفاقه. ولم يندم على هذا العهد إلا مرةً واحدة، وكان ذلك عندما أصبح جاري ليكسيفيلد تحت مراقَبته.

لم يحترم جاري القانون في حياته قط. كان رجلًا في الثلاثين من عمره، طويل القامة، وذا وجه واضح الملامح، وحسن المظهر نوعًا ما. كانت النساء يرينه ساحرًا جذَّابًا، وكن يُدركن ذلك من واقع تجارب شخصية مؤلمة معه؛ إذ كان من النوع القاسي المُتحجر القلب، وكان أناس في غاية اللطف يدعونه إلى منازلهم، حتى إنه وصل إلى مجلس إدارة شركة شهيرة في ويست إند.

كان أول لقاء جمع بين مانفريد وجاري على خلفية مسألة تافهة للغاية. كان السيد ليكسيفيلد مُنخرطًا في نقاش على إحدى نواصي شارع كيرزون حيث كانت شقته تقع هناك. كان مانفريد عائدًا في وقتٍ متأخر، ورأى رجلًا وامرأةً يتحادثان، وكان الرجل يتحدث بعنف، وكانت المرأة خائفة بعض الشيء. مرَّ بهما وهو يعتقد أنه شجارٌ من النوع الذي ينبغي ألَّا يأبه له الرجل الحكيم، ثم سمع صوت ضربة وصراخ خافت. التفت ورأى المرأة جاثيةً بجانب سور الممر المؤدي إلى قبو المنزل؛ ومن ثَم عاد بسرعة.

سأل: «هل ضربت المرأة؟»

«هذا ليس من شأنك.»

قلبه مانفريد من قدميه وأسقطه من أعلى سور المنزل. وعندما التفت كانت المرأة قد تبخَّرت.

قال مانفريد أسفًا: «كان بإمكاني قتله.» وبدا لليون جونزاليس أن الأمر لا يستدعي كل هذا الأسف الذي ظهر على وجه مانفريد.

«ولكنك لم تقتله، ما الذي حدث؟»

قال مانفريد مُعترفًا: «لما وجدته نهض على قدميه ولم ينكسر فيه شيء، انسحبت. لا بد أن أحترس من هذه الدوافع المفاجئة. لا بد أن تقدُّمي في العمر أثَّر في تقديري للأمور.»

إذا كان بويكارت لديه معرفةٌ تامة بعالم الجريمة القذر، فإن مانفريد كان موسوعةً حية لكل المُحتالين الأفَّاقين المُختبئين خلف الثياب الأنيقة، ولكن لسبب أو لآخر لم يكن السيد ليكسيفيلد ضمن نطاق معرفته. أجرى ليون تحريات؛ ومن ثَم أعدَّ تقريره.

«لقد طُرد من الهند وأستراليا. إنه «ليس مطلوبًا» إلا في نيوزيلندا في حال عودته إليها مرةً أخرى. تخصَّص في الجمع بين الزوجات من العائلات التي تمنعها سُمْعتها المرموقة من المجازَفة بفضيحة. ولا يعرفه مجتمع المُحتالين المتأنِّقين في لندن إلا من خلال الشائعات. لديه زوجةٌ حقيقيةٌ تبِعته إلى لندن، وربما كانت هي الدافع وراء زيارته إلى المنطقة.»

وصل السيد جاري ليكسيفيلد إلى مستوًى ملكي، وكان الحظ حليفه؛ إذ وصل إلى مونروفيا في سيدني دون جلبة وباسمٍ مُستعار. كان يملك السحر والجاذبية اللذين يُعتبران ثلاثة أرباع أصول اللص الحاذق. استطاع بسحره هذا أن يأخذ ما يقرُب من ثلاثة آلاف جنيه من جيوب أستراليين ثريين من أصحاب العقارات، وجذب إليه ابنة شخص ثالث بدت عليه هو الآخر مظاهر الثراء.

عندما وصل كان خاطبًا، وبفضل حسن حظه والعناية الإلهية أُصيبت عروسه المنتظرة بالمرض في يوم وصولها بالتهابٍ حادٍّ في الزائدة الدودية. وقبل أن تُغادر المَشفى الذي كانت تُقيم به عِلم أن أباها الذي كان مُحتالًا مُغتصبًا للأراضي، ولم يكن مليونيرًا من الأساس، يُواجه مشكلاتٍ ماليةً ضخمة.

ولكن الحظ حالَفه؛ إذ جنى ثروةً صغيرةً خلال زيارة إلى مونت كارلو وإن كان قد جناها بطُرقٍ غير سوية؛ فقد الْتَقى هناك بإلسا مونارتي التي تلقَّت تعاليمها في أحد

الأديرة، وفُتنت به بكل سهولة حين تودَّد إليها. أرسلتها أختها، التي لم يكن لها أقرباء سِواها، إلى سان ريمو، ومن الغريب أنها كانت تتعافى من مرضٍ ألمَّ بها، ثم ضلَّت الطريق من الحدود والتقت السيد ليكسيفيلد الوسيم — ولم يُفشِ عن هذا الاسم بالطبع — في الردهة الكبيرة للمَسكن. كانت بحاجة إلى تذكرة دخول؛ ومن ثَم تفضَّل جاري بشهامته بإحضارها. أخبرته عن أختها التي كانت مُديرة وشريكة في مصنعٍ كبير لتصميم الملابس في شارع لا بيه. وثقةً بثقةٍ أخبرها جاري عن ثراء والدَيه الأرستقراطيين، ووصف لها حياةً أسطوريةً مِثل حياتها.

عاد إلى لندن وحده، ووجد نفسه مقيَّدًا على نحوٍ مُزعج للغاية مع المرأة الوحيدة التي كانت الأنسب في العالم كي تحمل اسمه وهي جاكسون؛ وهي امرأةٌ عنيدة وإن كانت جميلة، ولم تكن له أي مشاعر خاصة، ولكنها كانت مُتلهفة لاسترداد القليل من الثروة التي بدَّدها من أجل طفليه المُهملين.

وفي لحظةٍ من لحظات العناد الشديد كاد أن يدفع مبلغًا جيدًا عن طِيب خاطر من أجل التخلص منها لولا بخله المتأصِّل فيه.

مرَّ أسبوع على تجربته الصادمة حين وجد نفسه مُلقًى على سورٍ مرتفع نوعًا ما في منطقةٍ كانت من حسن حظه سطحيةً، وظلَّ يعرج عندما جاء ليون جونزاليس، الذي كان يحقِّق في قضيته، بالقصة الكاملة لأفعاله السيئة.

قال مانفريد آسفًا: «لو كنت أعرف أنه هو لألقيته بمزيدٍ من القوة. الشيء الغريب أنه في اللحظة التي رفعته فيها — وتلك حيلة لن تنجح في اكتسابها مطلقًا يا ليون — عِلمت أنه إنسانٌ سيئ الخُلق. سنضطرُّ إلى إبقاء عيننا على السيد جاري ليكسيفيلد. أين يُقِيم؟»

قال ليون: «لديه شقةٌ فخمة في شارع جيرمين. قبل أن تُخبرني بأنه لا توجد شُققٌ فخمة في شارع جيرمين، أودُّ أن أقول إن الشقة تُوحي بمظاهر البذخ. لقد كنت مُهتمًّا أيَّما اهتمام بهذا الرجل، حتى إنني ذهبت إلى مقر سكوتلاند يارد وتحدَّثت مع ميدوز. إن ميدوز يعرف كل شيء عنه، ولكن ليس لديه دليل يَدِينه. إنه يمتلك أموالًا طائلة، ولديه حساب في بنك لندن آند ساوذرن، واشترى سيارةً عصر اليوم.»

أومأ مانفريد مفكرًا.

قال: «رجلٌ سيئ للغاية. أما من فرصة للوصول إلى زوجته؟ أظن أنها السيدة البائسة التي كانت معه.»

«إنها تعيش في شارع ليتل تيتشفيلد، وتُطلِق على نفسها اسم السيدة جاكسون، وربما هو اسم صديقنا هذا. ميدوز متأكدٌ من ذلك.»

كان السيد جاري ليكسيفيلد أكثر فطنةً من ألا يعلم أنه تحت المراقَبة، ولكن جرائمه كانت من النوع الذي يستعصي على الكشف. كان أسلوبه اللطيف وسيارته، بالإضافة إلى تدبيره المنظَّم لحادث لمركبه على أحد الروافد العليا لنهر التايمز، كل ذلك ضمِن له معارف وعضويةً فخرية في نادٍ نهري يقتصر رُواده على علية القوم؛ ومن هناك صار قابَ قوسين أو أدنى من منازل كان ليُحظَر عليه الاقتراب منها.

أمضى شهرًا مُربحًا لما أدخل اثنين من سماسرة البورصة الأثرياء في خفايا وطلاسم البوكر، التي لازَمه سوء الحظ فيها لخمس ليالٍ مُتتالية، وخسر حوالَي ٦٠٠ جنيه إسترليني لمُضيفيه الذين عبَّروا عن أسفهم تجاهه. لم تكن ثَمة ضرورة لاعتذارهم كما اتَّضح بعد ذلك؛ ففي اليومين السادس والسابع ربح ما يقرُب من ٥٠٠٠ جنيه إسترليني؛ الأمر الذي قد يبدو مُذهلًا ولا يُصدَّق، وترك مُضيفيه ولديهم انطباع أسف عن كَوْنه السبب في خسارتهم.

لما علم مانفريد بذلك، قال: «هذا مُثير للغاية.»

بعد ذلك، وفي ذات ليلة عندما كان ليكسيفيلد يتناول العشاء في فندق ريتز كارلتون مع شابٍّ تعرَّف عليه في وقتٍ قصير، رأى ثروته الكبرى.

سأل رفيقه بصوتٍ مُنخفض: «أتعرفها؟»

«أتقصد تلك السيدة؟ يا إلهي، نعم! أعرفها منذ سنوات. كانت تُقِيم مع أسرتي في سومرست؛ إنها مدام فيلاسكيز. إنها أرملة رجل برازيلي فاحش الثراء.»

نظر السيد ليكسيفيلد مرةً أخرى إلى السيدة الجميلة السمراء الجالسة على الطاولة المُجاورة. ربما كانت مُزْدانةً أكثر من اللازم قليلًا بالجواهر، على النحو الذي يُرضي أكثر الناس تأنقًا؛ فقد طوَّقت صفوفٌ من الأساور الماسية ذراعها من المعصم إلى آخر ذراعها، واستقرَّت على صدرها ألماسةٌ تلألأت بحجرٍ ضخم من الزمرد. كانت ترتدي ملابس رائعة وكأنها من العائلة الملكية.

تابَع مُخبره ثرثرته: «إنها فاحشة الثراء. أخبرني الكولونيل الذي أعمل لديه ويعرفها أكثر مني بكثيرٍ أن زوجها ترك لها ستة ملايين جنيه إسترليني. من الفساد أن يمتلك الناس كل هذا القدر من المال.»

كان جاري ليكسيفيلد يرى أن من الفساد أن يجد شخصٌ كل هذا القدر من المال ولا يستطيع «استقطاع» نصيبه منه.

قال: «أريد أن أقابلها.» وبعد دقيقة جرى التعارف بينهما، ونسي جاري تخطيطه لتجريد هذا الحارس الشاب من ماله في تلك الليلة في غمرة ما انتابه من إثارة وشوق بمقابلة صيد أكبر.

وجدها امرأةً جذَّابة إلى حدٍّ بعيد. كانت لغتها الإنجليزية جيدة، وإن كان بها قليل من الركاكة. بدت سعيدة بمقابلته. رقص معها أكثر من عشر مرات، وطلب منها أن تسمح له بزيارتها في الصباح، ولكنها كانت مغادرة إلى مسقط رأسها في سيتون ديفيريل.

قال بابتسامته الساحرة المعهودة: «شيءٌ غريب. سأتوجَّه إلى سيتون ديفيريل السبت القادم.»

والتقطت الطُّعم؛ ما أسعده كثيرًا. وفي ظهيرة يوم السبت انطلق بالسيارة إلى منزل هانفورد.

بعد أسبوع، جاء ليون بأخبارٍ مُفزِعة.

«لقد خطب هذا الرجل أرملةً ثرية من أمريكا الجنوبية يا جورج. لا يمكننا أن نسمح بتطور الأمر لأكثر من ذلك. لنعُد إلى عربدة الفوضى والخروج عن القانون. لنختطف هذا اللص ونضعه على سفينة لنقل الماشية. يوجد رجل في طريق دوك إيست إنديا سيُنجز المهمة مقابل خمسين جنيهًا.»

هزَّ مانفريد رأسه.

قال: «سأقابل ميدوز. لديَّ فكرةٌ يمكن أن تجعلنا نُمسك بهذا الشخص.»

لم يكن السيد جاري ليكسيفيلد يحلِّق فوق سبع سموات من الفرح والبهجة مِثلما هو مفترَض بين العُشاق، ولكنه كان راضيًا تمام الرضا عن نفسه وهو يُشاهد اللمسات الأخيرة تُوضَع على مائدة العشاء في شقته.

أضْناه إقناع السيدة فيلاسكيز؛ إذ أبدت شكًّا غير عادي، وطلبت منه أن يعرِّفها بوالديه اللذين كانا في تلك اللحظة يتولَّيان شئون أملاكهما الضخمة في كندا.

قالت وهي تهزُّ رأسها الجميل في ارتياب: «إنها خطوةٌ خطيرة للغاية يا عزيزي جاري. إنني أحبك بشدة بالطبع، ولكني أخاف من الرجال الذين يرغبون في المال فقط دون الحب.»

قال مُعترضًا بشدة: «عزيزتي، أنا لا أريد المال. لقد أطلعتك على دفتر شيكاتي. إنني أمتلك تسعة آلاف جنيه في البنك، بخلاف العقارات.»

تجاهلت هذا الأمر. كانت السيدة ذات طبع غريب، فلا تستقرُّ في حالةٍ مزاجيةٍ واحدة لأكثر من ساعة.

كانت قد جاءت إلى العشاء بصحبة وصيفة؛ كانت فتاة لا تتحدث كلمةً واحدة بالإنجليزية، وهذا ما أثار انزعاجه. كان السيد ليكسيفيلد رجلًا صبورًا للغاية؛ ما دفعه إلى إخفاء غضبه.

جلبت السيدة أخبارًا جعلته ينسى أمر الوصيفة التي لم يرتَح لها. كانا يحتسيان القهوة في غرفة الاستقبال الصغيرة المزجَّجة بالزخارف، حين أخبرته قائلةً:

«لقد التقيت رجلًا لطيفًا جدًّا اليوم. أتى إلى منزلي في الريف.»

لم يكن جاري يشعر بسعادةٍ غامرة، إلا أنه ابتسم قائلًا: «ليس لطيفًا فحسب، بل محظوظ أيضًا.»

ابتسمت قائلةً: «وتحدَّث عنك.»

سرعان ما تنبَّه جاري ليكسيفيلد؛ فلم يكن أحد في إنجلترا يعرفه جيدًا بما يكفي ليجعله محور حديثه. وإذا كان ذلك قد حدث فلا بد أن المناقشة لم تكن في صالحه بدرجةٍ كبيرة.

سأل: «من كان هذا الرجل؟»

«كان يتحدث الإسبانية بطلاقة، وله ابتسامةٌ تفيض بالبهجة! وقال العديد من الأشياء المُضحكة التي أضحكتني.»

سأل: «هل هو برازيلي؟»

هزَّت رأسها.

قالت: «في البرازيل نتحدث بالبرتغالية. لا، اسمه السيد جونزاليس.»

قال بسرعة: «جونزاليس؟ أليس هو ليون جونزاليس؟ واحد من هؤلاء الرجال؛ رجال العدالة الثلاثة؟»

رفعت حاجبيها في دهشة.

«هل تعرفهم؟»

ضحك.

«سمعت عنهم. أوغاد كان يجب شنقهم منذ سنوات. إنهم قتَلة ولصوص. يا لَجرأته التي جعلته يأتي لمقابلتك! أظنه قد قال عني أشياء سيئةً للغاية، أليس كذلك؟ في الحقيقة لقد كنت عدوًّا لهم لسنوات.»

ومضى يُخبرها بقصةٍ خيالية عن لقاءٍ سابقٍ جمعه مع الرجال الثلاثة، وأنصتت له بشدة.

قالت في النهاية: «يا لها من قصةٍ مُثيرة! بلى، لم يقل عنك سوى أنك رجلٌ سيئ، وأنك تريد مالي، وأنك ... ماذا قال؟ آه، من أرباب السوابق. استشطت غضبًا حقًّا، خاصةً لما أخبرني أن لديك زوجةً، وأنا أعرف أن هذا غير صحيح؛ لأنه ما كنت لتخدعني. سيأتي هذا السيد جونزاليس مرةً أخرى غدًا؛ فقد راقني حقًّا وقتما لم أكن غاضبة. هلَّا تناولت الغداء معك وأخبرك بما قاله؟»

غضب جاري، وانزعج انزعاجًا شديدًا. لم يكن من الصعب تحديد موقع وهُوية الرجل الذي اتخذ معه مِثل هذا الإجراء العاجل، وبمجرد تحديد الموقع قرَّر أن ينأى بنفسه عن هؤلاء الرجال الذين يعيشون خلف الباب ذي المثلَّث الفضي. كان لديه من الحكمة ما يكفي لكي يعرف أنه ينبغي ألا يستعديهم، وتمنَّى من أعماق قلبه ألا يكون تعقبهم له حثيثًا مِثلما فعل بينما كان يسعى لتحديد هُويتهم.

غيَّر موضوع المحادثة، وأصبح أحنَّ العاشقين وأكثرهم لوعة واشتياقًا على الرغم من وجود عذول. استجمع كل أساليبه وخبرته في تلك اللحظة؛ إذ كانت بين يديه غنيمةٌ تفُوق أحلامه.

كان هدفه المباشر الحصول على مبلغ ٢٠ ألف جنيه، جاء إلى السيدة على هيئة أرباح أسهم. أظهرت قدرًا من العجز وقلة الحيلة فيما يتعلَّق بالمال، على الرغم من شكوكه في أن لديها قدرًا كبيرًا من الحنكة والدهاء. كان جاري ليكسيفيلد يستطيع الحديث في أمور السوق والتجارة بعفوية وطلاقة كبيرين؛ فقد كانت تلك هي دراسته الأثيرة إليه، وكانت سبب دماره المستمر كذلك. ما من لص لم يفتخر بحنكته في الأمور المالية، وكان جاري يدخل ويخرج من السوق من وقت لآخر خلال حياته القصيرة والمشينة، مُتسببًا لنفسه في نتائج كارثية.

أوصل السيدة ومُرافِقتها الصامتة إلى السيارة ثم عاد، وحين اختلى بنفسه في شقته جلس يفكر في التهديد الجديد والمُزعج الذي تمثَّل في الاهتمام الذي أظهره رجال العدالة الثلاثة بأنشطته.

استيقظ مُتأخرًا كعادته، وكان يرتدي بيجامته حينما رنَّ جرس الهاتف. أخبره صوت عامل تحويل المكالمات الهاتفية بوجود مكالمة دولية له، وكانت المكالمات الدولية في تلك الأيام تعني أن فيلاسكيز الجميلة هي المتصل.

قالت بصوتٍ مُتلهف: «لقد رأيت جونزاليس. جاءني وأنا على مائدة الإفطار. يقول إنهم سيُلقون القبض عليك غدًا بسبب فعلة ارتكبتها في أستراليا. وتقدَّم اليوم أيضًا بطلب لتجميد حسابك ومنع سحب أموالك من البنك.»

قال جاري بسرعة: «تجميد حسابي؟ هل أنت متأكدة؟»

«متأكدة تمامًا! سيذهبون إلى أحد القضاة في غرفة المشورة ويحصلون على الإذن. هل آتي على الغداء؟»

قال بسرعة: «بالتأكيد، الساعة الواحدة.» نظر إلى الساعة الصغيرة على رف المدفأة؛ كانت الساعة الحادية عشرة والنصف.

«وفيما يتعلَّق باستثماراتك أعتقد أنه يمكنني إصلاح كل شيء اليوم. أحضِرْ دفتر الشيكات معك.»

لم يصبر حتى تُنهي هي المحادَثة، وفي النهاية كان هو من أنهاها على نحوٍ مُفاجئ نوعًا ما، وأغلق السماعة سريعًا وطار إلى غرفة نومه وبدأ في ارتداء ملابسه.

كان البنك في شارع فليت، وبدت الرحلة إليه بلا نهاية. ومن سوء حظه أن شارع فليت كان شديد القرب من المحكمة. ربما يكون الأمر القضائي قد استُصدر بالفعل.

دفع الشيك من أسفل الشبكة النحاسية فوق مِنضدة الصرَّاف، وحبس أنفاسه وهو يسلِّم الورقة إلى المُحاسب كي يتحقق منها. وبعد لحظات انتابته راحةٌ غامرة لما فتح الصرَّاف الدرج، وأخرج حفنةً من الأوراق المالية، وعدَّ المبلغ المدوَّن على الشيك.

قال: «هذا الشيك لا يترك سوى بضع جنيهات في حسابك يا سيد ليكسيفيلد.»

جاري: «أعلم، سأُودِع شيكًا بمبلغٍ كبير في الحساب بعد الغداء، وأريد منك الحصول على مخالصةٍ خاصة.»

عندها أدرك أنه بحلول ذلك الوقت سيكون الأمر القضائي نافذًا. لا بد أن يجد طريقةً أخرى لصرف شيك السيدة فيلاسكيز.

شعر براحةٍ كبيرة لدرجة أنه لم يستطع التحدث بهدوء. حصل على مبلغٍ أقل قليلًا من ٩٠٠٠ جنيه، وأسرع عائدًا إلى شارع جيرمين، وتزامَن وصوله مع وصول السيدة فيلاسكيز.

قالت بأسلوب حديثها المُتقطع: «كم كان ذلك الرجل فكاهيًّا! ولا يخفى عليك ذلك! ظننت أنه يجب أن أضحك في وجهه. لقد أخبرني أنك لن تكون هنا في الغد، وهو ما أراه عبثًا!»

قال جاري بنبرة هدوء: «إنها عملية ابتزاز. لا تشغلي بالك بجونزاليس. لقد ذهبت إلى شرطة سكوتلاند يارد للإبلاغ عنه. والآن، فيما يتعلَّق بهذه الأسهم ...»

كان عليهما الانتظار عشر دقائق قبل أن يصبح الغداء جاهزًا، وكانت تلك الدقائق العشر مليئة بالعديد من النقاشات. أحضرت دفتر الشيكات الخاص بها، ولكن تمكَّن منها

الخوف قليلًا. فكَّر أن زيارة جونزاليس ربما تكون قد أثارت في نفسها بعض الشكوك. لم تكن مستعدة لاستثمار ٢٠ ألف جنيه إسترليني، هو كل ما تملكه. أخرج الأوراق ومستندات الميزانيات العمومية التي كان يعتزم إطلاعها عليها في الليلة السابقة، وشرح الموقف المالي السليم للشركة التي يرغب في أن تستثمر فيها أموالها، وكانت لديه قدرة على الشرح بسهولة واستيفاء، والتي كانت من أنجح الشركات في راند.

قال بنبرة انبهار: «سترتفع قيمة هذه الأسهم في غضون أربع وعشرين ساعة بنسبة عشرة بالمائة على الأقل. لقد حجزت مجموعة أسهم لك، ولكن يجب أن أشتريها بعد ظهر اليوم. وفِكرتي أن تُحضري لي شيكًا غير مسطَّر بعد الغداء مباشرةً. سأشتري الأسهم وأُعيدُ الشيك إليك مرةً أخرى.»

سألت ببراءة: «ولكن لماذا لا أشتريها أنا بنفسي؟»

قال جاري بجديةٍ شديدة: «هذه مسألةٌ شخصية. السيد جون يسمح لي بشراء هذه الأسهم باعتبار ذلك خدمةً شخصيةً كبيرة منه.»

ومن حسن حظه أن قبِلت هذا الضمان، وبالفعل كتبت شيكًا بقيمة ١٢٥٠٠ جنيه إسترليني على مائدة الغداء، واستطاع بالكاد أن يستجمع ما لديه من صبر حتى ينتهي من وجبته.

لم يكن أصحاب الشقق التي كان يقضي فيها فترة سكنه القصيرة أسخياء فيما يوفِّرونه له من الطعام، ولكن الوقت القصير الذي مضى قبل أن تأتي مرحلة التحلية كان عصيبًا؛ فقد عادت للسؤال مرةً أخرى عن استثماراتها وبدت مُتشككة، وأشارت مرةً أخرى إلى جونزاليس وتحذيره لها.

«ربما من الأفضل أن أنتظر يومًا، هل تتفق معي؟»

جاري: «عزيزتي، هذا عبث! أعتقد حقًّا أن هذا الرجل الذي جاءكِ هذا الصباح قد أخافك! سأجعله يندم على ذلك!»

همَّ بالنهوض عن المائدة، ولكنها أمسكت بذراعه.

توسَّلت إليه قائلةً: «أرجو ألا تتعجل.» ومن ثَم وافق على مضض. لم يكن البنك يُغلق أبوابه حتى الساعة الثالثة؛ ومن ثَم كان لا يزال الوقت كافيًا له للوصول إلى دوفر بالسيارة واللحاق بقارب الساعة الخامسة.

لكن البنك كان يقع في المدينة، ويجب ألا يترك هامشًا ضيقًا من الوقت؛ فاستأذن للحظة وخرج باحثًا عن الخادم الذي أحضره معه، وأعطاه بعض التعليمات البسيطة والعاجلة. ولما عاد وجدها تطلع على الميزانية العمومية.

قالت: «أنا لا أفهم شيئًا في تلك الأمور.» ورفعت رأسها فجأةً. ولما أُغلق الباب بقوةٍ سألت: «ماذا كنت تفعل؟»

«إنه خادمي؛ أرسلته في مهمةٍ صغيرة.»

ضحكت والقلق ينخر بداخلها.

قالت وهي تدفع قهوته إليه: «أنا في عجالةٍ من أمري كما تقولون. الآن أخبِرْني مرةً أخرى يا عزيزي جاري، ما معنى سهم بدون قسيمة ربح؟»

شرح المسألة شرحًا مطوَّلًا، واستمعت إليه مُنتبهةً. وبينما كانت لا تزال تستمع إليه همَّ بالنهوض على قدميه وهو يشعر بغصةٍ مُفاجئة واختناق؛ ليسقط على الكرسي ثم يتدحرج على الأرض بغير حول منه ولا قوة. أخذت السيدة فيلاسكيز فنجان قهوته الذي فرغ نصفه، وحملته على مهل إلى المطبخ، وأفرغت محتوياته في الحوض. لقد وفَّر عليها السيد جاري ليكسيفيلد قدرًا كبيرًا من المتاعب حين أرسل خادمه إلى الخارج.

دحرجت الرجل الفاقد للوعي على ظهره، وبحثت بسرعة وبيدٍ ماهرة جيبًا تلو الآخر حتى عثرت على المغلف السمين الذي وضع فيه جاري أوراقه النقدية.

سمعت طَرقًا على الباب الخارجي. خرجت دون تردُّد، وفتحت الباب للحارس الشاب الذي تفضَّل بتعريف السيد ليكسيفيلد بها.

قالت: «كل شيء على ما يُرام، ذهب الخادم. تفضَّل مائتَي الجنيه الخاصة بك يا توني، وأشكرك شكرًا جزيلًا.»

ابتسم توني.

«أضمرت له الكراهية لأنه ظنَّني أبله. هؤلاء المُحتالون الأستراليون ...»

قالت في اقتضاب: «لا تتكلم، خذ المال.»

عادت إلى غرفة الطعام وفكَّت زر ياقة جاري ورابطة عنقه، ووضعت وسادةً تحت رأسه وفتحت النافذة. كان متوقعًا أن يستفيق بعض الشيء في غضون عشرين دقيقة، وسيكون خادمه قد عاد.

وجدت الشيك الذي أعطَتْه إياه وحرقته في الموقد الفارغ، ثم ألقت نظرةً أخيرة حولها وغادرت.

كان هناك رجلٌ طويل ينتظر خارج المطار. رأتْه يشير إلى سائق السيارة للوقوف.

قال مانفريد مُتهكمًا: «وصلتني رسالتك. أنا واثقٌ من أنك حصلت على غنيمةٍ كبيرة، أليس كذلك؟ أنا مَدين لك بمبلغ خمسمائة جنيه.»

هزَّت رأسها ضاحكةً. كانت لا تزال البرازيلية الجميلة ذات البشرة القمحية، كان الأمر سيستغرق أسابيع حتى يزول الصباغ من وجهها.

«لا، شكرًا يا سيد مانفريد. أدَّيت المهمة بدافعٍ من الحب، وقد حصلت على مبلغٍ كبير من المال. والمنزل المفروش الذي أخذته في الريف لم يكن مكلفًا للغاية. أوه، إن الأمر مُجزٍ للغاية لي.» أخذت النقود التي أعطاها إياها ووضعتها في حقيبتها وعينها على الطائرة المنتظرة. «كما تعلم يا سيد مانفريد، عرفت جاري منذ مدة طويلة عن طريق تناقُل الأحاديث. وأرسلت أختي إلى مونت كارلو كي تتحسَّن صحتها. وقد وجدت جاري هي أيضًا.»

فهم مانفريد. انتظر حتى عبرت الطائرة الضباب واختفت عن الأنظار، ثم عاد إلى شارع كيرزون وهو راضٍ تمامًا.

لم تذكر الصحف المسائية شيئًا عن السرقة التي وقعت في شارع جيرمين، وهو ما كان مفهومًا. لقد كان السيد جاري ليكسيفيلد أبيًّا مُتغطرسًا.

الفصل الحادي عشر

# أوهام عاملة الآلة الكاتبة

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «توينتي ستوري»، عدد نوفمبر ١٩٢٧.

* * *

كل ستة أشهر تقريبًا ينشغل بال رايموند بويكارت، ويبدأ في نخز الأركان الغريبة، وفتح صناديق وخزانات المستندات القديمة. قبل أيام قليلة من حادث «القتل» الذي شهده شارع كيرزون، ظهر في غرفة الطعام ومعه مجموعةٌ من الأوراق القديمة، ووضعها على ذلك الجزء من الطاولة غير المخصَّص لتناول العشاء.

نظر ليون جونزاليس وتذمَّر.

لم يبتسم جورج مانفريد حتى، على الرغم من أنه كان يضحك بداخله.

قال بويكارت مُعتذرًا: «أعتذر حقًّا عن إزعاجكم يا صديقيَّ العزيزين، ولكن يجب ترتيب هذه الأوراق. لقد وجدت مجموعةً من الخطابات يرجع تاريخها إلى خمسة أعوام؛ أي وقت أن كانت الوكالة لا تزال ناشئة.»

قال ليون مُقترحًا وهو يعود إلى كتابه: «احرقها، لن تُفيدك في شيء بعد الآن على أي حال!»

لم يقُل بويكارت شيئًا. أخذ يتنقل بجدية بين الأوراق ويقرؤها سريعًا، واضعًا الخطاب الذي يقرؤه جانبًا بحيث تتضاءل كومة وتتنامى أخرى.

ليون: «وأظن أنك عندما تنتهي ستُعيد الأوراق إلى حيث وجدتها، أليس كذلك؟»

لم يُجِب بويكارت؛ فقد كان عاكفًا على قراءة خطاب.

قال: «رسالةٌ غريبة، لا أذكر أنني قد قرأتها من قبل.»
سأل جورج مانفريد: «ما هذه يا رايموند؟» قرأ رايموند:

**المرسَل إليه: وكالة سيلفر تريانجل. خاص**
**السادة**

رأيت أسماءكم حين ذكرت في إحدى القضايا كمحقِّقين يمكن الوثوق بكم في عملٍ ذي طبيعة سرية. سأكون سعيدًا لو قُمتم بعمل تحريات والكشف لي عن التوقعات المحتملة لحقول النفط الفارسية، وأودُّ معرفة إذا كان بإمكانكم التفاوض من أجل بيع ٩٦٧ سهمًا باسمي. السبب في عدم رغبتي في الاستعانة بوسيط أسهم عادي هو كثرة الحيتان في هذه المهنه. كذلك أرجو أن تُخبروني إن كان يمكن بيع أسهم شركة أوكاما بسكويت (الأمريكية) أم لا. أرجو الرد في أقرب وقت.

مع خالص تحياتي
جي روك

قال ليون على الفور: «أتذكَّر ذلك الخطاب. كان يحتوي على أخطاءٍ إملائية في كلمتَي «تفاوض» و«مهنة». ألا تتذكر يا جورج حين قلت إن هذا الشخص سرق بعض الأسهم ويريد أن نكون نحن الوسيلة التي يتخلص بها من تلك الأسهم المسروقة؟»

أومأ مانفريد.

قال ليون بصوتٍ مُنخفض: «روك. لا، لم أقابل السيد روك من قبل. لقد أرسل الخطاب من ملبورن وكتب رقم صندوق بريد وعنوانًا تلغرافيًّا، أليس كذلك؟ هل أرسل لنا خطاباتٍ أخرى؟ أظنُّه لم يرسل.»

لم يستطع أيٌّ من الثلاثة تذكر أي مراسَلات أخرى. لقد مرَّت الرسالة مرور الكرام مع الرسائل الأخرى، وربما بقيت منسيَّة إلى الأبد، لولا ذاكرة ليون الخارقة التي تمكِّنه من تذكُّر الأرقام والأخطاء الإملائية.

بعدها وفي ليلةٍ من الليالي:

أُطلقت صافرة الشرطة في شارع كيرزون. سمع جونزاليس، الذي كان ينام أمام المنزل، الصوت وكأنه في حلم، وكان يقف بجوار النافذة المفتوحة قبل أن يُفيق. انطلق

صوت الصافرة مرةً أخرى، ثم سمع جونزاليس صوت أقدام تُهرول. رأى فتاةً تجري عبر الرصيف. تجاوزت المنزل ثم وقفت، ثم عادت راكضةً إلى الخلف وتوقَّفت مرةً أخرى.

نزل ليون درجات السُّلم الضيِّق مُتخطيًا درجتين في المرة، وأزال قفل الباب الأمامي وفتحه على مصراعيه. وقفت الهاربة أمامه مباشرةً.

قال ليون: «ادخلي هنا، بسرعة!»

تردَّدت لثانية وتراجعت إلى الوراء في الممر ثم انتظرت. جذبها ليون من ذراعها وسحبها إلى الردهة.

قال: «لا داعي للخوف مني أو من صديقيَّ.»

ولكنه شعر بالذراع التي في يده تُجاهد للتحرر من قبضته. «دعني أذهب من فضلك، لا أريد البقاء هنا!»

دفعها ليون إلى الغرفة الخلفية وأنار المصباح.

قال بنبرته الهادئة مُتودِّدًا إليها: «لقد رأيتِ شرطيًّا يجري باتجاهك؛ وهذا سبب عودتك. اجلسي واستريحي. تبدين مُتعَبة!»

بدأت تتحدث بصوتٍ مُرتعش: «أنا بريئة!»

ربت على كتفها.

«بالطبع بريئة. أما أنا، فعلى النقيض منك؛ فأنا مُذنِب؛ لأنك سواء كنت بريئة أم لا فلا شك في أنني أساعد هاربةً من العدالة.»

كانت الفتاة في سنٍّ صغيرة، بالكاد تتجاوز سن الطفولة. كان وجهها الجميل شاحبًا ومُتعَبًا. كانت ترتدي ملابس أنيقة، ولكنها ليست باهظة الثمن، ورأى ليون شيئًا غريبًا أدهشه، حين وجد خاتمًا من الزمرد في إصبعها؛ فلو كان فص الخاتم حقيقيًّا فلا بد أنه يُساوي مئات الجنيهات. نظر إلى الساعة، كانت قد تجاوزت الثانية ببضع دقائق. وعندئذٍ نما إلى سمعهما صوت أقدام مُتسارعة وثقيلة.

تساءلت في خوف: «هل رآني أحد وأنا أدخل؟»

«لم يرَكِ أحد. والآن، أخبريني ما المشكلة.» جعل الخطر والخوف أوصالها مشدودةً من التوتر الذي كاد يُسيطر عليها بالكامل. ظهرت ردة فعلها الآن، حين لم تنفكَّ عن الارتعاش. كانت الرعشة تَسْري في الكتفين واليدين والجسد بأكمله على نحوٍ يُثير الشفقة. كانت تبكي دون صوت وشفتاها ترتجفان، وفي تلك اللحظة كانت عاجزةً عن التعبير عما بداخلها. سكب ليون ماءً في كوب ورفعه إلى أسنانها التي تصطكُّ ببعضها. لو كان الآخران

قد سمعاه فلم يكن لتتوافر لديهما النية في النزول لتقصِّي الأمر. أما ليون جونزاليس، فكان فضوله يُضرَب به المثل في ذلك المنزل؛ فكان يمكن لأي مشاجَرة في منتصف الليل أن تُخرجه من السرير إلى الشارع.

بعد فترة كانت قد هدأت بما يكفي لتسرد قصتها، ولم تكن القصة التي توقَّعها.

«اسمي فارير؛ إلين فارير. أعمل كاتبة على الآلة الكاتبة لدى وكالة ميس ليولي للآلة الكاتبة. عادةً ما توجد فتاتان في نوبة العمل؛ إحداهن ذات خبرة مُتقدمة، ولكن الآنسة ليه غادرت إلى منزلها مُبكرًا. من المفترَض أن تعمل الوكالة طوال الليل، ولكننا في الواقع نُغلق في حوالَي الساعة الواحدة صباحًا. معظم العمل لدينا مُرتبط بالمسرح. بعد انتهاء الليلة الأولى لعرضٍ مسرحي، غالبًا ما يتوجب إجراء تغييرات معيَّنة في النص، وفي بعض الأحيان يتم الاتفاق على عقودٍ جديدة على العشاء، ونحن من نعدُّ المسوَّدات الأولية لها. وفي أحيانٍ أخرى يقتصر العمل على كتابة الخطابات. أعرف جميع المُديرين الكبار، وغالبًا ما أذهب إلى مكاتبهم في وقتٍ مُتأخر كي أُنجز لهم بعض الأعمال. بالطبع، لا نذهب مطلقًا إلى غرباء ولدينا في المكتب بوابٌ يعمل مرسالًا أيضًا؛ ليضمن عدم تعرُّضنا لأي مضايَقات. في الساعة الثانية عشرة تلقَّيت اتصالًا من السيد جراسلي من مسرح أورفيوم يسألني إن كان بإمكاني كتابة خطابين له. أرسل لي سيارته وذهبت إلى شقته في شارع كيرزون. غير مسموح لنا بالذهاب إلى منازل عملائنا الشخصية، ولكني كنت أعلم أن السيد جراسلي عميل لدينا على الرغم من أنني لم أقابله من قبل.»

كثيرًا ما كان السيد ليون جونزاليس يرى سيارة السيد جيسي جراسلي الصفراء البرَّاقة؛ فقد كان هذا المُدير المسرحي البارز يعيش في مجمع للشقق الفخمة في شارع كيرزون، وكان يشغل الطابق الأول، ويدفع — كما اكتشف ليون الذي كان فضوله لا يُشبَع — ٣٠٠٠ جنيه إسترليني في السنة. كان قد جاء إلى لندن منذ ثلاثة أعوام، واستأجر مسرح أورفيوم ووضع أموالًا في ستة أعمال فنية فشل معظمها.

سأل: «كم كان الوقت حينئذٍ؟»

قالت الفتاة: «الواحدة إلا الربع. وصلت إلى شارع كيرزون بعد ربع ساعة تقريبًا. كان لديَّ بعض الأعمال التي يجب أن أُنجزها في المكتب قبل أن أُغادر، كما أنه أخبرني أنه لا داعي للعجلة. طرقت الباب وأدخلني السيد جراسلي. وجدته مُرتديًا ملابس السهرة، ويبدو وكأنه آتٍ من حفل. رأيت زهرةً بيضاء كبيرة في عروة معطفه الطويل. لم أرَ خدمًا،

وأدركت حينها أنه لا يوجد أحد في الشقة. قادَني إلى غرفة مكتبه وكانت غرفةً كبيرة، وسحب كرسيًّا إلى طاولةٍ صغيرة بجانب مكتبه. لا أعرف ما الذي حدث بالضبط. أتذكَّر أنني جلست وأخرجت مفكرتي من الحقيبة وفتحتها، وانحنيت بحثًا عن قلم رصاص في الحقيبة، ثم سمعت تأوُّهًا. ولما نظرت رأيت السيد جراسلي يضطجع على الكرسي وتوجد علامةٌ حمراء على قميصه الأبيض من الأمام. كان الموقف مروِّعًا!»

ليون: «ألم تسمعي أي صوت آخر، كصوت رصاص؟»

هزَّت رأسها.

قالت: «لم أستطع التحرك من الرعب. بعد ذلك سمعت شخصًا يصرخ. ولما نظرت حولي رأيت سيدةً ترتدي ملابس جميلة للغاية وتقف في الطرقة. سألت: «ما الذي فعلتِه به؟ أيتها المرأة الشنيعة، لقد قتلتِه!» ذُعرت لدرجة أنني لم أستطع الكلام، ولا بد أنني قد انتابتني حالةٌ من الهلع؛ إذ جريت وتجاوزتها وخرجت من الباب الأمامي.»

سأل ليون: «هل كان الباب مفتوحًا؟»

قطَّبت جبينها.

«نعم، كان مفتوحًا. أظن أن السيدة هي من تركته مفتوحًا. سمعت شخصًا يُطلِق صافرة الشرطة، ولكني لا أتذكَّر كيف نزلت على السُّلم أو خرجت إلى الشارع.» ثم سألت وهي لا تتمالك نفسها: «لن تتخلى عني، أليس كذلك؟»

انحنى وربت على يدها.

قال بنبرةٍ رقيقة: «صديقتي الصغيرة، ليس هناك ما تخشين منه. ابقَي هنا ريثما أرتدي ملابسي، ثم سننزل أنا وأنت إلى شرطة سكوتلاند يارد كي تُخبريهم بكل ما تعرفين.»

«ولكن لا أستطيع. سيُلقون القبض عليَّ!»

كانت على شفير حالة من الهستيريا، وربما ارتكب خطأً لو جادَلها.

«يا إلهي، شيءٌ مروِّع. أنا أكره لندن. ليتني لم أترك أستراليا. الكلاب أولًا ثم الرجل الأسود، والآن هذه ...»

ذُهِل ليون، ولكن لم تكن هذه اللحظة المناسبة لاستجوابها. كان ما عليه أن يفعله حينها هو تهدئتها لفهم الموقف.

«ألا تعلمين أنهم لن يُلقوا اللوم عليك، وأن قصتك هذه لا تجعل أي ضابط شرطة في العالم يفكر في الاشتباه بك؟»

قالت: «ولكني هربت.»

قال وهو يحاول تهدئتها: «بالطبع هربتِ. ولو كنت مكانك لربما هربت أنا أيضًا. انتظري هنا فحسب.»

لم يكَد يرتدي نصف ملابسه حتى سمع صوت الباب الأمامي يُغلَق بقوة؛ ومن ثَم جرى على السُّلم ليجد الفتاة قد اختفت.

لما دخل إلى الغرفة وجد مانفريد مُستيقظًا، وروى له القصة.

قاطَع اعتذار ليون قائلًا: «لا، لا أظن أن عدم استدعائك لي في وقتٍ مبكر أمرٌ يدعو إلى الأسف. لم يكن بإمكاننا احتجازها تحت أي ظرف. أنت تعرف أين تعمل. حاوِل الوصول إلى وكالة ليولي عبر الهاتف.»

وجد ليون رقم الهاتف في الدليل، ولكن لم يردَّ أحد على اتصاله.

حين انتهى من ارتداء ملابسه نزل إلى الشارع، واتخذ طريقه إلى مجمع الشقق بشارع كيرزون. تفاجأ لما لم يجد شرطي حراسة على الباب على الرغم من أنه رأى شرطيًّا عند ناصية الشارع، ولم يجد أي دليل على حدوث مأساة. وجد الباب الأمامي للشقة مُقفَلًا، ولكن الجدار كان به عدد من أزرار الأجراس الصغيرة، وبدا واضحًا أن كل جرس منها يتصل بشقة من الشقق. ولما وجد الزر الذي يحمل اسم جراسلي وكاد أن يقرع الجرس، وجد الشرطي الذي كان قد رآه يعبر الطريق من الجانب الآخر في هدوء. من الواضح أنه كان يعرف ليون.

قال: «مساء الخير يا سيد جونزاليس. ألم يكن أنت من أطلق صافرة الشرطة؟»

«نعم، ولكني سمعتها.»

قال الشرطي: «سمعتها أنا وثلاثة أو أربعة من زملائي. إننا نجوب هذه الشوارع منذ ربع ساعة، ولكننا لم نعثر على مَن أطلقها.»

«ربما سيُمكنني مساعدتك.»

في تلك اللحظة سمع قفل الباب يُفتَح، وكاد يسقط لما رأى أن الشخص الذي فتح له الباب هو جراسلي نفسه. كان يرتدي الروب ونصف سيجار في جانب فمه.

قال مُتفاجئًا: «مرحبًا! هل هناك مشكلة؟»

لما استفاق ليون من المفاجأة، قال: «هل يمكنني مقابلتك لبضع دقائق؟»

قال «الرجل الميت»: «بالتأكيد، على الرغم من أنني لا أحب استقبال زائرين في هذا الوقت. تفضَّلْ بالدخول.»

تبعه ليون مُتعجبًا على السُّلم إلى الطابق الأول. لم يرَ خدمًا، ولكن لم يكن يوجد أي دليل يربط المكان بالمشهد الدرامي الذي وصفته الفتاة. بمجرد أن دخلا إلى غرفة مكتب كبيرة روى ليون قصته. لما انتهى هزَّ جراسلي رأسه.

«تلك الفتاة مجنونة! لقد اتصلت بها بالفعل، وفي الحقيقة ظننتها هي حين قرعت أنت جرس الباب. أؤكد لك أنها لم تكن هنا الليلة. نعم، سمعت صافرة الشرطة، ولكني لا أُقحم نفسي مطلقًا في تلك المشاكل التي تقع في منتصف الليل.» كان ينظر إلى ليون بنظراتٍ حادَّة. «أنت واحد من رجال العدالة الثلاثة، ألست أنت السيد جونزاليس؟ ما شكل تلك الفتاة؟»

وصفها ليون، وهزَّ المُدير المسرحي رأسه مرةً أخرى.

قال: «لم أسمع عنها مطلقًا. أخشى أنك قد وقعت ضحيةً لخدعة يا سيد جونزاليس.»

عاد ليون كي ينضمَّ إلى صديقيه في حيرةٍ بالغة.

في صباح اليوم التالي ذهب إلى وكالة ليولي، التي كان يعرف من سُمعتها أنها مؤسسةٌ ذات إدارة جيدة، وتحادث مع صاحبتها العزباء الرقيقة الحاشية. كان عليه أن يتوخى قدرًا جيدًا من الحذر؛ إذ كان حريصًا أشد الحرص لئلا يتسبَّب في مشكلة للفتاة. لحسن الحظ، كان يعرف عميلًا مُهمًّا لدى وكالة الآنسة ليولي، وتمكَّن من استخدام هذا الرجل غير المقصود كأداة لاستخلاص المعلومات التي يريدها.

قالت: «الآنسة فارير تعمل في المناوَبة الليلية هذا الأسبوع، ولن تكون هنا حتى المساء. إنها تعمل لدينا منذ شهر تقريبًا.»

«منذ متى والسيد جراسلي عميل لديكم؟»

قالت مُبتسمةً: «المدة ذاتها بالضبط. أظن أنه يُعجبه عمل الآنسة فارير؛ لأنه قبل ذلك كان يُرسل كل عمله إلى وكالة دانتون التي كانت تعمل لديها، وحوَّل أعماله إلى وكالتنا لما جاءت هي للعمل لدينا.»

«هل تعرفين أي شيء عنها؟»

تردَّدت المرأة.

«إنها أسترالية. أعتقد أن أسرتها كانت فاحشة الثراء في وقتٍ ما. لم تقُل لي أي شيء مطلقًا عن مشاكلها، ولكن أعلم أنها ستحصل على مبلغٍ كبير من المال يومًا ما. واحد من الشركاء في شركة «كولجيت» للمحاماة جاء لمقابلتها ذات مرة.»

تمكَّن ليون من الحصول على عنوان الفتاة، ثم ذهب إلى المدينة للعثور على السادة أصحاب شركة «كولجيت». كان الحظ حليفه؛ لأن شركة كولجيت استعانت برجال العدالة الثلاثة في عدة مناسبات، وكانت مهمةٌ واحدة على الأقل من المهام التي أوكلوها إليهم ذات طابع حسَّاس للغاية.

كانت واحدة من تلك الشركات القديمة التي توجد مكاتبها في منطقة بيدفورد رو، وعلى الرغم من أنها كانت تُعرَف عمومًا باسم «كولجيت» فقد كانت تتألف من سبعة شركاء، كُتبت أسماؤهم جميعًا على اللوحة النحاسية أمام المكتب.

كان السيد كولجيت نفسه في الستين من عمره، من النوع الذي يتحفظ في الكلام في البداية. اهتدى ليون إلى أن يُخبره بما حدث في الليلة الماضية. وتفاجأ ليون لما رأى التغير المُفاجئ الذي طرأ على وجه المحامي.

قال: «هذا سيئ للغاية، سيئ للغاية حقًّا، ولكن للأسف ليس لديَّ ما يمكن أن أقوله غير ما تعلمه أنت.»

ليون: «ما السوء في الأمر؟»

زمَّ المحامي شفتيه مفكرًا.

«أنت تفهم أنها ليست من عملائنا، على الرغم من أننا نمثِّل شركة ملبورن للمحاماة التي تتولى قضايا تلك الفتاة. لقد مات والدها في مستشفًى للأمراض العقلية، وترك الأمور معقَّدةً خلفه، لكن خلال السنوات الثلاث الماضية ارتفعت قيمة بعض ممتلكاته على نحوٍ ضخم للغاية، ولا يوجد سببٌ يجعل هذه الشابَّة تعمل على الإطلاق إلا لأنها ترغب في الابتعاد عن مسرح هذه المشاكل العائلية على حسب ظني، وأنها مضطرَّة للعمل كي تشغل عقلها. تصادف أن عِلمت أن وصمة الجنون تسبِّب محنةً حقيقية للفتاة، وأظن أنها جاءت إلى إنجلترا بناءً على نصيحة من قريبها الوحيد على أمل أن تغيير البيئة المحيطة سيُخرج من عقلها تلك المحنة التي تؤرِّق حياتها.»

«ولكن هل أتت لرؤيتك؟»

هزَّ المحامي رأسه.

«زارها أحد عملائي. أحد الممتلكات في سيدني التي سقطت سهوًا في التسوية الخاصة بممتلكات والدها عُرضت للبيع. يبدو أنه يمتلك عُشْر أسهمها. حاولنا الاتصال بمنفِّذ الوصية، السيد فلين، ولكننا لم نستطع الوصول إليه نظرًا لسفره إلى الشرق؛ ومن ثَم حصلنا على توقيع الفتاة لنقل الملكية.»

«فلين؟»

كان السيد كولجيت كثير الأعباء، وكان يلمِّح بذلك كثيرًا؛ ومن ثَم بدأ يُظهر قليلًا من الجزع.

«إنه ابن عم الراحل جوزيف فارير؛ القريب الوحيد الآخر. في الحقيقة، كان فارير يُقِيم في غرب أستراليا عند ابن عمه قبل أن يُصاب بالجنون مباشرةً.»

أصبح لدى ليون تصوُّر، ولكن على الرغم من وضوحه لم يستطع سد الفجوات في القصة التي كان يراها غريبة وغير مألوفة.

قال المحامي: «انطباعي الخاص، وأقول لك ذلك بثقةٍ تامة، هو أن تلك الفتاة ليست ...» وضرب على جبهته. «لقد أخبرت الكاتب لديَّ — وهو رجلٌ ماهر في كسب ثقة الشباب — أن رجلًا أسود ظل يتبعها لأسابيع، وفي مناسبةٍ أخرى كان يتبعها كلبُ صيد أسود. من الواضح أن كلب الصيد هذا كان يظهر ولا يتركها أبدًا كلما خرجت للتمشية يوم السبت كعادتها. على حسب ما أرى، لم يرَ أي شخص آخر الرجلَ الأسود ولا الكلب. ولا تحتاج إلى أن تكون طبيبًا كي تعرف أن التوهم بتعقُّب أحدهم لك من أكثر علامات عدم الاتزان العقلي شيوعًا.»

كانت معرفة ليون بعمل الشرطة تفُوق المألوف. كان يعلم أن اكتشاف لغز ما ليس لحظةً درامية تأتي فجأةً، بل هو نتاج أدلة تُجمَع بالصبر، وقد تتبَّع مسار التحقيقات نفسه الذي كان ليتبعه محقِّق من سكوتلاند يارد.

عاشت إلين فارير في لاندسبيري رود بكلافام، وتبيَّن أن المنزل رقم ٢٠٩ هو منزل يقع في منطقةٍ راقية. وقد شعرت صاحبة المنزل، التي بدت امرأةً عطوفًا، والتي تحاورت معه في الردهة، بارتياحٍ واضح حين ذكر سبب زيارته.

قالت: «زيارتك غمرَتْني بالسعادة. هل أنت قريب لها؟»

نفى ليون وجود أي قرابة بينهما.

تابعت صاحبة المنزل: «إنها شابَّةٌ غريبة للغاية، ولا أعرف ما الذي حدث لها. ظلَّت مستيقظةً طوال الليل تتجول في غرفتها — فهي تنام في الغرفة التي تعلو غرفتي — ولم تتناول الإفطار هذا الصباح. لا يَسَعني إلا الشعور بأن ثَمة خَطبًا ما. إنها شخصيةٌ غريبة جدًّا.»

سأل ليون بأسلوبٍ فظ: «هل تقصدين أنها مُختلة عقليًّا؟»

«نعم، هذا ما أقصده. فكَّرت في إرسالها إلى طبيبي، ولكنها لم تكن لتُذعن لذلك. لقد أخبرتني أنها تعرَّضت لصدمةٍ كبيرة. هل تعرفها؟»

ليون: «لقد قابلتها. هل تسمحين لي بالصعود إلى الطابق العُلوي؟»

تردَّدت صاحبة المنزل.

«أعتقد أنه من الأفضل أن أخبرها بأنك هنا. ما اسمك؟»

قال ليون: «أعتقد أن من الأفضل أن أراها دون إبلاغها بوجودي، إذا كنت ستصحبينني إلى باب غرفتها. أين هي؟»

عِلم أن إلين فارير في غرفة الجلوس. كان بإمكانها تحمل رفاهية استئجار غرفة إضافية. طرق ليون الباب وأتاه صوتٌ مُجفِل يتساءل: «من الطارق؟»

لم يُجِب، ولكنه لفَّ المقبض ودخل إلى الغرفة. كانت الفتاة تقف بجانب النافذة وتُحملق في الخارج. من الواضح أن السيارة الأجرة التي أقلَّت ليون أثارت مخاوفها.

قالت في فزع لما رأت زائرها: «يا إلهي! أنت الرجل ... أنت لم تأتِ كي تُلقي القبض عليَّ، أليس كذلك؟»

رأى من زاوية عينه أن الأرض مبذورة بالصحف. من الواضح أنها اشترت كل جريدة مُتاحة لتستجلي أنباء الجريمة.

قال ليون بنبرةٍ هادئة: «نعم، لم آتِ كي أُلقي القبض عليك. أنا لا أعرف بالضبط التهمة التي يمكن اعتقالكِ من أجلها. السيد جراسلي لم يمُت. إنه لم يُصَب بجرحٍ حتى.»

حملقت فيه في دهشة.

ردَّدت بنبرةٍ بطيئة: «لم يُصَب بجرح حتى؟!»

«وجدته في خير حال لما رأيته ليلة أمس.»

مرَّرت يدها على عينيها.

«لا أفهم شيئًا. لقد رأيته، يا إلهي، هذا رهيب!»

«حسب ظنك، لقد رأيتِه مُثخَنًا بالجروح. سعدت بلقائه بعد بضع دقائق من رؤيتك، ولم أجد به أي إصابات، والأكثر من ذلك أنه ...» لم يُنزل عينيه عنها وهو يتحدث «قال إنه لم يرَكِ مطلقًا.»

لاحَتْ في عينيها علامات التعجب وعدم التصديق والرعب.

«والآن هلَّا جلست يا آنسة فارير وأخبرتني كل شيء عنك؟ كما ترَين، أنا أعرف الكثير. أعرف، على سبيل المثال، أن أباكِ مات في مصحَّة.»

ظلَّت تُحملق فيه كما لو كانت لا تستطيع استيعاب كلماته. وفي الحال أصبح ليون مباشرًا في حديثه معها.

«والآن، أريدكِ أن تُخبريني يا آنسة فارير، ما السبب في جنون أبيك. هل سبق أن أُصيبَ أحدٌ في العائلة بالجنون؟»

كان هدوء ليون من النوع المُهيمن؛ فقد استعادت بعضًا من رباطة جأشها بفضل تأثيره.

«لا، السبب هو سقوطه من ظهر حصان؛ لم يتضح التأثير الكامل لهذا السقوط لمدة سنوات بعد حدوثه.»

أومأ وابتسم.

«لا أظن ذلك. أين كنتِ حين أُرسِلَ إلى المصحة؟»

قالت: «كنت في المدرسة في ملبورن، أو بالأحرى على حدود ملبورن. لم أرَ أبي منذ كنت في السابعة. ظل في ذلك المكان اللعين وقتًا طويلًا، ولم يكونوا ليسمحوا لي برؤيته.»

«أخبريني الآن، من هو السيد فلين؟ هل تعرفينه؟»

هزَّت رأسها.

«إنه ابن عم أبي. لا أعرف عنه سوى أن أبي اعتاد أن يُقرضه المال، وأنه كان مُقِيمًا في المزرعة لما أصابه المرض. وصلتني عدة خطابات منه بشأن المال. دفع تكاليف سفري إلى إنجلترا، وهو من اقترح ضرورة عودتي إلى موطني ومحاولة نسيان جميع المشكلات التي تعرَّضت لها.»

«ألم ترَيه مطلقًا؟»

قالت: «مطلقًا. جاء مرةً واحدة إلى المدرسة، ولكني كنت في نزهة.»

«هل تعرفين قدر الأموال التي تركها أبوكِ؟»

هزَّت رأسها مرةً أخرى.

«لا، ليست لديَّ فكرة.»

«أخبريني الآن يا آنسة فارير عن الزنجي الذي رأيته يتبعك وعن الكلب.»

لم يكن في جعبتها الكثير لتُخبره به؛ فلم تُخبره إلا بالحقيقة المجردة. بدأَت الملاحَقة منذ عامين، واتصل طبيبها ذات مرةٍ للاستفسار عن السبب. وهنا أوقفها ليون سريعًا.

«هل أرسلت إلى الطبيب؟»

قالت مُتفاجئةً: «لا، ولكن لا بد أنه عرف من شخصٍ ما، ولكني لا أعرف من أخبره؛ لأنني لم أخبر سوى عدد قليل جدًّا من الأشخاص.»

«هلَّا أريتني أيًّا من الخطابات التي أرسلها لك السيد فلين؟»

كانت تحتفظ بالخطابات في أحد الأدراج؛ ومن ثَم قرأها ليون قراءةً متأنِّية. كانت لهجة الخطابات غير عادية، لم تكن باللهجة المتوقَّع أن تصدُر من وصي أو من شخصٍ يتولى زمام حياتها ومصيرها. لم تكن في مجملها سوى تذمُّرات من الصعوبات التي يُواجهها الكاتب في توفير مصروفاتها الدراسية وملابسها، وأخيرًا تكاليف السفر إلى إنجلترا، وكان يؤكد في كل خطاب على حقيقة أن والدها لم يترك لها من المال سوى النَّزْر اليسير.

قالت: «وهذه كانت حقيقة. لقد كانت تصرفات أبي المسكين غريبة في مسألة الأموال. لم يحتفظ بمدَّخَراته في البنك مطلقًا، بل كان يحملها معه دائمًا في صندوقٍ حديدي كبير. في الحقيقة، لقد كان كتومًا إلى حدٍّ بالغ، ولم يعرف أحدٌ حجم الأموال التي يمتلكها بالضبط. أظن أنه كان بالغ الثراء؛ لأنه كان ...» تردَّدت عندئذٍ «تقريبًا ... لا أحب قول شيء يذمُّ في أبي الحبيب المسكين، ولكنه لم يكن سخيًّا في إنفاق المال مطلقًا، وكم ذُهلت لما عرفت أنه لم يترك سوى بضع مئات من الجنيهات وعددٍ قليل جدًّا من الأسهم، وأن تلك الأسهم ليست ذات قيمة كبيرة للدرجة! وبالطبع ذُهِل الجميع في ملبورن؛ أقصد كل شخص يعرفنا. في الحقيقة، دائمًا ما كنت أعتبر نفسي فقيرةً حتى بضعة أشهر مضت؛ فقد اكتشفنا أن والدي يمتلك نصيبًا كبيرًا في منجم الذهب في غرب أستراليا، ولم يكن أحدٌ يعرف عن ذلك الأمر شيئًا. لقد اكتُشف بالصدفة. وإذا كان ما يُقال صحيحًا فسوف أكون في غاية الثراء. كان المُحامون يُحاولون الاتصال بالسيد فلين، ولكن لم يصِلهم منه سوى خطاب أو اثنين؛ أُرسلَ أحدهما من الصين وكان مرسَلًا لي، والآخر من اليابان على ما أظن.»

«هل وصلك الخطاب الذي أُرسلَ لك؟»

أبرزت الخطاب. كان مكتوبًا على ورقٍ سميك. أمسكه ليون بالقرب من الضوء ورأى العلامة المائية.

«ما الأسهم التي تركها والدك؟ أقصد ما الأسهم التي عُرِف أنه تركها؟»

انتابتها حيرةٌ من هذا السؤال.

«أعلم أنه ترك بعض الأسهم التي لا قيمة لها على الإطلاق. أتذكَّرها بالرقم ٩٦٧. ما الأمر؟»

أخذ ليون يضحك.

«أعتقد أن بإمكاني أن أعِدَك بعدم تعرُّضك لأي ملاحقة مرةً أخرى يا آنسة فارير، ونصيحتي لك أن تتواصلي على الفور مع أفضل شركة محاماة في لندن. أعتقد أن بإمكاني إعطاءك عنوانهم. لديَّ شيءٌ أريد أن أخبرك به ...» لاحت ابتسامةٌ لطيفة للغاية في عينَي ليون جونزاليس وتابع قائلًا: «هو أنكِ لست مجنونة، وأن الزنجي الذي يتعقَّبكِ والكلاب السوداء ورؤيتك للسيد جراسلي مقتولًا، كل ذلك لم يكن محض أوهام. ثَمة سؤالٌ واحدٌ آخر أريد أن أطرحه عليك، وهو يتعلَّق بالسيد فلين. هل تعرفين ماذا يعمل؟»

قالت: «كانت لديه ما يمكن أن تعتبره مزرعةً صغيرة. أعتقد أن أبي اشتراها له ولزوجته. وقبل ذلك أظن أنه كان يستأجر مسرحًا في أديليد، وخسر مبلغًا كبيرًا من المال.»

ليون: «شكرًا لك. هذا كل ما أريد معرفته.»

عاد مباشرةً إلى مجمع الشقق في شارع كيرزون، والتقى بالسيد جراسلي وهو يُغادر شقته.

قال ذلك الرجل البشوش الوجه بضحكةٍ عالية: «مرحبًا! هل أتيت كي تُخبرني عن جريمة قتل أخرى؟»

قال ليون: «بل شيء أسوأ من القتل.» انطفأت الابتسامة من بين شفتَي جراسلي من شيءٍ أحسَّه في نبرة ليون.

تبعه ليون إلى غرفة المكتب وأغلق الباب بنفسه.

قال: «سيد فلين، هل أفهم الآن؟» وحينها رأى الدم يهرب من وجه الرجل.

قال جراسلي بتبجُّح: «لا أعرف ماذا تقصد. إن اسمي ...»

قال ليون بلطفٍ بالغ: «اسمك فلين. منذ بضع سنوات نما إلى عِلمك أن الرجل الذي سرقته — والد إلين فارير — كان أغنى مما كنت تظن؛ ومن ثَم وضعت خطةً خرقاء، ولكنها شيطانية بالتأكيد، لتضع يدك على ممتلكات إلين فارير. لا شك لديَّ في أن رجلًا محدود الذكاء مِثلك تخيَّل أنه بسبب جنون الأب من الممكن أن تُساق الابنة أيضًا إلى مصحةٍ عقلية. لا أعرف من أين جئت بالرجل الزنجي، ولا أين عثرت على كلبك المدرَّب، ولكني أعلم من أين حصلت على المال كي تستأجر مسرح أورفيوم. أريد أن أخبرك شيئًا آخر يا سيد فلين، وبإمكانك نقل هذه المعلومة إلى زوجتك التي أستشفُّ أنها مُتآمرة معك. تُكتب كلمة «تفاوض» بحرف «ض»، وكلمة «مهنة» تنتهي بحرف «ة». لقد وردت كلتا الكلمتين في الخطابات التي أرسلتها إلى الآنسة فارير.»

تصاعدت أنفاس الرجل، وكانت يده التي تُحاول التقاط عُقْب السيجار المُنطفئ ترتعش.

قال مُتبجحًا: «يجب أن تُثبِت كل هذا.»

قال ليون أسفًا: «للأسف يجب عليَّ هذا. في الأيام الخوالي التي لم يكن رجال العدالة الأربعة يتقيَّدون فيها بالقانون كما هو الحال الآن، ما كنا لنأخذك إلى المحكمة. بل أتخيَّل أنني وأصدقائي كنا سنفتح بالوعة صرف في شارع كيرزون ونُسقطك فيها.»

الفصل الثاني عشر

# لغز السيد دريك

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «توينتي ستوري»، عدد ديسمبر ١٩٢٧.

* * *

تأتي جميع الأحداث ثلاثًا. كان هذا رأي ليون جونزاليس المعتَبر. على سبيل المثال، كان هذا هو اللقاء الثاني له مع كورنيليوس مالان. كانت آخر مرة الْتَقى فيها السيد روس مالان — الأخ المُلتحي لكورنيليوس — في حفل كان الثالث، ولكن روس كان ميتًا الآن، غير أن ليون لم يكن على علم بهذه الحقيقة في الوقت الحالي.

لم يتعرض هذا الرجل اليقِظ والحذِر لحادث سير مطلقًا. وما يُثبِت ذلك هو حقيقة أنه على قيد الحياة؛ فهو لم يكن ليرضى مطلقًا إذا وقع مؤشر عداد السرعة في سيارته الرياضية الكبيرة دون علامة السبعين كيلومترًا. ومن المصادَفات العجيبة أنه كان يسير ذات مرة على سرعةٍ أقل من ثلاثين كيلومترًا حين انزلقت السيارة على البرد والثلج الذي يُغطي طريقًا مهجورًا في أكسفورد، وسقطت العجلة الخلفية في حفرةٍ قُطرُها أربع أقدام. كانت معجزةً أن السيارة لم تنقلب.

خرج ليون من السيارة ونظر حوله. كان للمزرعة الكبيرة التي تحتلُّ المكان خلف السور الحجري المُتاخم للطريق مظهرٌ مألوف. ابتسم ابتسامةً عريضة وهو يقفز من السور ويشقُّ طريقه عبر السطح الوعر لحقلٍ غير مزروع باتجاه المبنى. نبح عليه كلبٌ بصوتٍ غليظ، ولكنه لم يرَ أي إنسان. ولما طرق الباب لم يردَّ عليه أحد. لم يتفاجأ ليون؛ فقد كان كورنيليوس يحتفظ بالقليل من الخدم حتى في الصيف؛ فلم يكن من المحتمل أن يترك الكثير من الخدم في المنزل في أواخر أيام الخريف التي تقلُّ فيها الثمار.

تجوَّل في المنزل ومر عبر حديقة مُهمَلةٍ تنمو فيها الحشائش، ولكنه لم يزَل لا يرى أي علامة على وجود حياة في المكان. ومن باطن الأرض وعلى بُعدِ اثنتَي عشرة ياردة، نهض رجلٌ ضخمٌ عريض المنكبين. جاء من باطن الأرض بالمعنى الحرفي للكلمة. ظل ليون مذهولًا للحظة، ثم أدرك أن الرجل خرج من بئر. كان كورنيليوس مالان مولِّيًا ظهره لزائره الذي لم يدعه أحد. رآه ليون وهو ينحني، وسمع صوت قعقعة الحديد وتكة قفل يُغلَق. نهض الرجل الضخم بعد قليل، ونفض الغبار عن ركبتيه، وتمطَّى ثم التفت واتجه مباشرةً إلى حيث كان ليون واقفًا. وحين رأى الغريب ازدادت حُمْرة وجه كورنيليوس العريض الأحمر.

قال بنبرةٍ غاضبة: «أنت!» ثم تعرَّف على زائره. قال: «آه! المحقق!»

تحدَّث بلغةٍ إنجليزيةٍ طليقة قلَّما بدا فيها أثر للكنةٍ غريبة، بخلاف أخيه المتوفَّى الذي كان بالكاد يتحدث الإنجليزية.

«ما الذي تريده؟ هل يعتقد آخرون بأن روس المسكين قد احتال عليهم؟ حسنًا، إنه ميت الآن، ولا يوجد ما تأخذه منه.»

كان ليون ينظر إلى ما وراء الرجل، ولا بد أن الرجل توقَّع ما كان يدور في ذهنه؛ ومن ثَم قال بسرعة: «توجد بئرٌ لعينة هنا، مليئة بالغاز. يجب أن أملأها.»

ابتسم ليون: «وفي الوقت الحالي أغلقته على نحوٍ مُناسب. أعتذر عن الدخول إلى هذه الحقول الزراعية يا سيد مالان، ولكن في الحقيقة وقعت سيارتي في حفرة وأردت المساعدة في إخراجها.»

كانت ثَمة نظرةٌ غريبة من الخوف على وجه الرجل، تلاشت عندما شرح ليون الهدف من زيارته.

قال مُتباهيًا: «يمكنني أن أُخرج سيارةً من أي حفرة. سترى.»

كان دمثًا ولطيفًا إلى حدٍّ كبير وهو يسير مع ليون عبر الحقل.

«لا أحب أهل لندن، وأنت على وجه الخصوص أيها السيد الذي لا أتذكَّر اسمه. أنت تُشبِه المحامي الذي احتال عليَّ وعلى أخي المسكين بموضوع بوتشيفستروم قبل سنوات عديدة، حتى إنني نسيت اسمه. روس المسكين! أنت وأمثالك من اقتدتموه إلى حتفه! مفتِّشو الضرائب والله أعلم. كنا فقيرَيْنِ نحن الاثنين، وما كان لدينا ما نقوله لهم.»

لما وصلا إلى السيارة وجد أن قوَّته لا تكفي لرفع السيارة؛ ومن ثَم عادا إلى المزرعة مرةً أخرى وجلبا عاملَيْنِ من مكانٍ خفيٍّ يبدو عليهما الجوع، وقد نجحوا في رفع سيارة

البنتلي إلى مستوى الطريق باستخدام الحبال والألواح. وفي ذلك الوقت عاد كورنيليوس مالان إلى ذاته القديمة.

قال: «سيكلِّفك هذا جنيهًا يا صديقي. ليس لديَّ ما أدفعه لهذَيْنِ الرجلَيْنِ مقابل العمل الإضافي. أنا فقير، وروس ميت الآن، وهو الذي يعرف أنني قد لا أضطرُّ إلى أخذ تلك الخادمة الكسول من عند أختنا.»

أخرج ليون ورقة بقيمة جنيه إسترليني بمنتهى الجدية، وأعطاها للبخيل العجوز.

لما عاد إلى شارع كيرزون قصَّ تجربته.

قال: «أراهن أننا سنتقابل للمرة الثالثة. أمرٌ غريب، ولكنه حقيقة. يومًا ما سأكتب كتابًا عن قانون الصدفة؛ لديَّ كمٌّ لا يُحصى من البيانات.»

قال بويكارت وهو يُلقي إليه خطابًا عبر الطاولة: «أضِفْ هذا.»

فتح ليون الخطاب وكان أول شيء قرأه عنوان أكسفوردشير. التفت سريعًا إلى نهاية الخطاب ورآه موقَّعًا باسم «ليونورا مالان».

كان مانفريد يُراقبه بابتسامة في عينيه.

قال: «أتتك مهمة تُوافق هواك يا ليون.»

قرأ ليون الخطاب.

**السادة الأعزاء**

منذ وقت مضى حضرتم إلى المدينة لزيارة عمي، الذي وللأسف تُوفي؛ فهلَّا تفضَّلتم بمقابلتي صباح يوم الأربعاء بشأن أموال عمي الراحل؟ لا أفترض أن بإمكانكم مساعدتي، ولكن آمل في وجود ولو فرصة.

كان الخطاب موقَّعًا باسم «ليونورا مالان»، وكان يتضمَّن ملاحظةً في ذيل الرسالة.

«أرجو ألا تُخبروا عمي كورنيليوس أنني أرسلت لكم هذه الرسالة.»

حكَّ ليون ذقنه.

تمتم مانفريد: «ليون وليونورا. هذا وحده أساسٌ كافٍ لتأليف فصل كامل عن المصادَفات.»

حضرت الآنسة مالان في صباح يوم الأربعاء وكان الجو مُمطرًا وعاصفًا، وحضر معها شابٌّ، وكان هو المصادَفة الرابعة والأعظم على الإطلاق.

رجلٌ نحيل في الثلاثين من عمره، وذو ملامح غير متَّسِقة، وعينين لا تهدآن في مَحجرَيهما، قدَّمته باسم السيد جونز، المُدير السابق لدى عمها المتوفَّى.

كان جمال ليونورا مالان مُذهلًا. كان ذلك هو الانطباع الأول لليون عن ضيفته. توقَّع أن تكون بدينة وجمالها ليس لافتًا؛ إذ كان اسم ليونورا اسمًا يُخجَل منه. كان واضحًا أن مالان أفريقية. كان سيعرف هذا حتى لو لم يكن يعرف جنسية عمَّيها من واقع تجربته الشخصية معهما؛ فقد الْتَقى ذات مرة مع جابي ذي السمعة السيئة، والذي لم يكن يقلُّ دمامةً وبغضًا عن روس، وإن كان الآن قد صار أقل بغضًا؛ إذ انتقل إلى جوار ربه. وكان مفاجأةً سارَّةً له أن هذه الفتاة الممشوقة القوام ذات العيون البرَّاقة والبشرة الوردية قد خيَّبت كل أفكاره المسبقة بما أسعده كثيرًا.

دخلت معه إلى غرفة الاستقبال الصغيرة المُضيئة التي كانت أيضًا مكتبًا لثلاثتهم، وجلست على الكرسي الذي جلبه بويكارت من قبلُ عندما كان يتقمص دور كبير الخدم؛ ومن ثَم خرج مغلقًا الباب خلفه برزانة، ومن دون إحداث أي صوت.

نظرت إلى ليون بعينين لامعتين وابتسمت.

نظرت إلى رفيقها الدميم الذي أزعج جونزاليس نظرة ثقة، ثم قالت: «لا يمكنك أن تفعل شيئًا لي يا سيد جونزاليس، ولكن رأى السيد جونز أنني ينبغي أن أقابلك. بدايةٌ غير مبشِّرة، أليس كذلك؟ أظن أنك ستتساءل لماذا أُهدر وقتك إذا كنت أعتقد ذلك؟ ولكني الآن كمن يتعلَّق بقشة، و...»

ضحك ليون: «وأنا قشةٌ متينة للغاية.»

تحدَّث السيد جونز. كان صوته أجشَّ وغليظًا.

«هكذا يبدو الأمر. إن ليونورا تستحقُّ إرثًا يبلغ حوالَي ثمانية آلاف جنيه إسترليني. أعلم أن نصيبها كان موجودًا قبل وفاة العجوز. هل معك الوصية يا ليونورا؟»

أومأت بسرعة وتنهَّدت، وفتحت حقيبة يدها الصغيرة نصف فتحة، ومدَّت يدها تلقائيًّا إلى علبةٍ فضيةٍ بالية، ولكن سرعان ما سحبت يدها وأحكمت غلق الحقيبة. مد ليون يده إلى علبة السجائر وناوَلها إياها.

قالت وهي تأخذ سيجارة: «هل تعرف عمي؟ كان عمي المسكين روس يتحدث عنك كثيرًا.»

قال ليون: «أظنه كان يذمُّني، أنا متأكدٌ من ذلك.»

أومأت الفتاة.

«نعم، لم يحبك، بل كان يخافك وأنت كبَّدته أموالًا.»

ظهر روس مالان في واحدةٍ من أكثر القضايا الرتيبة التي تولَّاها ليون. كان روس وشقيقه كورنيليوس من المُزارعين المُوسِرين في جنوب أفريقيا، ثم اكتُشف الذهب في

مزرعتهما وأصبحا فاحشَي الثراء فجأةً، وجاء كلاهما إلى إنجلترا واستقرَّا في مزرعتين مهجورتين في أكسفوردشير. كان روس هو من تبنَّى طفل أخته المتوفَّاة الرضيع، وكان كثير التذمر والشكوى؛ لأنه كان، مثل أخيه، من أندر أنواع البخلاء، فكان يُبغض إنفاق ولو أقل القليل من المال حتى على نفسه، ولكن الشقيقين كانا مُضاربين ماكرين، وفي بعض الأحيان ما يكون مكرهما هذا شديدًا. كانت قضيةً تغلَّب فيها جشعهما على فِطنتهما؛ وهذا ما أوقع ليون في طريقهما.

قالت الفتاة: «لم يكن عمي روس بهذا السوء الذي تظنُّه. بالطبع كان شديد البخل في مسألة المال، وحتى في الطعام الذي يؤكَل في المزرعة، وكانت الحياة معه صعبةً بعض الشيء. أحيانًا كان هو الطيبة ذاتها، وأشعر أنني جشعة ودنيئة لشعوري بالضيق بشأن أمواله اللعينة تلك.»

قال جونز في نفاد صبر: «لا تقلقي بشأنه.»

قاطَعه ليون وهو ينظر مرةً أخرى سريعًا في الخطاب الذي أرسلته له: «ألم تعثري على تلك الأموال اللعينة؟»

هزَّت رأسها.

قالت: «لا أفهم شيئًا.»

ردَّ جونز بسرعة: «أرِيه الوصية.»

فتحت حقيبتها مرةً أخرى وأخرجت ورقةً مطوية.

«هذه نسخة منها.»

أخذ ليون الورقة وفتحها. كانت وثيقةً مختصرة ومكتوبةً بخط اليد باللغة الهولندية، وكان تحتها الترجمة بالإنجليزية. في بضعة أسطر، ترك الراحل روس مالان «جميع ممتلكاتي لابنة أخي ليونورا ماري مالان».

قال جونز بارتياح لم يُحاول إخفاءه: «كل قرش يملكه. كنا سندخل عالم الأعمال أنا وليونورا في لندن. هي بمالها وأنا بأفكاري. هل تفهم ما أعنيه؟»

فهم ليون الأمر بوضوحٍ تام.

سأل: «متى تُوفي؟»

قطَّبت ليونورا جبينها وكأنها استحضرت ذكرى غير سعيدة: «منذ ستة أشهر. سوف تظنُّ أنني بلا قلب، ولكني حقًّا لا أُكنُّ له أي حب، على الرغم من أنني كنت مُغرَمة به كثيرًا في بعض الأحيان.»

قال ليون: «وماذا عن التَّرِكة؟»

قطَّبت جبينها.

«يبدو أن كل ما تركه هو المزرعة والأثاث. يقول المثمِّنون إن تلك التركة تُساوي خمسة آلاف جنيه، وإنها مرهونةٌ مقابل مبلغ أربعة آلاف جنيه. عمي كورنيليوس هو صاحب الرهن، ولكن عمي روس مالان كان فاحش الثراء بلا شك؛ فقد كان يحصل على عائداتٍ من ممتلكاته في جنوب أفريقيا، وقد رأيت المال في المنزل؛ لأنه كان يأتي كل ثلاثة أشهر، وكان يدفع دائمًا في شكل أوراق نقدية.»

قال جونز: «يمكنني شرح هذا الرهن. تبادل هذان البخيلان العجوزان البغيضان عمليتَي الرهن كي يحمي كلٌّ منهما الآخر حال حاولت السلطات التحايل عليهما! ذهب المال يا سيدي؛ قلبت المنزل رأسًا على عقب بحثًا عنه. توجد غرفةٌ منيعةٌ مبنية في زاوية القبو، استطعنا فتح هذا الباب، ولكننا لم نعثر على قرشٍ واحد. تحب عائلة مالان الغُرف المنيعة كثيرًا. أعرف أين يحتفظ كورنيليوس بأمواله هو الآخر. إنه لا يعرف ذلك، ولكن أُقسِم بالرب إذا لم يكن عادلًا مع هذه الفتاة ...!»

بدت الفتاة مُحرَجةً بعض الشيء من رفقة الرجل. ظن أن الصداقة من جانبٍ واحد، وكان لديه انطباع بأن السيد جونز هو من كان يُخطط «لدخول عالم الأعمال».

ذكر له جونز خبرًا آخر. لم يكن أيٌّ من الأخوين يمتلك حسابات في البنك. على الرغم من كثرة مضارَباتهما في بورصة جنوب أفريقيا وحنكتهما في ذلك، كان دفع الأرباح أو شراء الأسهم يتمُّ بنقدٍ سائل، ودائمًا ما تُسدَّد المدفوعات النقدية بالطريقة نفسها.

«كان هذان الفاسدان يرفضان دفع أموال الضرائب، واستخدما جميع أنواع الحِيَل القذرة للتهرب من دفعها. كانا يشكِّكان في جميع البنوك؛ لأنهما كانا يعتقدان أنها تُخبر الحكومة بأعمال عملائها.»

هزَّت ليونورا رأسها مرةً أخرى في يأس.

«لا أظن أن بإمكانك فعل أي شيء يا سيد جونزاليس، وليتني لم أرسل لك الخطاب. المال غير موجود، ولا يوجد أي سجلات تُشير إلى وجوده يومًا. أنا لا أُبالي كثيرًا حقًّا؛ لأن بإمكاني العمل. لحسن الحظ أخذت دروسًا في الكتابة على الآلة الكاتبة، وحسنت سرعتي في الكتابة بالمزرعة، وكنت أكتب معظم مراسلات عمي.»

«هل كان كورنيليوس في المزرعة في مرضه الأخير؟»

أومأت الفتاة.

«طوال فترة المرض؟»

أومأت مرةً أخرى.

«وهل ترك ...؟»

«بعد موت روس المسكين مباشرةً، لم أرَه مرةً أخرى، ولم يصِلني منه سوى خطاب واحد يُخبرني فيه أن عليَّ كسب لقمة عيشي، وأنني لا يمكن أن أعتمد عليه. ما الذي يمكنني فعله الآن؟»

فكَّر ليون في هذه المسألة لفترةٍ طويلة.

تابعت قائلةً: «سأكون صريحةً معك للغاية يا سيد جونزاليس. أنا متأكدةٌ من أن عمي كورنيليوس أخذ جميع الأموال التي كانت في المنزل قبل أن يُغادر. السيد جونز أيضًا يعتقد ذلك.»

قال الرجل ذو الوجه الطويل والنحيل بنبرةٍ تأكيديةٍ شديدة: «فكِّر في الأمر. أنا متأكد من ذلك! رأيته ذات مرة خارجًا من القبو ومعه حقيبة جلادستون كبيرة. كان من عادة روس العجوز الاحتفاظ بمفتاح غرفته المنيعة تحت وسادته. ولما مات لم يكن المفتاح في مكانه، ووجدته على رف المستوقد في المطبخ!»

لما همَّ الرجل والفتاة بالمغادَرة ظل ليون يُراوغهما بحيث كانت هي آخر من غادَر.

سأل بصوتٍ مُنخفض: «من هو جونز؟»

شعرت بقليلٍ من عدم الارتياح.

«كان مُدير مزرعة عمي. إنه لطيف للغاية، لطيف إلى حدٍّ بالغ.»

أومأ ليون، ولما سمع خطوات جونز وهو عائدٌ سأل عن خططها الحالية. قالت إنها ستمكث هذا الأسبوع في لندن لتعدَّ عدتها لكسب لقمة عيشها. وبعد أن دوَّن عنوانها وأوصلهما إلى الباب عاد، وهو يفكر في المسألة، إلى الغرفة المشتركة التي يلعب فيها رفيقاه الشطرنج، في لهوٍ غير مقبولٍ ممارستُه في الحادية عشرة صباحًا.

قال بويكارت دون أن يرفع نظره عن القطعة التي كان يحرِّكها بإصبعه: «إنها فاتنة الجمال، وجاءت بشأن إرثها، والرجل الذي معها ليس طيبًا.»

قال ليون بنبرة اتهام: «كنتما تتنصَّتان على الباب.»

قال بويكارت وهو «يكش» ملك مانفريد: «قرأت الجرائد المحلية، وأعرف أن السيد روس مالان مات مُفلِسًا. الأموال التي تركها لا تكفي أتعاب مفتِّش الضرائب. بلغ الرجلان مبلغًا عظيمًا من البخل على الرغم من ثرائهما الفاحش، وكان كلاهما في أشد الغضب من سومرست هاوس.»

تابَع جورج مانفريد: «وطبيعيٌّ أن تأتي إليك كي تُعِيد لها ثروتها. ماذا كان يريد الرجل؟»

اضطجع على كرسيه وتنهَّد.

«نحن محترمون للغاية، أليس كذلك؟ كان الأمر بسيطًا منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة. أعرف العديد من الطُّرق التي تجعل كورنيليوس يُخرِج ما لديه.»

قاطَعه ليون على الفور: «وأنا أعرف طريقةً منها. وإذا كانت كل نظرياتي وآرائي صحيحة — ولا يمكن أن أتخيَّل أنها غير ذلك — فسيستعيد لنا السيد دريك المال.»

نظر بويكارت بوجهٍ عابس للغاية: «تقول مَن؟»

قال ليون بأسلوبٍ عفوي: «السيد دريك عدوٌّ قديم لي. ظلِلْنا أعداءً لعشر سنين. إنه يعرف أحد أدق أسراري، وعِشت في رعبٍ مُميت منه، لدرجة أنني فكَّرت في الإطاحة به من مجال أعماله الحالية.»

نظر إليه جورج مفكرًا، ثم أشرق وجهه.

«يا إلهي، أظن أنني أعرف السيد دريك الغامض هذا. استغللناه من قبل، أليس كذلك؟»

وافَقه ليون الرأي في جدية: «بلى، ولكنه سيموت هذه المرة ميتة الكلاب!»

سأل بويكارت: «من جونز هذا؟ رأيته في المحكمة الجنائية المركزية، وكان له سيماء أهل دارتمور. تتذكر يا جورج هذه القضية المُزعجة التي حدثت منذ ثماني أو عشرة سنوات. ليس بالرفيق الذي يليق بالجميلة ليونورا.»

أخذ ليون سيارته في صباح اليوم التالي إلى سوقٍ مشهورة بالمدينة تبعد عن مزرعة السيد مالان بعشرة أميال. وهنا سعى إلى مقابلة مفتِّش الضرائب المحلي، وقابَله بالفعل، وأبرز له التفويض المختصر الذي أشار إلى ضرورة توقيع ليونورا عليه. كان الموظف المرهَق راغبًا بل متلهفًا لإعطاء ليون جميع المعلومات التي طلبها.

«أتولَّى تلك المهمة اللعينة في تحصيل ضرائب هؤلاء الأشخاص. نحن نعرف مصدر دخلهم الأساسي، وهو يأتي من جنوب أفريقيا كل ثلاثة أشهر، ولكن لديهم سجل أعمال أخرى في جنوب أفريقيا لا نستطيع تتبُّعه. عرفنا أنهما اعتادا استلام أموالهما نقدًا. من الواضح أن الرجلين كانا يدلِّسان على مصلحة الضرائب لسنوات، ولكننا لا نملك دليلًا ضدهما. إذا كان السيد مالان يحتفظ بدفاتر فإنه يُخفيها عن الأنظار جيدًا! منذ بضعة أشهر عيَّنَّا مُخبرًا لمراقبة كورنيليوس، وعثرنا على المكان الذي يُخفي فيه أشياءه. إنه يقع في بئرٍ مملوءة حتى النصف على عمق عشرين قدمًا في حديقته.»

أومأ ليون.

«وهذه الغرفة مبنية من الصخور الصلبة، ولها بابٌ فولاذي. تبدو وكأنها حكايةٌ خيالية، أليس كذلك؟ إنها واحدةٌ من الغُرف العديدة التي تخفَّى فيها تشارلز الثاني، وكان وجود هذه الغُرف الصخرية معروفًا منذ قرون. قام كورنيليوس بتركيب الباب الفولاذي، وبما أن البئر أسفل نافذته مباشرةً، ومُحكَمةٌ ببابٍ سري حديدي، ويمكن رؤيتها من الطريق، فهي أكثر أمانًا بكثير من أي خِزانة يمكن أن تكون لديه داخل المنزل.»

سأل ليون: «ولماذا لم تفتَّش الغرفة المنيعة؟»

هزَّ المفتش رأسه.

«ليس لدينا سلطة لذلك. أصعب شيء في العالم هو الحصول على إذن تفتيش، ولا تقدِّم مصلحة الضرائب طلبًا للحصول على مثل هذه السلطة إلا إذا كانت هناك إجراءاتٌ جنائية.»

ابتسم ليون ملء فيه.

ثم قال بأسلوبٍ غامض: «سيضطرُّ السيد دريك إلى منح الإذن لك.»

قطَّب الموظف الحائر جبينه.

«لا أفهم قصدك تمامًا.»

قال ليون الغامض: «ستحصل على ما هو أكثر من ذلك.»

لما مشى ليون طريق العربات الطيني أصبح يميِّز الأصوات؛ صوت عميق ومُجعجع، وآخر عالٍ وحاد. كانت الكلمات غير مترابطة، ولا يمكن تمييزها. انعطف عند زاوية مجموعة شُجَيرات مُهمَلة، ورأى الاثنين؛ كورنيليوس الضخم والسيد جونز ذا الوجه النحيل الذي كان شاحبًا من فرط الانفعال.

صاح بصوتٍ حادٍّ: «سأُمسك بك، أيها اللص الهولندي الملعون! أنت تسرق الفتاة اليتيمة، هذا ما تفعله. لن تكون هذه المرة الأخيرة التي تراني فيها.»

كانت كلمات كورنيليوس مُستعصيةً على الفهم؛ لأنه في غمرة غضبه ارتدَّ إلى لغته الأفريقية، التي تُعَد أكثر الوسائل قدرةً على التعبير عن الذم والطعن والشتم. لما وقعت عيناه على ليون اتَّجه نحوه مُهرولًا.

«أنت محقِّق. خذ هذا الرجل من هنا. إنه لص وأليف سجون. أعطاه أخي وظيفةً لأنه لم يجد غيره.»

انقلبت شفتا السيد جونز الرفيعتان سخريةً واستهزاءً.

أضاف بسرعة: «تبًّا لوظيفة هكذا! زريبة للنوم وطعام يتأنف هذا الخسيس أن يأكله. لا أعرف شيئًا عن هذا البخيل. كل ما يقوله هذا الرجل محض أكاذيب. إنه لص. لقد أخذ المال من خزانة روس العجوز.»

زمجر كورنيليوس: «وأنت أتيت وقلت: «أعطِني عشرة آلاف جنيه وسأخبر ليونورا بألَّا تنزعج بشأن الباقي.» أليس كذلك؟»

أدرك ليون أن الوقت ليس مُناسبًا كي يحكي قصة السيد دريك. يجب أن يقصَّها في وقتٍ آخر. قدَّم اعتذارًا على قدومه ثم عاد إلى الطريق برفقة جونز.

«لا تشغل بالك بما قاله يا سيدي؛ أعني حديثه بشأن محاولتي خيانة ليونورا. إنها فتاةٌ طيبة، وتثق بي حقًّا، وسأفعل ما في صالحها. لقد جعلها العجوز روس تحيا حياة الكلاب.»

تساءل ليون عن نوع الحياة التي سيوفِّرها هذا السجين السابق لليونورا مالان، وكان مُقتنعًا تمامًا أنه مهما حدث فيجب إنقاذ الفتاة من مثل هذه العلاقة.

عاوَد جونز الحديث من جديد: «ولما قال إنني كنت مسجونًا ...»

ليون: «يمكنني أن أوفِّر عليك الكثير من المتاعب. رأيتك وأنت محكوم عليك.»

لما أتى على ذكر التهمة احمرَّ وجه الرجل ثم شحب.

«يمكنك العودة إلى لندن الآن، وحذارِ أن تقترب من الآنسة ليونورا مالان. وإن فعلت فلا تلومنَّ إلا نفسك.»

فتح جونز فمه وكأنه يريد قول شيء، ولكنه غيَّر رأيه وانطلق في طريقه. كان الوقت متأخرًا لما عاد ليون كي يحكي قصة السيد دريك.

وصل إلى مزرعة كورنيليوس مالان في الساعة التاسعة. كان الظلام حالكًا، والأمطار والثلوج تتساقط، ولم تبشر الأجواء في المنزل بأنه سيلقى الراحة من هذه المشقة؛ إذ لم يكن يوجد سوى شمعة توفِّر بصيصًا من الضوء من داخل النوافذ المُظلِمة. طرق الباب لبعض الوقت، ولكن لم يردَّ أحد، ثم سمع صوت أنفاس مُتثاقلة؛ كان ثَمة شخصٌ يتجه نحوه في الظلام، فالتفت للوراء.

سأل: «السيد كورنيليوس مالان؟» وسمع الرجل ينخر، ثم قال: «من أنت؟»

قال ليون بهدوء: «صديقٌ قديم.» وعلى الرغم من أن كورنيليوس لم يستطع أن يرى وجهه فلا بد أنه قد تعرَّف عليه.

«ماذا تريد؟» كان صوته حادًّا يتخلَّله القلق.

قال ليون: «أريد مقابلتك. إنها مسألةٌ غاية في الأهمية.»

تجاوزه الرجل كي يفتح الباب وسلك طريقه في الظلام. انتظر ليون عند عتبة الباب حتى رأى اللهب الأصفر لعود ثقاب، وسمع خشخشة مدخنة المصباح وهي تُرفَع.

كانت الغرفة كبيرة وخالية من الأثاث. لم يكن يوجد بها سوى لهيب نيران الخشب في المدفأة، ولكن من الواضح أنها كانت غرفة معيشة وغرفة نوم في الوقت ذاته؛ لأن سريره غير المرتَّب كان قابعًا في أحد أركانها. في منتصفها، كانت ثَمة طاولة من خشب الصنوبر بلا غطاء، وجلس عليها ليون من دون دعوة. وقف الرجل على الطرف البعيد من الطاولة ناظرًا إليه في عبوس، وكان وجهه شاحبًا وهزيلًا. تساءل مرةً أخرى: «ماذا تريد؟»

قال ليون مُترويًا: «المسألة متعلقة بجون دريك. إنه عدوٌّ قديم لي؛ ظلِلْنا يُلاحق أحدنا الآخر عبر ثلاث قارَّات في وقتٍ سابق، والليلة تقابلنا للمرة الأولى بعد عشر سنوات.»

ارتبك الرجل وتحيَّر: «ما شأني بهذا؟»

هزَّ ليون كتفه في لا مُبالاة: «الليلة فقط قتلته.»

رأى الرجل وقد فتح فمه في ذهول. قال وهو لا يكاد يصدِّق: «قتلته؟»

أومأ ليون، ثم قال وفي نبرته شيءٌ من الاستمتاع: «طعنته بسكينٍ طويل. ربما سمعت عن رجال العدالة الثلاثة، إنهم يفعلون مثل هذه الأشياء. وأخفيت الجثة في مزرعتك؛ فلأول مرة في حياتي أدرك أنني اقترفت خطأً وأعتزم تسليم نفسي للشرطة.»

نظر إليه كورنيليوس بازدراء.

قال بصوتٍ مكتوم: «في مزرعتي؟ أين وضعت الجثة؟»

لم تتحرك عضلةٌ واحدة في وجه ليون.

«أسقطتها في البئر.»

انفجر الآخر غاضبًا: «هذا كذب! من المستحيل أن يكون أنت من فتح الغطاء!»

هزَّ ليون كتفيه.

«يجب أن تبلِّغ الشرطة. على أي حال سيعرفون مني أني أسقطت الجثة في تلك البئر. وفي القعر وجدت بابًا نجحت في فتحه بمفتاحٍ هيكلي يفتح جميع الأقفال، وبالداخل تقبع جثة ذلك الرجل التعس.»

ارتعشت شفتا مالان.

ثم التفت فجأةً واندفع خارجًا من الغرفة.

سمع ليون صوت الرصاص؛ ومن ثَم جرى في الظلام وخرج من الباب. وفي الثانية التالية انبطح على جثة كورنيليوس روس.

لما حضرت الشرطة بعد ذلك وفتحت غطاء البئر عنوةً، وجدوا جثة رجل آخر مكوَّمة في قعر البئر حيث رماها كورنيليوس.

قال ليون: «لا بد أن جونز قد شُوهِد مُتلبسًا وهو يفتح البئر عنوةً؛ ومن ثَم أُطلقَ عليه الرصاص. أليس غريبًا أن يحدث هذا بعد حديثي عن دفن رجل في هذا المكان؟ لم أتوقَّع أكثر من أن يدفع كورنيليوس ما عليه بدلًا من البحث في البئر.»

قال مانفريد بنبرةٍ جافَّة: «غريب جدًّا، والأغرب هو اسم جونز الحقيقي.»

«ما اسمه الحقيقي؟»

قال مانفريد: «دريك. اتصلت الشرطة وأبلغتنا بهذه المعلومة قبل أن تأتي بنصف ساعة.»

الفصل الثالث عشر

# كونور الإنجليزي

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «توينتي ستوري»، عدد يناير ١٩٢٨.

* * *

جلس رجال العدالة الثلاثة على العشاء وقتًا أطول من المعتاد. كان بويكارت ثرثارًا وجادًّا على غير عادته.

تحدَّث إلى مانفريد الصامت قائلًا: «الحقيقة يا عزيزي جورج هي أننا نعبث بالأشياء. لا تزال ثَمة جرائم لا يمسُّ القانون مُرتكبها، والموت هو العقاب الوحيد والمنطقي لها. لا أنكر أننا نقوم ببعض الأعمال الخيرة، ولا أنكر أننا نصحِّح بعض الأخطاء، ولكن ألا تستطيع أي وكالة تحقيقات نزيهة أن تحقِّق ما نحقِّقه؟»

همهم ليون جونزاليس: «بويكارت رجلٌ جامح لا يريد التقيد بالقانون، إنه يريد العودة إلى أصله.* ثَمة بريقٌ دموي في عينيه!»

*[العودة إلى الطريق الذي تربَّى عليه. قارِن «كان يعود إلى أصله باستمرار وهو بين الأهالي ...» روديارد كيبلينج، «سائس الآنسة يوجال»، «حكايات بسيطة من التلال»، ١٨٨٨.]

ابتسم بويكارت بانشراح صدر.

«نحن جميعًا نعرف أن هذا حقيقي. أعرف ثلاثة رجال، وكل واحد منهم يستحق الموت. كانوا يُزهقون الأرواح، وصاروا مقيَّدين بالقانون. والآن، أرى أن ...»

تركوه يتحدث ويتحدث، ورأى مانفريد في مخيِّلته صورة ميريل — رابع رجال العدالة الأربعة — الذي مات في بوردو، وبموته أكمل مهمته في الحياة. يومًا ما، قد تُروى قصة ميريل الرجل الرابع. تذكَّر مانفريد ليلةً دافئةً ساكنة عندما تحدَّث بويكارت بهذه

الوتيرة نفسها. كانوا أصغر سنًّا في ذلك الوقت؛ مُتلهفين لتحقيق العدالة، ولديهم سرعةٌ رهيبة في توجيه الضربات.

قال ليون وهو ينهض: «نحن مُواطنون محترمون، وأنت تُحاول إفسادنا يا صديقي. أنا أرفض أن أكون فاسدًا!»

نظر إليه بويكارت من تحت جفنيه المُتهدلين. سأل بجدية: «من سيكون الأول في العودة إلى الطريق القديم؟»

لم يُجِب ليون.

كان هذا قبل شهر من ظهور شارات بيانات الجنود. وقعت الشارة إلى حوزة الرجال الأربعة بطريقةٍ عجيبة. كان بويكارت في برلين يبحث عن رجلٍ يُطلِق على نفسه اسم لوفيفر. في يومٍ مُشمِس بعد الظهيرة، بينما كان يتجول في شارلونبورج، دخل إلى متجر لبيع التحف، واشترى بعض الفخاريات التركية القديمة التي كانت معروضة للبيع. اشترى مزهريتين كبيرتين زرقاوين؛ ومن ثَم غلَّفهما وأرسلهما إلى المنزل ذي المثلَّث الفضي في شارع كيرزون.

كان مانفريد هو من عثر على الشارة الذهبية. كان يمرُّ بلحظاتٍ غريبة من الاهتمام بالشئون المنزلية، وقرَّر في أحد الأيام أن يغسل المزهريتين الفخاريتين. كانت المزهريتان محشوَّتين بشتى أنواع الأجسام الغريبة؛ فامتلأت واحدةٌ منهما حتى نصفها بقصاصاتٍ قديمة من الصحف السورية، واحتاجت إلى قدرٍ كبير من الصبر والتلمس بسلك التنظيف لإخراج تلك القصاصات. لما اقترب من نهاية المهمة سمع صوت رنين معدني؛ ومن ثَم قلب الجرة رأسًا على عقب، وسقط في حوض المطبخ سوارٌ ذهبي يحمل شارةً ذهبيةً مستطيلة، نُقِش على جانبيها كتابةٌ عربيةٌ دقيقة.

تصادَف أن كان السيد دوريان من إيفينينج هيرالد في المطبخ لما وقع هذا الاكتشاف المُثير للاهتمام، وكما يعلم الجميع فالسيد دوريان أكبر كاتب في مجال الشائعات والقيل والقال وطئت قدماه شارع فليت على الإطلاق. إنه رجلٌ يبدو في العشرينيات على الرغم من أنه في عمر الأربعين تقريبًا. يمكن أن تراه في ليالي العروض الأولى وفي المأموريات المختارة والمميزة، عند إزاحة الستار عن النُّصب التذكارية للحروب؛ فقد كان من جنود المدفعية الماهرين للغاية في أثناء الحرب. كان يأتي في بعض الأحيان ويبقى حتى موعد العشاء ليتحدث عن الأيام الخوالي في مجلة «ذا ميجافون»، ولكنه لم يسبق أن حقَّق أي

مكاسب مهنية من زياراته. أخذ مانفريد يتفحَّص السوار حلقةً بحلقة، وقال: «لن يُبالي بويكارت، ولكن سيسعد ليون. الذهب بالطبع. يحب ليون الألغاز، وعادةً ما يصنع لغزًا بنفسه. سيدخل هذا اللغز صندوق قصصه الصغير.»

كان صندوق القصص الصغير يحتوي على مقتنياتٍ غريبة تخصُّ ليون. ولما كانت الخزانات والغُرف المنيعة لا تستهويه، فقد استقرَّ مُقام هذا الصندوق الفولاذي الرَّث تحت سريره. صحيحٌ أن الصندوق كان يحوي أشياء ليست ذات قيمة كبيرة في حد ذاتها؛ إذ كان يحوي مجموعةً من نثرياتٍ متنوعة تراوحت من تذاكر المُراهنين الممزَّقة إلى مقدار بوصتين من حبلٍ كان من المفترَض أن يُشنَق به مانفريد، وكان كل واحد من تلك المقتنَيات التافهة تحمل معها قصة.

اشتعل خيال الصحفي. أخذ السوار في يده وتفحَّصه.

سأل بفضول: «ما هذا؟»

كان مانفريد يفحص النقش.

«إن ليون يفهم العربية أفضل مني. يبدو شارة بيانات ضابط تركي. لا بد أنه — أو لا بد أنه كان — شخصٌ غاية في التأنق.»

قال دوريان مُتأملًا بصوتٍ عالٍ: «إنه مُثير للفضول.» هنا في لندن المليئة بالدخان اشتُريت جرة أو مزهرية من برلين، ولما قُلبت خرج منها شيء من الرومانسية الشرقية. تساءل إن كان بإمكانه تفحُّص النقش لغرض التأمل فيه، ولم يُبدِ جورج مانفريد اعتراضًا.

عاد ليون في ذلك المساء، طلبت منه الحكومة الأمريكية توفير معلومات دقيقة عن شحنةٍ عامة معيَّنة كانت تُشحَن على صنادل بحرية في ميناء لندن.

قال: «توجد موادُّ خام معيَّنة من الممكن أن تكون قد تسبَّبت في كثير من المشاكل لأصدقائنا في أمريكا.»

أخبره مانفريد عن اكتشافه.

«دوريان كان هنا، وأخبرته أن بإمكانه الكتابة عن هذا الاكتشاف إذا أحب.»

قال ليون وهو يقرأ النقش: «اممم! هل أخبرته بما تعنيه هذه الكتابة؟ ولكنك لا تفهم العربية، أليس كذلك؟ توجد كلمةٌ واحدة بحروفٍ رومانية، وهي «كونور»، هل رأيتها؟ «كونور»؟ والآن، ما معنى «كونور»؟» نظر إلى السقف. ««كونور الإنجليزي» كان ذلك هو صاحب هذه الشارة المُثيرة. كونور؟ عرفتها؛ «كونور»!»

في مساء اليوم التالي، وفي عمود «رجل في المدينة» الذي يكتبه السيد دوريان يوميًّا، قرأ ليون عن الاكتشاف، وانزعج بعض الشيء حين اكتشف أن السيد دوريان قد أشار إلى صندوق القصص. في الحقيقة لم يكن ليون يفتخر بصندوقه الصغير هذا؛ لأنه يعبر عن الرومانسية والعاطفة، وهما الصفتان اللتان كان ليون يسعد باعتقاده بغيابهما عن تكوينه الروحي.

قال مُتذمرًا: «لقد أصبحت وكيل دعاية مبتذلًا يا جورج. الشيء التالي الذي سيحدث هو أنني سأتلقَّى عروضًا رائعةً من إحدى الصحف التي تصدر يوم الأحد لكتابة سلسلة من المقالات عن «قصص من صندوق مقتنَياتي»؛ وهذا سيجعلني عابسًا لثلاثة أيام إذا فعلت.»

على الرغم من ذلك وُضع السوار في الصندوق الأسود، ورفض ليون أن يقول أي شيء عن مغزى النقش وعن علاقة «كونور الإنجليزي» به.

ومع ذلك بات واضحًا لرفيقي ليون أنه يسعى خلف تحقيق جديد في الأيام التالية. كان يتردد على شارع فليت ووايتهول، بل قام بزيارة إلى دبلن. ذات مرة استجوبه مانفريد بشأن ذلك، وابتسم ليون ابتسامةً لطيفة.

«القصة بكاملها مسلِّية إلى حدٍّ ما. كونور ليس حتى أيرلنديًّا، ربما ليس اسمه كونور، رغم أن المؤكَّد أنه حمل ذلك الاسم. عثرت على الاسم في سجل كتيبة أيرلندية رفيعة للغاية. أغلب الظن أنه من بلاد الشام. يملك آل ستيوارت، المصوِّرون الفوتوغرافيون في دبلن، صورةً له ضمن كتيبة مُحاربة؛ ولذلك ذهبت إلى أيرلندا كي أتحقَّق من الأمر. يوجد مُراهنٌ كبير في دبلن كان ضابطًا في الكتيبة نفسها، ويقول إن «كونور» كان يتحدث بلكنةٍ أجنبية.»

سأل مانفريد: «ولكن من هو كونور؟»

ضحك ليون ضحكةً مُبتهجةً عريضةً أبرزت أسنانه البيضاء المُتناسقة.

«إنه قصتي.» كان هذا كل ما قاله.

بعد ثلاثة أسابيع وجد ليون جونزاليس مغامرةً.

كان يتمتَّع ببعض صفات القطط؛ فهو ينام دون إحداث أي جلبة، حتى أكثر الآذان حدة لا بد أن تبذل جهدًا حتى تسمع أنفاسه، كما كان يستيقظ دون إحداث جلبة أيضًا. كان بإمكانه أن ينتقل من سُباتٍ تام إلى يقظةٍ تامة في لمح البصر. ومِثلما تفتح القطة عينيها وتصبح يقظةً في لمح البصر ودون تفكير، هكذا كان ليون أيضًا.

كانت لديه تلك القدرة النادرة على التفكير فيما حدث أثناء النوم وإعادة اكتشاف الأسباب، وعِلم دون أن يتذكَّر أن ما أيقظه ليس صوت نقرات أحدثتها حبال الستارة؛ إذ كان ذلك شيئًا عاديًّا مُلازمًا للنوم بسبب الرياح الليلية، بل كان صوت حركة إنسان.

كانت غرفة ليون كبيرةً بالنسبة إلى منزلٍ صغير، ولكن بسبب احتمال عدم وجود التهوية الكافية لليون كان يُثبت الباب بسنادته كي يُبقيه مفتوحًا إلى جانب النوافذ. كان يُخنفر على نحوٍ غريب مثل رجل يغطُّ في نومٍ عميق، ويُزمجر في خمول ويتقلب على السرير، ولكن لما انتهى من تقلُّبه كانت قدماه على الأرض، وكان يقف مُنتصبًا ويربط حزام منامته.

كان مانفريد وبويكارت يقضيان عطلة نهاية الأسبوع، وكان بمفرده في المنزل، وكان ذلك وضعًا مُرضيًا له؛ إذ كان ليون يفضِّل التعامل مع مثل هذه المواقف بمفرده.

ظل منتظرًا، ثم أمال رأسه وسمع الصوت مرةً أخرى. جاء الصوت في نهاية عصفة ريح هادرة لا بد أنها غطَّت على الصوت قبل أن يصبح مسموعًا، والذي كان صوت صرير واضحًا. حينئذٍ سُمع صوت صرير واضح على السُّلم سبع مرات. صدر الصوت هذه المرة من خطوات أقدام. رفع الروب من المشجب وتلمَّست قدماه الحافيتان طريقهما نحو خفَّيه، ثم خرج مُنسلًّا إلى البسطة وأضاء المصباح.

وجد رجلًا على بسطة الدرج؛ كان وجهه الشاحب المتَّسِخ في مواجهة وجه ليون. خالَج ليونَ مزيجٌ من مشاعر الخوف والمفاجأة والامتعاض البغيض.

قال ليون بهدوء: «أبعد يدك عن جيبك وإلا جعلت الرصاص يخترق معدتك. سيستغرق الأمر أربعة أيام كي تموت، وستندم على كل دقيقة فيها.»

وقف الرجل الآخر في منتصف السُّلم ساكنًا ولا يكاد يتحرك من الخوف. كان جسمه صغيرًا ونحيلًا. أشار ليون بفوهة مسدسه في اتجاهه، واستند صاحب الجسد الأصغر على الحائط مُنكمشًا من الخوف وصرخ.

ابتسم ليون. لم يقابل لصةً امرأة منذ سنوات.

قال آمرًا: «فليستدِرْ كلاكما، وانزلا من السُّلم. لا تُحاولا الهرب؛ فسوف يكون ذلك نهايتكما.»

أطاعا أمره، وكان الرجل مُتجهمًا، بينما الفتاة، كما خمَّن، لم تكد تستطيع الوقوف على قدميها.

نزلوا إلى الطابق الأرضي الآن.

قال ليون: «إلى اليسار.»

صعد ليون بسرعة إلى الرجل ووضع مسدسه في ظهره، ثم أدخل يده في جيب سترته. أخرج مسدسًا ذا ماسورة قصيرة ووضعه في جيب الروب الذي يرتديه.

«إلى المدخل، مفتاح المصباح على اليسار، شغِّله.» تبعهما إلى غرفة الطعام الصغيرة، وأغلق الباب خلفه. «والآن، اجلسا.»

كانت المواصفات التي استطاع تخمينها للرجل هي: سجينٌ عادي ذو ملامح غير مُتناسقة وبشرة سيئة؛ مخلوقٌ ذو عقلية وضيعة، قضى فترات حريته القصيرة يؤهِّل نفسه لدخول السجن مرةً أخرى.

لم تتكلم رفيقته؛ ومن ثَم لم يستطع ليون أن يحدِّد صفاتها إلى أن تحدَّثت.

«أنا آسفة للغاية. أنا من أتحمَّل المسئولية كاملةً.»

تهلَّل وجه ليون لما تحدَّثت.

كان صوتًا راقيًا يُوحي بأن صاحبته مثقَّفة؛ ذلك الصوت الذي يمكنك أن تسمعه في شارع بوند وهو يأمر السائق بأن يتجه إلى ريتز.

كانت جميلة، ولكن في ذلك الوقت كانت معظم النساء جميلات في عينَي ليون؛ فقد كان يحمل قدرًا كبيرًا من المحبة والإحسان في قلبه. كانت عيناها سوداوين، وقوسا حاجبيها دقيقين، وشفتاها حمراوين وممتلئتين نوعًا ما. كانت أصابعها المتوترة، التي التفَّت حول بعضها، بيضاء مُتناسقة، طُليت أظافرها على نحوٍ مُبالَغ نوعًا ما. كانت ثَمة بقعةٌ أرجوانيةٌ صغيرة على ظهر أحد أصابعها، مكان خاتم كبير كانت ترتديه.

قالت بصوتٍ مُنخفض: «هذا الرجل غير مسئول. لقد استأجرته. لي ... لي صديقٌ اعتاد أن يُساعده، وأتى إلى المنزل في إحدى الليالي الأسبوع الماضي، وطلبت منه أن يقوم بهذا لي. هذه هي الحقيقة.»

«هل طلبت منه أن يسطو على منزلي؟»

أومأت الفتاة: «أرجو أن تتركه يرحل. يمكنني أن أتحدَّث إليك عندئذٍ، وأشعر بمزيد من الارتياح. هذا ليس ذنبه حقًّا. أنا المسئولة عن كل ما حدث.»

سحب ليون درج طاولة كتابة صغيرة، وأخرج ورقة ولوح التحبير. وضعهما أمام رفيق الفتاة ذي الوجه غير الحليق.

«ضع إصبعك وإبهامك على اللوح واضغط عليهما.»

«لماذا؟» كان صوت الرجل أجشَّ ومُتشككًا.

«أريد بصمات أصابعك حال اضطررت لتعقُّبك. هوِّن على نفسك!»

أطاع اللص الأمر على مضض؛ ومن ثَم طبع بصمات اليدين واحدةً تلو الأخرى. تفحَّص ليون البصمات على الورقة ورضي بذلك.

«سِرْ في هذا الاتجاه.»

ودفع الضيف إلى الباب المُطل على الشارع، وفتحه له ثم خرج وراءه.

قال: «لا يجب أن تحمل مسدسًا.» ولما كان يتحدث اندفع بقبضته نحو وجهه، وأمسك الرجل من تحت فكه، وخرَّ الرجل على الأرض.

نهض وهو يئن.

قال مُنتحبًا: «هي التي جرَّتني إلى ارتكاب هذا الفعل.»

قال ليون بمرح: «ثم أعطتك أجرك لكمةً في وجهك.» ثم أغلق الباب خلف الرجل الذي كان يُطلِق على نفسه اسمًا ليس به أي خيال: جون سميث.

لما رجع إلى غرفة الطعام وجد الفتاة قد وضعت عنها المعطف الثقيل الذي كانت ترتديه، وتتكئ على الكرسي شاحبةَ الوجه بعض الشيء، إلا أنها كانت هادئة تمامًا.

«هل ذهب؟ إنني سعيدة للغاية! ضربته، أليس كذلك؟ أظن أنني سمعتك. ما الذي تظنُّه عني؟»

قال ليون: «ما كنت لأفوِّت الليلة ولو بألف جنيه!» وكان صادقًا في ذلك.

لم تبتسم لأكثر من جزء من الثانية.

سألت بصوتٍ هادئ: «في رأيك، لماذا فعلتُ هذا الشيء المجنون الأحمق؟» هزَّ ليون رأسه.

«هذا بالضبط ما لا أستطيع التفكير فيه. ليس تحت يدنا قضيةٌ بالغة الأهمية، وجميع المستنَدات السرية التي تظهر في كل القصص المُثيرة منعدمة تمامًا. لا يسعني سوى الاعتقاد بأننا قسَونا على صديق لك، أو حبيب أو أب أو أخ.»

رأى شبح ابتسامة يظهر ويختفي.

«لا، الأمر لا يتعلَّق بالانتقام. لم تتسبَّبوا في أي أذًى لي، سواء بطريقةٍ مباشرة أو غير مباشرة. ولا توجد مستنَداتٌ سرية.»

«إذن القضية ليست قضية انتقام ولا قضية سطو. أعترف بهزيمتي!»

عندئذٍ ارتسمت ابتسامةٌ مُبهجة ورائعة على شفتَي ليون، وفي هذه المرة ابتسمت هي دون تحفُّظ.

قالت: «أعتقد أنه من الأفضل أن أخبرك بكل شيء، والأفضل أن أبدأ بأن أخبرك بأن اسمي لويس مارتن، أبي هو السيد تشارلز مارتن ويعمل جرَّاحًا، كما أنني سأتزوَّج من الميجور جون روتلاند من شرطة كيب في غضون ثلاثة أسابيع؛ وهذا هو السبب في سطوي على منزلك.»

كان ليون مُستمتعًا.

سأل بقدرٍ طفيف من السخرية: «هل كنت تبحثين عن هدية للزواج؟»

تفاجأ لما أومأت.

قالت: «هذا ما أتى بي إلى هنا. كنت سخيفة للغاية. لو كنت أعرفك جيدًا لأتيت إليك وطلبتها منك.»

لم تحوِّل عينيها عن ليون.

سأل: «حسنًا، ما هذه الهدية المُثيرة للاهتمام؟»

تحدَّثت ببطءٍ بالغ.

«سوار من الذهب وبه شارة بيانات لجندي.»

لم يتفاجأ ليون إلا من صراحة حديثها. دوَّن الأسماء التي ذكرتها له، ثم قال مُكررًا: «سوار ذهبي مملوك لـ...»

تردَّدت.

«أظن أنك يجب أن تعرف القصة كاملةً؛ فأنا بين يديك.»

أومأ ليون.

قال مسرورًا: «ما بين يديَّ كثير جدًّا. أظن لو أنك أخبرتني الآن فلن تشعري بالانزعاج الذي ستشعرين به عند شرح المسألة لمأمور شرطة.»

كان ليون هو اللطف ذاته، ولكنها — كشأن باقي النساء — استطاعت اكتشاف صلابة في نبرته جعلتها تخاف قليلًا.

قالت: «لا يعرف الميجور روتلاند شيئًا عن مجيئي إلى هنا. سيُصاب بالذعر إن علِم بإقدامي على هذه المخاطرة.»

تردَّدت في البداية، ولكنها أخبرته كيف قُتِل شقيقها الأكبر أثناء الحرب في أفريقيا.

قالت: «هكذا جاءت معرفتي بجاك. لقد كان في الصحراء هو الآخر. راسَلني منذ عامين من باريس وقال إن لديه بعض الأوراق تخصُّ فرانك المسكين. لقد أخذها من ... من جسده بعدما قُتِل. بالطبع طلب منه أبي أن يحضر إلينا، وأصبحنا صديقَيْن حميمَيْن على الرغم من أن أبي لم يكن مُتحمسًا لـ... لزواجنا.»

ظلَّت صامتةً قليلًا ثم تابعت بسرعة:

«لا يرغب أبي في زواجنا على الإطلاق، والحقيقة أن مسألة زواجنا الوشيك هي سر. كما ترى يا سيد جونزاليس، أنا امرأةٌ ثرية نسبيًّا؛ فقد تركت لي أمي مبلغًا كبيرًا من المال، وسيصبح جون هو الآخر ثريًّا. خلال فترة سجنه في أثناء الحرب، اكتشف موقع منجم ذهب كبير في سوريا، وهذا هو فحوى النقش. لقد أنقذ جون رجلًا عربيًّا من الموت، ولكي يردَّ له الجميل كشف له عن مكان المنجم، وكل هذه المعلومات منقوشةٌ على شارةٍ ذهبيةٍ صغيرة باللغة العربية. فقد جون هذه الشارة في نهاية الحرب، ولم يسمع أي خبر عنها حتى قرأ في جريدة «إيفينينج هيرالد» عن اكتشافك. من الطبيعي أن ينزعج جون المسكين بشدةٍ من فكرة أن شخصًا ما قد يسبقه إلى هذه الثروة لو فكَّ شفرة هذه الشارة؛ ومن ثَم اقترحت عليه أن يذهب إليك ويراك ويطلب منك أن تُعيد إليه السوار، لكنه لم يستمع لي. بدلًا من ذلك تصاعَد قلقه وضيقه وتوتره أكثر وأكثر، وفي النهاية فكَّرت في هذه الخطة المجنونة. جاك لديه الكثير من المعارف من أوساط المُجرمين، وبحكم عمله ضابط شرطة، من الطبيعي تمامًا أن يعرف كيف يتعامل معهم، وقد فعل الكثير كي يساعدهم على الاستقامة. هذا الرجل الذي جاء إليك الليلة كان واحدًا منهم. أنا من قابلته، واقترحت فكرة اقتحام المنزل وأخذ السوار. علِمنا أنك تحتفظ به تحت سريرك.»

«هل أنت متأكدة من أنك من فكَّر في عملية السطو هذه وليس الميجور جون روتلاند؟»

تردَّدت مرةً أخرى.

«أظن أنه اقترح مازحًا ضرورة السطو على المنزل.»

سأل ليون بلطف: «وأنك من يجب أن تنفِّذي عملية السطو؟»

تحاشت النظر في عينيه.

«مازحًا، نعم. قال إن أحدًا لن يؤذيني، وإن بإمكاني دائمًا ادعاء أنها كانت مجرد مزحة. أعلم أنها كانت فكرةً حمقاء للغاية يا سيد جونزاليس، ولو علِم والدي ...»

قال ليون بأسلوبٍ فظ: «بالضبط. لست بحاجة لأن تُخبريني بالمزيد، عن عملية السطو. كم تمتلكين من المال في البنك؟»

نظرت إليه في دهشة.

قالت: «أربعين ألف جنيه إسترليني تقريبًا. بِعت الكثير من السندات المالية مؤخرًا؛ فلم تكن تُدرُّ أرباحًا كثيرة.»

ابتسم ليون.

«وسمعت عن استثمارٍ أفضل، أليس كذلك؟»

كانت سريعة في استيعاب ما يرمي إليه.

قالت بهدوء: «أنت مُخطئ تمامًا يا سيد جونزاليس. لا يسمح لي جون بوضع أكثر من ألف جنيه في اتحاد مُمولي اكتشافه؛ فهو ليس متأكدًا إن كان سيحتاج إلى ألف أم إلى ثمانمائة جنيه إسترليني. لن يدعني أستثمر قرشًا إضافيًّا. إنه ذاهب إلى باريس ليلة الغد كي يضع أقدام هؤلاء الأشخاص على الطريق لبدء رحلة الاستكشاف، ثم سيعود كي نتزوج ونتبعهم.»

نظر إليها ليون مفكرًا.

«ليلة الغد، هل تقصدين الليلة؟»

نظرت إلى الساعة بسرعة وضحكت.

«بالطبع، الليلة.»

ثم انحنت على الطاولة وتحدَّثت بجدية.

«سيد جونزاليس، سمعت الكثير عنك وعن أصدقائك، وأنا متأكدةٌ من أنكم لن تُفشوا سرنا. لو كان لديَّ أي حكمة لأتيت إليك البارحة وطلبت منك الشارة، بل كنت على استعداد لدفع مبلغ كبير من المال كي أخلِّص جون من قلقه. هل تأخَّر الوقت الآن؟»

أومأ ليون: «تأخَّر كثيرًا. إنني أحتفظ بها كتذكار. لقد أخبرك الرجل الجريء الذي كتب تلك الفقرة بأنها جزء من مجموعة قصصي، وأنا لا أفرط أبدًا في تلك القصص. بالمناسبة، متى ستُعطينه الشيك؟»

ارتعشت شفتاها عند سماعها ذلك.

«أما زِلت تظن أن جون مُحتالٌ شرير؟ لقد أعطيته الشيك أمس.»

«ألف أم ثمانمائة جنيه؟»

قالت: «هو من سيقرِّر هذا الأمر.»

أومأ ليون ونهض.

«لن أُزعجك أكثر من ذلك. من الواضح أن السطو ليس تخصُّصكِ يا آنسة مارتن، وأنصحكِ بأن تتجنَّبي هذه المهنة في المستقبل.»

قالت مبتسمةً: «لن تزجَّ بي إلى السجن، أليس كذلك؟»

قال ليون: «ليس بعد.»

فتح لها الباب ووقف يُراقبها مرتديًا الروب. رآها تعبر الطريق إلى موقف سيارات الأجرة، وأخذت آخر مركبة متاحة، ثم أغلق الباب وعاد إلى سريره.

أيقظه المنبِّه في الساعة السابعة؛ ومن ثَم نهض مُبتهجًا وأمامه عمله الذي يستهوي قلبه. في الصباح ذهب إلى شركة للسياحة، واشترى تذكرة إلى باريس؛ فقد بدا له أنه سيُهدر الوقت لو ذهب إلى مكتب المفوِّض السامي لجنوب أفريقيا واطَّلع على السجلات المتاحة لشرطة كيب، ولكنه كان رجلًا دقيقًا يقظ الضمير. بعد الظهيرة ظلَّ يتسكع بالقرب من بنك نورثرن آند ساوذرن في شارع ثريدنيدل. وفي الساعة الثالثة إلا الربع حظي بثمار مراقَبته للمكان؛ إذ رأى الميجور جون روتلاند يترجَّل من سيارة أجرة ويدلف إلى البنك، ويخرج قبل دقائق من غلق الأبواب الكبيرة. بدا الميجور سعيدًا جدًّا بنفسه؛ فهو رجلٌ وسيم ونحيف إلى حدٍّ ما، وله شاربٌ عسكري قصير.

عاد مانفريد بعد الظهيرة، ولكن لم يُخبره ليون شيئًا عن عملية السطو. صعِد بعد العشاء إلى غرفته الخاصة، وأخذ من الدرج مسدسًا أوتوماتيكيًّا، ووضع فيه بضع قطرات من الزيت، ووضعه في جِرابه وحشاه بالطلقات بحرص. ومن صندوقٍ صغيرٍ أخذ كاتمًا للصوت وثبَّته في الفوهة. وضع المسدس في جيب معطفه، وأخذ حقيبته ونزل. كان جورج يقف في المدخل.

«هل ستخرج يا ليون؟»

قال ليون: «سأغيب ليومين.» فتح له مانفريد الباب دون طرح أي أسئلة كعادته.

كان ليون مُنزويًا في أحد أركان عربة قطار من الدرجة الأولى حين رأى الميجور روتلاند والفتاة يمرَّان، وكان خلفهما شخصٌ ثالث غير مرغوب فيه؛ كان رجلًا طويل القامة نحيف الوجه ذا شعر رمادي، وكان واضحًا أنه الجرَّاح. رآهما ليون من زاوية عينه، ولما تحرَّك القطار لمح الفتاة تلوِّح بيدها لحبيبها المسافر.

كانت ليلةً مُظلِمةً عاصفة؛ فقد أنذرت نشرة الأحوال الجوية المدونة بطبشور على لوحة في محطة السكة الحديد برحلةٍ غير سارَّة، وعندما استقلَّ السفينة في منتصف الليل وجدها تتمايل على صفحة الماء في اضطراب، حتى في مياه المرفأ الهادئة نسبيًّا.

اطَّلع سريعًا على القائمة لدى محاسب السفينة. أخذ الرائد روتلاند كابينة، وبعد أن بدأت السفينة في التحرك خارج الميناء حدَّد مكانها. كانت الكابينة الخلفية الفاخرة، ولم تكن جميلة لأن السفينة كانت قديمة.

انتظر حتى أتى مساعد المحاسب كي يأخذ تذكرته، ثم قال: «أخشى أنني فقدت تذكرتي.» ومن ثَم دفع ثمن التذكرة.

كانت التذكرة من دوفر إلى كاليه في جيبه، ولكن الميجور روتلاند لم يستقلَّ السفينة المتَّجِهة إلى كاليه، بل المتَّجِهة إلى أوستند. شاهَد مساعد المحاسب يذهب إلى الكابينة الفاخرة ونظر عبر النافذة بإمعان. كان الميجور مُضطجعًا على أريكة وقد أنزل قبعته على عينيه.

بعدما أخذ مساعد المحاسب التذكرة وغادَر، انتظر ليون نصف ساعة أخرى، ثم رأى الظلام يعمُّ الكابينة. تجوَّل حول السفينة، ورأى آخر ضوء لإنجلترا مُتلألئًا في الأفق الجنوبي الغربي. لم يكن ثَمة ركاب على سطح السفينة؛ فقد نزلت القلة التي تحملها السفينة إلى قعرها؛ إذ كانت تتمايل وتتخبَّط بين الأمواج بقوةٍ رهيبة. مرَّت ربع ساعة أخرى، ثم أدار ليون مقبض باب الكابينة الفاخرة، ودلف إلى الداخل، وتجوَّل بضوء كشَّافه الصغير في أرجاء الغرفة. من الواضح أن الميجور لم يُسافر بكمٍّ كبير من الأمتعة؛ فلم يكن بالغرفة سوى حقيبتين صغيرتين ولا شيء آخر.

أخذ ليون هاتين الحقيبتين إلى سطح السفينة، وسار نحو سور السفينة وقذفهما في الماء، ولاقت قبعة الرجل المصير ذاته. أعاد الكشَّاف إلى جيبه، ولما عاد إلى الكابينة للمرة الثانية هزَّ النائم برفق.

قال بصوتٍ أعلى من صوت الهمس قليلًا: «أريد أن أتحدَّث معك يا كونور.»

استيقظ الرجل على الفور. «من أنت؟»

«تعالَ إلى الخارج، أريد التحدث معك.»

تبعه «الميجور روتلاند» إلى سطح السفينة المُظلِم.

سأل: «إلى أين أنت ذاهب؟»

كانت مؤخرة السفينة محجوزةً لركاب الدرجة الثانية، وكان هذا الجزء مهجورًا أيضًا. اتَّجها إلى سور السفينة أعلى مؤخرة السفينة. كانا في ظلامٍ دامس.

«هل تعرف من أنا؟»

أتاه الرد في هدوء: «ليست لديَّ أدنى فكرة.»

قال ليون: «اسمي جونزاليس. اسمك بالطبع هو يوجين كونور، أو بيرجستوفت. في وقتٍ ما كنت ضابطًا في ...» وذكر اسم الكتيبة، «في الصحراء، توجَّهت إلى العدو بترتيباتٍ نظَّمتها وكالة في القاهرة. أُعلنَ عن مَقتلك، لكنك في الواقع وُظِّفت جاسوسًا من قِبل العدو لصالحه. كنت مسئولًا عن الكارثة التي وقعت في المسجد. لا تُحاول أن تسحب هذا السلاح وإلا فستكون نهاية حياتك.»

قال الرجل وهو يلهث قليلًا: «حسنًا، ماذا تريد؟»

«أول شيء أريده هو المال الذي سحبته من البنك بعد ظهر اليوم. أعلم أن الآنسة مارتن أعطتك شيكًا على بياض، وأعلم يقينًا أنك ملأت هذا الشيك برصيدها كاملًا مِثلما ستكتشف في صباح الغد.»

ضحك كونور بغلظة وقال: «سرقة بالإكراه، أليس كذلك؟»

قال ليون بصوتٍ خافت للغاية: «المال، وبسرعة!»

استشعر كونور طرف المسدس في بطنه؛ ومن ثَم أطاع الأمر. أخذ ليون رزمة الأوراق السميكة من الرجل ووضعها في جيبه.

قال كونور: «أظن يا سيد ليون جونزاليس أنك ستُقحِم نفسك في مشاكل في غاية الخطورة. اعتقدت أنك على الأرجح ستفكُّ رمز ...»

ليون: «لقد حللْتُ الشفرة دون أي متاعب على الإطلاق، إذا كنت تقصد الشارة الذهبية. تقول الشفرة إن «كونور الإنجليزي مسموح له بالدخول إلى خطوطنا في أي وقت من النهار أو الليل، ويُمنَح أي مساعدة يحتاج إليها.» وكانت الرسالة موقَّعة من قائد الجيش الثالث. نعم، أعرف كل شيء عن هذا الأمر.»

قال الرجل: «عندما أعود إلى إنجلترا ...»

«أنت لا تنوي العودة إلى إنجلترا؛ فأنت مُتزوج. تزوَّجت في دبلن، وربما لا تكون هذه هي المرة الأولى التي تعدِّد فيها الزوجات. كم المبلغ الموجود هنا؟»

«ثلاثون أو أربعون ألف جنيه؛ لا داعي للاعتقاد بأن الآنسة مارتن سوف ترفع ضدي قضية.»

قال ليون بصوتٍ مُنخفض: «لن يرفع أحدٌ قضيةً ضدك.»

ألقى نظرةً سريعة من حوله ووجد سطح السفينة خاويًا.

«أنت خائن لبلدك، هذا إن كان لك بلد؛ رجلٌ أرسل آلاف الرجال كانوا رفاقه يومًا ما إلى حتفهم. هذه حقيقتك كاملةً.»

كانت هناك شعلةٌ من لهب في يده أسقطها في الماء! انزلقت ركبتا كونور تحته، ولكن قبل أن ينزل على الأرض أمسكه ليون جونزاليس من تحت ذراعيه، ورمى المسدس في الماء، ورفع الرجل دون أي جهد، وقذفه في البحر المُظلِم.

لما أصبح مرفأ أوستند في مرمى البصر، وذهب خادم السفينة كي يأخذ أمتعة الرائد روتلاند، لم يجد الأمتعة ولا صاحبها. غالبًا ما يكون الركاب بخلاء، ويحملون أمتعتهم

الخاصة إلى سطح السفينة كي يوفِّروا أجرة حملها. هزَّ الخادم كتفيه ولم يفكر في الأمر كثيرًا.

أما ليون جونزاليس، فقد مكث في بروكسل يومًا واحدًا، وأرسل المبلغ الذي كانت قيمته ٣٤٠٠٠ جنيه إسترليني نقدًا دون تعليق إلى الآنسة لويس مارتن، وأخذ القطار المتَّجِه إلى كاليه، وعاد إلى لندن في تلك الليلة. نظر مانفريد لما دخل صديقه إلى غرفة المائدة.

سأله: «هل استمتعت بوقتك يا ليون؟»

ليون: «أيَّما استمتاع.»

هنداوي